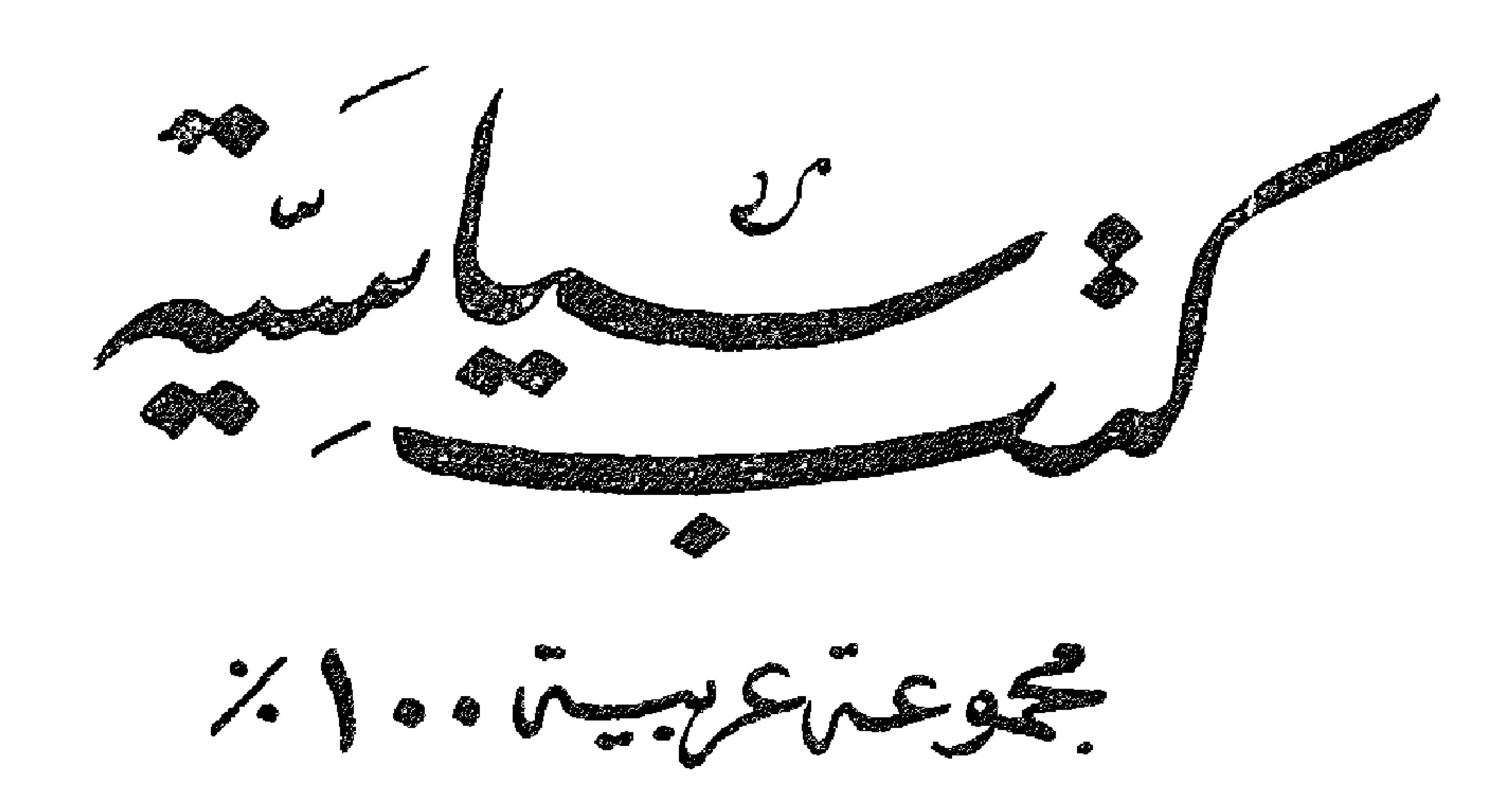


مجموعة عربية ١٠٠ ٪

أضواء

على المنافسة الدولية في أعالي النيل

بقلم

الدكتور علي ابراهيم عبده

كتب سياسية

أضواء

على المنافسة الدولية في أعالي النيل

بقلم
الدكتور علي إبراهيم عبده

مقـــدمة

حين نقف على « المحصول الثـــورى » الذى تحقق أخيرا فى افريقية ، لا نملك الا الزهو بهذه القارة العظيمة التى عرفت كيف تنتفض ، ثم تقف شامخة صلبة ، كأنها كل ما فى العالم من ارادة الحياة ..

فبرغم انها استنزفت ابتداء من « الدورة الملعونة » التى قام بها البرتغاليون ، وبرغم انها أصبحت « طرفا » يتمثل الآن فى العواصم الاوربية الى الحد الذى يستطيع فيه الانســـان أن يضع أصابعه على بعض الثروات هناك . ثم يصيح «بانها عرق أفريقى» . برغم هـــذا الا ان القارة ما زالت تتفجر بالحياة وبالارادة الصلبة للانسان وبالمستقبل المزهر فى حياة يسودها السلام وترفرف عليها الرفاهية .

لقد ردد كثير من الكتاب القول بأن افريقية أصبحت كالورقة الجافة بعد تقدم الاعصار الاوربى واستقراره فى كل شىء فيها حتى فى « رءوس الناس » ، وكأنهم لا يعرفون أنهم يرددون « اشــــاعة خبيثة » معناها أنها لا تستطيع أن تقوم بدور حاسم فى المستقبل .

ونحن يهمنا أن نذكر لهؤلاء ولغيرهم ان اقتصاديات افريقية ما زالت « بكرا » وانها تستطيع أن تقـــود حملة ضخمة من أجل اثراء الحياة ومن أجل أن يعيش الانسان فى « جنتها الجميلة » بفهم عميق .

فارادة الانسان تستطيع تثمير مساحتها الشاسعة والاستفادة

من الوفرة التي تتمثل في مساقط المياه والتي قدرت بما يزيد على مجاميع الطاقة الكهربائية لامريكا الشمالية والجنـــوبية وأوربا بالاضافة الى الصناعات المتعددة التي يمكن أن توجد بها ٠

ان كل شيء في افريقية الآن ينتظر « عصا الســاحر » حتى الصحراء القاحلة قيل انها تخفي امتدادات لا تنتهي من البترول ٠٠

من كل هذا نريد أن ننتهي الى ان افريقية قارة لها مستقبل وانها تستطيع أن تتغلب على فترات الظلام التي مرت بها ٠٠

وانه لـكي « نحرس » هذا المستقبل يجب أن نعرف طبيعة الظروف التي مرت بها وطبيعة الصراع الذى دار فوقها ٠٠

وانه اذا كانت افريقية عالما جديدا علينا اليــوم بمشكلاته وأحداثه فان نفرا من دارسينا الممتازين قد أحسوا «دبيب الفجر» من زمن بعيد ٠٠ فكانت دراساتهم المعمقة وأبحاثهم التي تفخر بها الجامعة ٠٠

ولعل في مقدمة هؤلاء كتاب « المنـافسة الدولية » في أعالي النيل للدكتور على ابراهيم عبده ٠٠ فأهمية هذا الكتاب ترجع الى انه كان دراسة جامعية حصل بها على الدكتوراه في وقت مبكر ، هو عام ١٩٥٨ ومعنى هذا انه عاصر المشكلات الافريقية في وقت كانت فيه القارة « شبه مقتولة » وكانت مجرد « مساحات لونية » تنتمي الى الدول الاوربية ٠

ثم ان هذا الكتاب يقدم لنا « نموذجا حيا » عن طبيعة الصراع الاوربي ٠ وكيف ان الدول كانت تظهر متعارضة في أول الامر ٠ وانه من أجل هذا التعارض كان يحمل السلاح ويتقارب الى حد أن السونكي الفرنسي كان يحتك بالسونكي الانجليزي في منطقة أعالي النيل ٠ ولكن كل هذا (الغضب) سرعان ماكان يتحول على (الموائد المستديرة) الى مساومات للتقسيم ٠٠ والى الرغبة في عدم التعارض

والى التنازل عن شيء في مقابل آخر ٠٠ على أن يكون كل من الشيئين المتعارض عليهما من (أفريقية) ٠ ولقد ظهر هذا الصراع واضحا فى عملية الاحتكاك التى تمت فى هذه المنـــطقة بين كلا من انجلترا وفرنسا ٠ وايطاليا وألمانيا وبلجيكا ٠ وكيف ان عملية (التصفية الاخيرة) كانت على حساب القارة الافريقية والمواطنين الافريقيين ٠ فاذا أضفنا الى ذلك ان هذا الكتاب قد مس الاعماق السياسية فى مصر ٠٠ وان طبيعة هذا الصراع قد علق عليها المصريون الآمال فى تخليص وادى النيل من السيطرة الانجليزية وكيف ان هذه الآمال سرعان ماتبددت أمام عمليات (الاتفاق) التى تمت بين الاطراف المتنازعة ، اذا أضفنا ذلك عرفنا أن هذا الكتاب يمس قسما كبيرا من تطلع مصر الذى كان يرمى دائما الى نشر السلام فى القارة ٠٠ والى أن (قلبها) دائما كان مع الافريقيين بل انه كان (يذبح) مع قلوب الافريقيين ٠ وقد ظل ينزف حتى كانت عمليات الانتصـــار الاخيرة بالقارة ٠٠

من هذا وغيره نستطيع أن نقول ان هذا الكتاب يعتبر من الكتب الرائدة عن افريقية وانه قـــد أصبح مرجعا هاما لكثير من الدارسين والباحثين فى الشئون الافريقية ٠

ومهما يكن من شيء فان كتاب المنافسة الدولية فى أعالى النيل يعتبر فى مقدمة الكتب التى كتبت عن افريقية وانه قد أصبح أحد المعالم الجادة فى الدراســـات الافريقية بحيث أن أية دراسة تأتى بعد ذلك دون الايمـــاء اليه تعتبر متجنية على دراسة رائدة فى الميدان الافريقى ٠

والله ولى التوفيق ٠

دكتور
محمد المعتصم سيد

١٩٦٣/٧/١

تمهيد

يسرني أن أقدم للقراء كتاب « أضواء على المنافسة الدولية في أعالي النيل » . وهذا الكتاب في الحقيقة موجز لكتاب «المنافسة الدولية في أعالي النيل من ١٨٨٠ ـ ١٩٠٦ » الذي كان موضوع رسالتي للدكتوراه ، التي نوقشت فيها بتاريخ ١٨ مايو ١٩٥٧ بجامعة الاسكندرية .

هذا وقد سبق لمكتبة الانجلو المصرية أن نشرت هذا الكتاب سنة ١٩٥٨ ، وكنت قدمته بكلمة قلت فيها :

« أعتقد أن لموضوع « المنافسة الدولية في أعالي النيل » أهمية من نواح مختلفة ، أظهرها انه يتصل بقضية الاستعمار في افريقية وتقسيمها بين الدول الاوربية ، والصراع القائم الآن بين الشعوب الافريقية المتعطشة للحرية ، والتي تصر اصرارا شديدا على الفوز بها ، وبين الدول الاستعمارية المستميتة من أجل البقاء في هذه القارة الغنية بطاقتها البشرية ومواردها الاقتصادية كما انه يتصل بمسألة المياه في أعالي النيل وأثرها الواضح في التطورات التاريخية لهذه المنطقة .

وحقا تبدأ صلتي الرسمية بهذا الموضوع منذ أن سجلته في الجامعة لدرجة الدكتوراه ، غير أن صلتي الشخصية به ترجع الى أمد بعيد ، وترتد الى الوراء حتى تبلغ الفترات التي كان يتفتح فيها ذهني ــ في سنوات الدراسة الثانوية والجامعية ــ للتاريخ الحديث لوادي النيل . وكنت حريصا أشد الحرص على أن أدرك

في شيء من العمـــق كيف أن الدول الاوروبية كانت تتناحر على السيطرة على هذا الوادي أو على أجزاء منه • وكان هـــذا الحرص يزداد نموا مع الزمن كلما قرأت في هذا الموضوع • حتى اذا أنهيت دراستي في معهد الدراسات السودانية (الافريقية الآن) عـــام ١٩٥٠ ، واجتمعت باســـتاذي المشرف أتحدث اليه عن موضوع الدكتوراه ، طفت على السطح هذه الرغبات التي كانت مستكنة في الاعماق • واستقر الرأي على اختيار موضوع « المنافسة الدولية في أعالي النيل من ١٨٨٠ ـ ١٩٠٦ » •

وقد اعتاد الجغرافيون أن يقسموا مجرى كل نهر الى أقسام ثلاثة ، لكل قسم خواصه ومميزاته الحوض الاعلى والاوســـط والادنى • ويشتمل الحوض الاعلى للنيل على منابع النيل الاستوائية وهي تقع في هضبة البـــحيرات ، وعلى أحواض بحر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال ونهر السوباط •

وقد حددت المنافسة بين سنتي ١٨٨٠ و ١٩٠٦، لان التوسع الاستعماري الأوروبي وان كان أخذ ينشط في افريقية كلها منذ سنة ١٨٧٨ • وهي السنة التي عقد فيها مؤتمر برلين بعد الحرب التركية الروسية ، الا أنه منذ سنة ١٨٨٠ أخذ التوسع الاستعماري الاوروبي ينتشر بسرعة زائدة في تلك القـــارة ، وأخذت الدول الاوروبية تتسابق على الوصول الى منطقة أعالي النيـــل وامتلاكها تحقيقا لاغراض وأهداف متباينة • وما ان حلت سنة ١٩٠٦ حتى كانت هذه المنافسة على أعالي النيـــل قد انتهت نتيجة تسويات واتفاقات بين الدول المتنافسة • ولا يفوتني أن أذكر هنا انه تم في العشرين ســـنة الاخيرة من القرن التاسع عشر وضع الخطوط الرئيســـية للخريطة الافريقية وأن هذه المدة تعتبر عصر تقسيم افريقية الذي التهمت فيه الدول الاستعمارية أراضي القارة ، وكان هذا بموجب عمليـــات دبلوماسية دقيقة متصلة أكبر الاتصـــال بالدبلوماسية الاوروبية العالمية في ذلك الوقت » •

وفى هذه الايام التى تحتل فيها احداث افريقية ومشاكلها مكان الصدارة بين احداث العـــالم ومشاكله ، حتى أخذ الكاتبون والمؤرخون فى مختلف أنحاء العالم يظهرون من علل هذه الاحداث والمشاكل وأسبابها ما كان خافيا بالتعليل والتفسير ، أرى لزاما على الكتاب والمؤرخين العرب أن يولوا كل ما يتصـــــل بافريقية اهتماما فائقا ، فان نصف الوطن العربى ان لم يكن أكثره يقع فى افريقية ، وأما النصف الآخر فهو فى آسيا . وليس من شك فى أن شعوب آسيا وافريقية تكافح اليوم يدا بيد فى سبيل الحرية والاستقلال .

وعلى هذا يسرنى أن أقدم للقارىء اليوم هذا الكتاب بالصورة التى بين يديه وهى صـــــورة مبسطة موجزة ، من غير أن تكون تلخيصا مبتسرا لكتاب « المنافسة الدولية فى أعالى النيل » ، آملا أن يلقى بعض الضوء على علل الاحداث المعاصرة فى افريقية والله ولى التوفيق .

دكتور

على ابراهيم عبده

١٩٦٣/٦/١٧

الفصل الاول

تقسيم أفريقية بين الدول الأوروبية

بدأ الاستعمار الاوروبى بظهور عهد الاستكشافات البحرية على أيدى الاسبان والبرتغال ، الذين توسعوا فى ناحية أمريكا الوسطى والجنوبية من جهة ، وعلى سواحل افريقية فى اتجاه الهند وأطراف المحيط الهادى من جهة ثانية • وكانت أسبانيا قد اندفعت فى سبيل القوة وجمع السلطان ، فلما انتهت دولة العرب فى الاندلس ولم تجد أسبانيا أمامها من تناضله من العرب ، وجهت نشاطها الفائض نحو البحار ، فاندفعت بكل قوتها فى الاتجاه الجديد • وساعدها على ذلك ان هذا المجال كان مجالا بكرا لا ينافسها فيه أحد غير جارتها البرتغال ، وهى التى اندفعت معها فى نفس الاتجاه البحرى • ولكن البحار وما وراء البحار كانت أوسع من أن تضيق بهاتين القوتين الناشئتين ، فوجد كل من الاسبانيين والبرتغاليين مجال الاستعمار فسيحا فى العالم الجديد أو فى العالم القديم • الا أن البرتغاليين كانوا أسبق من غيرهم فى كشف سواحل افريقية الغربية ، فاحتلوا ميناء سبتة سنة ١٤١٥ ، وبعد ذلك بخمس سنوات وصلوا الى جزر ماديرا ، واستمر توغلهم رحلة اثر أخرى ، حتى بلغوا ساحل سيراليون فى عام ١٤٦١ • وفى سنة ١٤٧١ عبروا خط الاستواء لاول مرة ، ولكنهم لم يصلوا الى مصب الكنغو الا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة • وفى سنة ١٤٨٦ قامت رحلة شهيرة قائدها بارثلميوديار ، وسبب شهرة هذه الرحلة ان السفن وصلت لاول مرة الى رأس الرجاء الصالح ، بل

وتعدتها قليلا الى الشرق · ولم يتم بارثلميو الرحلة الى الشرق ، وبقي هذا الشرف التاريخي حتى حصل عليه فاسكوداجاما في رحلته التي استغرقت حوالي ثلاث سنوات من ١٤٩٧ ·

أما عن الفرنسيين ، فادعوا ان أحد مواطنيهم كان أول أوروبي أسس محلة في جزر كناري ، ولكن كان هذا المواطن الفرنسي يدين بالولاء لملك قشتاله ولذلك ضمت هذه الجزر الى الممتلكات الاسبانية في القرن الخامس عشر · ولكن بعد ذلك قامت رحلات من بريتاني ، ووصل الفرنسيون الى ساحل غرب افريقية حتى السنغال ·

وبدأ الانجليز محـــاولاتهم الكشفية بالتجارة مع سواحل افريقية في أواخر القرن الخامس عشر ، ولكن البرتغاليين احتجوا على ذلك لاسبقيتهم في الكشف ، فامتنعت بريطانيا عن ارســـال حملات تعترف بهـــا الحكومة ، واقتصر الامر على شبه لصوصية بحرية تتغاضى عنها الحكومة ولو انهـــا لا تشجعها · وفي القرن السادس عشر نظمت رحلات بريطانية الى ساحل غانة وبالاخص غمبيا وساحل الذهب ·

وبدأ الهولنديون رحلاتهم في أواخر القرن السادس عشر ، أي انهم جاءوا متأخرين ، والسبب في ذلك الحروب الدينية التي اشتركوا فيها في أوروبا ، غير انهم احتلوا بعض الجزر واستقروا في جزء من ساحل الذهب ، وكانوا يطمعون في التوغل فيه لولا أن الحالة السياسية في أوروبا كانت لا تمكنهم من المغامرة بقوات كبيرة في الخارج ·

ونشط الدانمركيون في القرن الســـابع عشر ، واهتموا بساحل الذهب أيضا ، حيث بنوا قلعة كبيرة هناك ·

أما عن البروسيين ، فقد تكونت لهم شركة في أواخر القرن السابع عشر ، وأقامت محلتين في ساحل الذهب أيضا ، ولكن

بعد ٤٠ سنة باعتهما الى الهولنديين ولم تعد ألمانيا الى افريقية الا فى سنة ١٨٨٠ .

ويمكننا تلخيص ما كانت تمتلكه الدول الاوروبية فى افريقية سنة ١٨١٥ ـ وقت مؤتمر فيينا ـ فيما يأتى :

١ ـ الاسبانيون كان لهم مدينتا سبتة ومليلة فى شمال المغرب ، وجزر كنارى وجزيرة فرناندوبو فى خليج غانة .

٢ ـ البرتغاليون كان لهم غانة البرتغالية ، وأنجولا ، وموزمبيق ، وجزر ماديرا والرأس الاخضر ، وازورس ، وسانت توماس ، وبرنسيب ، وهما مدينتان فى ساحل غانة ومشهورتان بالكاكاو .

٣ ـ الهولنديون لم يكن لهم الا موطنا صغيرا على ساحل الذهب .

٤ ـ الفرنسيون كان لهم السنغال ، وريونيان (على المحيط الهندى) وبعض المحلات فى جزيرة مدغشقر .

٥ ـ الانجليز كانت لهم سيطرة قوية على ساحل الذهب وغمبيا ، وبعض أجزاء سيراليون ، ثم فى الجنوب منطقة الرأس ، وبعض جزر المحيط الهندى مثل سيشل وموريس وجزيرة سانت هيلانه بالمحيط الاطلسى .

وهكذا فى سنة ١٨١٥ كان للاوروبيين الحق فى امتلاك أقل من خمسمائة ألف ميل مربع ، أو ٢٣/١ من مساحة القارة كلها ، وربما كان ٢٣/١ من هذا الـ ٢٣/١ هو فقط المحتل فعلا أو الذى تقوم فيه ادارة ما .

ولقد كان نشاط التجارة الافريقية فى الرق دافعا كبيرا من دوافع الاستعمار الاوروبى لافريقية ، وربط الاوروبيون بين افريقية

وبين أمريكا فى هذا الموضوع • اذ وجدوا أن السكان الاصليين فى أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ، وفى جزائر الهند الغربية لا يحسنون استغلال الارض ، فمنهم قبــــائل من الهنود الحمر متوحشة جدا لا يسهل اخضاعها واستئناسها كالدواب وغيرها ، فلم يكن أمامها غير الانقراض ، وقبائل أخرى ضعيفة من حيث قوة البدن والاحتمال • وعلى ذلك استقر الرأى فى المستعمرات الامريكية على ضرورة ملء هذا الفراغ بعبيد من افريقية • وابتدأ نقل العبيد من الســـواحل الغربية الافريقية الى الامريكتين وجزائر الهـــند الغربية • وقد نقلوا بأعداد كبيرة • ونظمت تجـــارتهم على أسس وقواعد وكانت على عدة مراحل ، كان أولها تأسيس النقط والمحطات على الســـاحل الافريقى الغربى • وأعدت هذه المحطات لاقتناص العبيد من الداخل عن طريق افريقيين آخرين ، أو عن طريق عرب يصطادون لهم • ثم هناك متعهدون لنقـــل العبيد فى السفن الى المواطن الامريكية • وفى أمريكا يحدث الشراء لمن يريد من أصحاب الاراضى المستعمرين • ولقد ساهمت انجلترا مساهمة فعـالة فى هذه العملية وبخاصة فى النقل • اذ بزت انجلترا – لانهـا تملك أسطولا تجاريا كبيرا – الدول الاخرى فى نقل العبيد من افريقية الى أمريكا • واختصت بعض الموانى الانجليزية مثل ليفربول بهذه الحركة • ومما يعطينا فكرة عن ضخامة هذه العملية أنه نقل الى جزائر الهند الغربية فقط فى القرن الثامن عشر ما يزيد على مليونين من السود الافريقيين • وأدى اقتناص العبيد الافريقيين ونقلهم الى العالم الجديد الى القسوة البالغة مما كانت نتيجته موت عدد كبير منهم • وكانت عملية اقتناصهم فى افريقية شنيعة للغاية ، وأشنع منها الرحلة فى المحيط بين افريقية وأمريكا • لان المركب كانت تحاول نقـــل أكبر عدد ممكن ، فكانوا يرصونهم كالسردين فى العلب • ويقضى العبيد الاسابيع والشـــهور فى هذه الاوضاع • وقيل ان الرائحة فى عنبر السفينة كانت كافية للموت • واذا هاج

المحيط وحدث ما يهدد فيرمي عدد منهم أجياء فيه . فكانت الرحلة تقشعر لهـــا الابدان حقا . وعنـــدما يصلون الى أمريكا كانوا يستخدمون في الزراعة وخاصة زراعة القصب والدخان وغيرهما .
ومن هنا نشأت العناصر الســـوداء الموجودة في الامريكتين وجزر الهند الغربية . والمشكلة التي ترتبت على نقـــل السود في العالم الجديد كانت كبيرة . في أمريكا الجنوبية كان الاتجاه الى الامتزاج مع هؤلاء السود الى حد ما . أما في الشمالية فالحال مختلف كل الاختلاف ، فلم يحدث مثــــل هذا الامتزاج مما أدى الى التفرقة العنصرية ، والى تباين الحقوق والواجبات .

ومن العجيب أن المفكر الفرنسي المعروف « منتسكيو » أراد في كتابه « روح القوانين » أن يعتذر عن خطيئة أبناء أوروبا ، الذين عمـــلوا على ابادة الهنـــود الحمر في أمريكا ليحـــلوا محلهم في أرض تلك القارة ، فأورد عذرا هو أقبح من الذنب ، وكأنه قد أراد أن يبرر استعباد الاوروبيين للافريقيين ، حين نقلوا بضعة ملايين منهم من القـــارة الافريقية ليستخدموهم عبيدا في تعمير أراضي أمريكا وفيافيها الواسعة فيقول :

« اذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا ، فاني أقول : ان شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الاصليين ، لم تر بدا من أن تستعبد شعوب افريقية لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الاقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ماهي الا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطسا شنيعا ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثي لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحا — وعلى الاخص روحا طيبة — في داخل جسم حالك السواد ... »

كانت محاربة تجارة الرقيق من العوامل التي برر بهـــا

الاستعمار فى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر • وحقا أبطلت تجارة الرقيق فى المناطق التى رسخت فيهـــا أقدام الحكومات الاوروبية ، ولكن هذا لم يؤد طبعا الى التحرير الحقيقى للافريقيين ، فقد ترتبت على الاستعمار ألوان أخرى من الاستغلال فى مظهرها مخالفة للرق وفى مخبرها هى نوع من العبودية •

وبين سنتى ١٨١٥ و ١٨٨٠ بدأ التوغل الاوروبى الحقيقى فى افريقية ولو أنه كان غير واضح المعالم ، وعلى فترات متقطعة ، وفى أثناء هذه الفترة كانت الممتلكات الحقيقية كما يأتى :

١ ـ بدأت فرنسا فى ســنة ١٨٣٠ غزو الجزائر الذى تم قبل سنة ١٨٤١ • وفى ابريل سنة ١٨٥٤ حل الجنرال فيد هرب محل الكابتن بروتيه كحاكم عام على الســـنغال ، وتحت ادارته النشيطة زادت الرقعة التى تحتلها فرنسا زيادة ملحوظة • وفى سنة ١٨٦٨ تركزت الحماية الفرنسية على بورتونوفو على ساحل داهومى ، ولو أنه لم تتخذ التدابير لتوسيعها • وفى سنة ١٨٤٢ وضع أساس امبراطورية الكونغو الفرنسيةعندما حصل الفرنسيون على مركز فى جابون • وتبع ذلك ـ فى حوالى سنة ١٨٦٠ ـ اتساع الممتلكات الفرنسية فى الداخل • وأخيرا اشترت فرنسا فى سنة ١٨٦٢ أوبك على الساحل الصومالى من سلطان تاجورا ، ولو أنه لم تعمل محاولات فى ذلك الوقت لتثبيت مركز هذا الاحتلال •

٢ ـ ولقد اتسع نفوذ بريطانيا قليلا فى سيراليون وساحل الذهب • وفى سنة ١٨٦١ حصلت على لاجوس • أما امتلاك خليج وولفش ولو أنه كان بعـد بريطانيا فى ســنة ١٨٧٨ ، الا أنه كان يتبع بالفعل فترة الاستعمار الاقتصادى بعد سنة ١٨٨٠ • وأهم الممتلـــكات البريطانية ما بين ١٨١٥ ، ١٨٨٠ كانت فى جنوب افريقية ، حيث أصبح الحد الشمالى لها فى هذه المنطقة مكونا من نهر الاورنج ودولة الاورنج الحرة والترنســـفال وشرق افريقية

البرتغالى • وكانت الرقعة التى تمتلكها بريطانيا فى جنوب افريقية فى سنة ١٨٨٠ حوالى ٢٥٠ ألف ميل مربع •

ففى الخمسين سنة ما بين ١٨٣٠ ، ١٨٨٠ كان أهم ما امتلكه الاوروبيون هو الجزائر واحتلال البريطانيين لمائة وثلاثين ألف ميل مربع فى جنوب افريقية • وبواسطة المغـــامرة الجزائرية أصبح لفرنسا الحق فى مساحة تقدر بأزيد من مليون ميل مربع ، ولكن فى سنة ١٨٨٠ لم يكن عشرة فى المائة من مساحة القارة خاضعا خضوعا فعليا للاوروبيين • وفى العشرين ســـنة التى تلت ذلك استولى الاوروبيون على الجزء الباقى من القـــارة جميعه ـ ماعدا مراكش وطرابلس ـ وقسموه فيمـــا بينهم • وقد تم معظم هذه العملية الى حد كبير فى السنوات العشر التى تلت ١٨٨٠ •

وتقريبا الى سنة ١٨٨٠ ، لم يكن هناك دافع واحد قوى يحرك السياسة الاستعمارية الاوروبية • فقبـــل سنة ١٨٠٠ مثلا كانت أغراض الاستعمار بعضها دينى وبعضها اقتصادى وبعضها عاطفى ، كما أن الاسرات المالكة كانت لها أطماع شخصية لمجرد التوسع • وحتى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تكن قد تحددت الدوافع التجارية أو الصناعية أو المـــالية ، التى كانت أهم دوافع الاستعمار فيمـــا بعد • وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأت العوامل الاقتصادية تظهر قليلا ، ولكنها لم تكن حتى تلك اللحظة المحرك الاساسى لسياسة الدول • فلم يكن دزرائيلى مثلا يفكر فى ضم أراضى جديدة لاغراض تجارية أو اقتصادية ، بل كان المقـــام الاول لا يزال للنواحى الاستراتيجية وحب الفخفخة أو الظهور • أما سياسة الاستغلال الاقتصادى فى Economic Imperialism فانها ظهرت بوضوح فى العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر • ففى الدول الصناعية الكبرى انتقلت مقاليد الامور الى طبقات التجار وأصحاب المصانع والرأسماليين • وتبدلت المثل العليا فى

التوسع الاستعماري الى أغراض تجارية وصناعية ومالية . وكان مؤسس هذه السياسة الاستعمارية في بريطانيا هو جوزيف تشمبرلين . وقد ذكر بصراحة أن الغرض من الاستعمار هو ايجاد أسواق وعملاء للصناعات البريطانية . وكذلك في فرنسا نادى رجال السياسة بضرورة الحصول على مستعمرات لنفس هذه الاغراض . فقد ألقى « جول فرى » أستاذ المنطق الاستعماري في فرنسا تصريحا في البرلمان الفرنسي عام ١٨٩٥ دفاعا عن السياسة الاستعمارية لحكومة فرنسا ، التي كان رئيسها وقتئذ قال فيه : « ان شعوب أوروبا يطمحون الى الاستيلاء على مستعمرات لاغراض ثلاثة هي :

١ ـ الطمع في الحصول على خامات المستعمرات .

٢ ـ والاستحواذ على أسواقها ليبيعوا فيها كل ما تنتجه بلادهم من مصنوعات .

٣ ـ واتخاذها ميادين تستثمر فيها رءوس الاموال الفائضة .

وفي خلال العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر احتلت بلجيكا الكونغو . واحتلت انجلترا مصر في سنة ١٨٨٢ ، وأعلنت حمايتها على الصومال في سنة ١٨٨٤ ، وضمت بتشوانالاند في جنوب افريقية ، ونيجيريا ، وافريقية الشرقية البريطانية ، وتوسعت في غينيا وسيراليون وساحل الذهب ، وأعلنت حمايتها على أوغندة في سنة ١٨٩٤ ، استعمرت السودان باسم مصر بعد ذلك بسنوات قلائل . أما فرنسا فقد احتلت تونس في سنة ١٨٨١ ، وتوسعت في السنغال ، واحتلت منطقة الكنغو الفرنسية والصومال الفرنسي وساحل العاج ومدغشقر في هذه الآونة أيضا . وبالنسبة لالمانيا فانها ساهمت في التوسع الاوروبي في افريقية من سنة ١٨٨٠ باستيلائها على جنوب غرب افريقية والكمرون وتوجولاند وافريقية الشرقية الالمانية . وتوسعت البرتغال في غانة البرتغالية

وفى أنجولا وافريقية الشرقية البرتغالية. واحتلت ايطاليا الصومال الايطالى واريتريا .

ثم احتلت ايطاليا ليبيا فى سنة ١٩١٢ ، كما أن بلاد المغرب سقطت فريسة للاستعمار فى نفس السنة ، فاحتل الاسبان جزءا من شمالها ، واستولى الفرنسيون على منطقة مراكش ، وخضعت طنجة لنظام دولى . وبعد الحرب العـــالمية الاولى وانهزام ألمانيا اقتسمت الدول الاوروبية مستعمراتهـــا فى افريقية ، فحصلت بريطانيا على مستعمرة افريقية الشرقية الالمانية التى هى تنجانيقا، وعلى جزء من مســـتعمرة توجولاند أضيف الى مستعمرة ساحل الذهب ، وعلى جزء من مستعمرة الكمرون ضم الى نيجيريا . أما فرنسا فاستولت على الجزء الباقى من توجولاند وضمته الى داهومى وعلى الجزء الاكبر من الكمرون وضمته الى افريقية الاســـتوائية الفرنسية . كما أن بلجيكا والبرتغال حصلت كل منهما على جزء من مستعمرة افريقية الشرقية الالمانية . كذلك فاز اتحـــاد جنوب افريقية بمستعمرة جنوب غرب افريقية الالمانية .

الفصل الثاني
اخلاء السودان

نظمت مصر أمور السودان في أوائل القرن التاسع عشر في أيام محمد علي . وفي أيام اسماعيل أرسلت الحملات التي استولت على شاطيء البحر الاحمر حتى رأس جردفوي ، واستولت على امارة هرر، وأرادت تمهيد السبيل للكشف العلمي عن الاجزاء التي كانت لاتزال مجهولة في أواسط افريقية وبخاصة منابع النيل . واستعانت مصر في ذلك بالكاشفين والضباط الاوروبيين وبخاصة الانجليز منهم . ولقد أخطأ اسماعيل اذ توهم أنه قد يكسب عطف انجلترا ومعونتها في تنفيذ سياسته الافريقية بالاستعانة بموظفيها في حكم السودان وبسط حدوده جنوبا ؛ وذلك لان انجلترا نفسها كانت مهتمة منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر بتمهيد سبيل الاستعمار في افريقية بواسطة المبشرين والكاشفين . فعمل هؤلاء الانجليز الذين استعان بهم اسماعيل لحساب السياسة البريطانية التي كانت تطمع منذ ذلك الوقت في استعمار أعالي النيل . في سنة ١٨٦٩ عهد الى السير صامويل بيكر القيام بمهمة في أواسط افريقية لحساب مصر تهدف الى اخضاع البلاد الواقعة في جنوب غوندوكورو لحكم مصر ، والغاء تجارة الرقيق ، وفتح بحيرات خط الاستواء الكبرى للملاحة . وعين صامويل بيكر حكمدارا لمديرية خط الاستواء ، فأساء معاملة الاهالي وشن عليهم هجمات عدة استولى فيها على عدد كثير من ماشيتهم . وكان لذلك أثر كبير في تسوىء سمعة مصر بين سكان تلك المناطق . ولاشك أن ذلك كان في صالح السياسة البريطانية .

وبعد استقالةصامويل بيكر في سنة١٨٧٣ أقنعت انجلترا اسماعيل بتعيين جوردون بدلا منه، فعينهفى سنة ١٨٧٤ حاكما علىمديرية خط الاستواء ، ولكنه كان مستقلا في أعماله عن حكمدارية عموم السودان ، بدلا من أن يكون خاضعا لها مثل سلفه صامويل بيكر . وكانت مهمة جوردون الرسمية توطيد سلطة مصر ومدها الى البحيرات . ولكن كان موقف انجلترا الحاسم من التوسعالمصرى من ناحية ممبسة وساحل افريقية الشرقي ومن ناحية أوغندة ومنابع النيل من أكبر العوامل التى أربكت جوردون في أداء مهمته ، فمنع مصر من توطيد قدمها في أوغندة بعد أن احتلت عاصمتها . وقدفعل ذلك لتفادى اغضاب انجلترا . وبعد انتهاء مدة خدمة جوردون في سنة ١٨٧٦ استدعاه اسماعيل لخدمة الحكومة المصرية مرة ثانية ، وعينه فى فبراير سنة ١٨٧٧ حاكما عاما للسودان ، فأخذ يعمل لصالح دولته انجلترا، وأرجع الحدود المصرية الى منطقة خلفية بعيدة عن بحيرة ألبرت نيانزا ، واتبع سياسة قاسية أثارت الأهالى ضد المصريين . وأخيرا استقال جوردون في سنة ١٨٧٩ من خدمة الحكومة المصرية بعد أن تحرجت الامور في السودان ، وأصبح على وشك أن يهم بالثورة. ويبين لنا هذا بصورةواضحة عمقالسياسة البريطانية وتمهيدها السبيل لاحتلال السودان جميعه بما فيه أعالى النيل .

بعد استقالة جوردون بسنتين قامت ثورتان : أما الاولى ، وهى المعروفة باسم الحركة العرابية ، فترمى الى المطالبة بالحكم النيابى وحفظ حقوق الوطنيين المصريين والحد من تدخل الاجانب ، وأما الثانية فقد قامبها المهدى في السودان، وتغلبعليها الصفة الدينية. ودخل مصر جيش انجليزى قضى على ثورة عرابى واحتل البلاد . ولكن المهدى كان أبعد منالا لصعوبة المواصلات ، وأكثر جلادا في تلك البلاد النائية. فأباد قوة أرسلت لاخضاعه بقيادة هكس، وألحق بها قوة أخرىزحفت اليه فى سواكنبقيادة بيكر باشا. وهنا أشارت انجلترا ـ لغرض فى نفسها ـ على الحكومة المصرية باخلاء السودان ،

فأبى شريف رئيس الوزراء في ذلك الوقت أن يذعن لهـذا الرأى ، ووقف موقفه المشرف المشهور مفضلا ترك الحكم على ترك السودان، وقد كانت المحاورة بينه وبين الخديوى شـديدة ، فهو لم يكن يريد التخلى عن السودان ، أما الخديو فقد رجح فكرة الجلاء بناء على رغبة الانجليز ، فلما رأى شريف تصميم الخديو على اخلاء السودان ، وأن انجلترا عرقلت كل فكرة تتعارض مع سياستها الخـاصة بالاخلاء ، اجتمع هو والوزراء وقرروا عدم الموافقة على ما عرضه بارنج من اخلاء السودان طبقـا لأوامر انجلترا ٠ وفى الوقت نفسـه وقعوا عريضة الاستقالة التى قدمت للخديو فى ٧ من ينـاير سنة ١٨٨٤ ونصـها « بعد الديباجة ـ قد اقترحت علينا دولة ملكة انجلترا المعظمة أن نخلى السودان ، وليس لنـا حق فى فعل ذلك لأن هـذه الولاية من ممتلكات الدولة العلية التى فوضت وقايتها الى عهدتنا ٠ وقد طلبت دولة المملكة أيضـا أن نقتدى بنصائحها بدون مذاكرة فيها ، ولايخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ١٨ من شهر أغسطس سنة١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار ٠ فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية (١) » ٠

قبل الخديو توا استقالة وزارة شريف ٠ واستدعى « رياض » وعرض عليه تأليف الوزارة على أساس اخلاء السـودان ، فاعتذر وكان مما قاله له « اننى أود لو كنت ناظرا فى نظارة شريف باشا حتى يكون لى شىء من فخر موقفه المشرف(٢) » ٠

فعرضت الوزارة على نوبار، فقبلها وألف وزارته فى ١٠ من يناير سنة ١٨٨٤ على أساس فكرة الجلاء عن السودان ٠ ولم يبق بعد ذلك

---

(١) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ص ٤٢١

(٢) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ط ١٩٣٤ جـ ١ ص ٢٦٦

الا التفكير في طريقة الجلاء . ولم يكن هناك بد — في نظر انجلترا — من الاستعانة بخبير الثورات جوردون ، وقصة اختيار جوردون لتنفيذ فكرة الانسحاب من السودان وردت بأشكال مختلطة . وأثير حولها كلام كثير ، وبخاصة عند نهاية جوردون وقتله وهياج الرأى العام فى انجلترا ضد المسئول عن هذا . والكتاب الذى استطاع تلخيص كل المعلومات المتعلقة بجوردون ونهايته هوكتاب « جوردون والسودان » لمؤلفه الاستاذ الن Allen (١) .

والصورة التى ترسم عادة عن جوردون أنه رجل يسبح فى أوهام التصوف ، ويحلم بالآخرة والدين ، صورة صحيحة فى شكلها العام ، ولكن الرجل فى الواقع كان كثير الدهاء والمكر ، وكانت له مطامع شخصية . فقصة اختياره لكى يتولى تصفية حساب مصر فى السودان لم تكن من تأثيرالرأى العام الانجليزى على الحكومة فحسب، بل لعب جوردون بمهارة دور الايحاء بأنه هو الرجل الذى تريده الناس ، وذلك على الوجه الآتى: فى الوقت الذى اشتدت فيه الحوادث فى السودان اختفى جوردون عن انجلترا ، اذ قام برحلة الى الجزر التى فى شرق افريقية ، ثم انتقل منها الى القدس ، وأخذ يشغل نفسه فيها برؤية المعالم الدينية ، فيريد مثلا أن يعرف الموضع الذى صلب فيه المسيح بالضبط ، وأين دفن وغير ذلك ، ولا يتكلم فى أى موضوع آخر . ولكن كان جوردون أثناء اقامته بالقدس على اتصال بالملك ليوبولد ملك بلجيكا ، وهذا كانت له مشروعات فى الكونغو ، وكان يريد استخدام ستانلى وجوردون فى تنظيم الكشف فى أعالى الكنغو ، وتنظيم الحكم والادارة والاستغلال هناك على النمط الذى اشتهربه جوردون فى أعالى النيل، كما كان ليوبولد يريد الاستفادة من سمعة جوردون فى محاربة تجارة الرقيق . وجوردون من ناحيته

1. Allen, Bernard, M. : Gordon and the Sudan (London, 1931).

أيضا سار فى المشروع ليظهر أمام الحكومة الانجليزية أن غيرها فى فى حاجة اليه ٠

وفى هذه الظروف عاد جوردون الى انجلترا ٠ فأشار أفراد مختلفون على الحكومة الانجليزية بارساله الى السودان ، ومن بين هؤلاء صامويل بيكر ٠ وبناء على ذلك دعى جوردون الى اجتماع حضره بعض الوزراء ، وسئل فى هذا الاجتماع عما اذا كان على استعداد للقيام بمهمة اخلاء السودان فوافق على ذلك ٠ وسألت الحكومة الانجليزية بارنج هل مصر موافقة على جوردون أم لا ؟ فكان رأى حكومة مصر فى أول الأمر أن حركة المهدية اسلامية فكيف يرسل حاكم غير مسلم يمثلها ، ومن الجائز أن هذا يقوى الحركة المهدية ، ويجعل السودانيين يعتقدون أن المصريين والاتراك كفار كما يقولون٠ ولكن أمكن التغلب على هذا الاعتراض ، ووافقت مصر على ارسال جوردون الى السودان ٠

وفى لندن أعطيت الى جوردون تعليمات مكتوبة، تقضى بأن حكومة جلالة الملكة ترغب فى أن يذهب حالا الى مصر لكتابة تقرير لها عن الحالة العسكرية فى السودان، وعن الوسائل التى يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية التى تحتل مراكزها فى تلك البلاد وأيضا لسلامة الرعايا الاوروبيين الموجودين فى الخرطوم ٠ وأن عليه أيضا أن يبحث ويقدم تقريرا عن الطريقة الممكنة للاخلاء من داخلية البلاد، وكذلك عن الوسائل التى يمكن اتباعها لسلامة موانى البحر الاحمر وادارتها ادارة حسنة ٠ وفى هذا الصدد طلب منه أن يهتم اهتماما خاصا بأفضل الوسائل لمنع التحريض الذى يخشى منه من جانب تجار الرقيق، وبسحب السلطة المصرية من داخل البلاد ٠ كما تقضى هذه الأوامر بأن يكون جوردون خاضعا لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام فى مصر، الذى عن طريقة بها ترسل تقارير جوردون لحكومة جلالة الملكة مختومة بالشمع الاحمر، وبأن يقوم بأية مأموريات أخرى تطلبها الحكومة المصرية بحيث يكون طلبها عن طريق السير

فلن بارنج • أما مسألة سفره الى سواكن مباشرة أو الى الخرطوم عن طريق النيل فقد تركت ليبحثها هو مع بارنج •

وترك جوردون انجلترا فى ١٨ من يناير ١٨٨٤ ، ووصل الى القاهرة فى ٢٥ من الشهر نفسه، وقلده الخديو سلطات الحاكم العام، وفى اليوم التالى سافر الى السودان عن طريق النيل، فوصل الخرطوم فى صباح يوم ١٨ من فبراير ١٨٨٤ • وعلى الفور أمر جوردون بهدم الحصون التى عززها عبد القادر باشا حلمى حول الخرطوم • كما أمر بحرق السجلات الحكومية ، وأهم من ذلك أنه أباح تجارة الرقيق كما كانت جارية بالسودان قبل ذلك •

وعنى جوردون كثيرا بموضـــوع ترتيب نوع من الحـــكم فى السودان يصطحب مع التخلى عنه • وكانت فـكرته ابعاد المصريين نهائيا عن السودان ، وأيده فى ذلك بارنج • وكانت انجلترا تأمل أن يستطيع جوردون تحقيق هذا بدون عناء أو تضحية فى الاموال والجنود • وهون جوردون كثيرا من شأن الحركة المهدية ، واستمر يؤكد أنه سوف لا يطالب بمال أو جنود ، ويبـــدو أنه كان فى أول الأمر يتوهم أن الحركة المهـدية كانت نتيجة استياء وغضـب ، وأنه بازالة الأسباب يضعف أمر المهدى • ولم يتصور أن الحركة المهـدية أصبحت دينية تملكت قلوب الناس فى الســودان ، وتطلعت لأمانى واسعة لا تقتصر على استخلاص السودان ، بل تعدت الى غزو مصر وتركيا بل ومحاربة أوروبا فى النهاية • والمهم أن جوردون كان يرى فصل مناطق بحر الغزال والمنطقة الاستوائية والحاقها بممتلكات ليوبولد فى الكنغو • وكان هناك تفاهم بينـــه وبين ليوبولد على أنه هو الذى يدير هذه الاقاليم ، التى تلحق بالكنغو بعد اجلاء المصريين عن الشـــمال • وعرض هذه الفـكرة على اعتبار انها أفضـــل وسيلة لمحاربة تجارة الرقيق بابعاد جنوب السودان عن شماله • وبالنسبة لبعض الاقاليم كدارفور وكردفان كانت نظريته أن تكون تحت حكم

السلاطين والأمراء من بقايا البيوتات القديمة فى تلك المناطق ، وأما الأجزاء الأخرى فى شمال السودان كالخرطوم وبربر وأبى حمد ، فقال: انه يصعب فيها اقامة حكم وطنى لتفرق البيوت القديمة، ولانها أصبحت حواضر تجارية بها تجار أغنياء وصناع وهكذا ، ولا تتصل بالحالة القديمة السابقة فى السودان ، وفكر فى وقت ما أن تستمر هذه الاقاليم تحت حكم مصر ، ثم عدل عن هذا وفاوض حكومته بواسطة بارنج فى القاهرة ، فى استدعاء زعيم سودانى كبير هو الزبير باشا رحمت من القاهرة وتنصيبه سلطانا على تلك المناطق ، وقال انه الشخص الوحيد الذى له من السمعة والصيت والجاه والشخصية ما يجعله أقدر فرد على ايجاد قوة وطنية يلتف حولها الناس ، ويستخدمها فى صرف بعض القبائل عن المهدى. وصمم على هذا الحل ، وأيده بارنج فى ذلك ، وكتب بتاريخ ٢٨من فبراير سنة ١٨٨٤ الى لندن للموافقة على عودة الزبير ، على أن يمنح نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذى يخول حامله لقب سير وعضو فى الامبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال ليستعين به فى تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر ، كما يمنح اعانة سنوية قدرها خمسون ألفا من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الاعانة لمدة خمس سنوات ، على أن يتوقف صرف هذه الاعانة السنوية على مدى سلوكه فى ادارته الجديدة . ولكن الحكومة الانجليزية لم توافق خوفا من الرأى العام فى انجلترا، الذى كان يقرن الزبير بتجارة العبيد . ولا أدرى ان كانت فكرة استخدام الزبير باشا فى حد ذاتها وجيهة أم لا ؟ لا شك أنه كان لبقا ويعرف السودان معرفة طيبة ، ولكن كيف يقاوم هذا الرجل دعوة دينية كدعوة المهدى ؟ حقا كان باستطاعة الزبير أن يجمع حوله شيوخا وأمراء وبعض الاتباع ، انما كان لا يستطيع الصمود أمام الآلاف المؤلفة من أتباع المهدى ، الذين كانوا يستهينون بالموت فى سبيله ،

وعلى كل فمسألة استدعاء الزبير تبين أن جوردون لم يكن متنبها كل
التنبه لحقيقة الثورة المهدية •

وقصارى القول لم تكن هناك فائدة من كل هذه المشروعات
وأمر المهدى قائم ، فجوردون افترض أنه أنهى مأموريته ، وأن
الحاميات انسحبت بسلام • ولكن ماذا فعل مع المهدى ؟ تضطرب
تقاريره فى ذلك ، فأحيانا يصغر من شأنه ، ويدعى أن أمره غير
منتشر الا فى كردفان فقط• وأحيانا يدعى أنه ستقوم ضده عداوات
من المشايخ الآخرين ، وأحيانا يعتقد أن الطعن فى حكومة مصر
والتظاهر باجتذاب الأهالى كاف للتغلب على المهدية بالطرق السليمة
فعندما وصل الى الخرطوم أمر كما ذكرت سابقا بجمع مستندات
الضرائب المتأخرة على الناس وأحرقها، وكذلك جمع الكرابيج وأدوات
العقاب المختلفة وأحرقها علنا أيضا • وألف ما سماه مجالس أعيان
فى بربر والخرطوم • ومما هو جدير بالذكر أن أول قرار لمجلس
بربر والخرطوم هو رجاء الحاكم العام بأن يؤجل سفر الأرط المصرى
الى مصر • وقالوا انها الشيء الوحيد الباقى للحيلولة دون تفشى
الثورة المهدية ونهبها للمدن •

والحقيقة أن جوردون لم يدرك عمق الثورة المهدية ، وأن المهدى
ليس شيخ طريقة من النوع المألوف فى ذلك الوقت ، فقد أرسل ا
كسوة تشريفة وخطابا يعرض فيه عليه شيئا من الاستقلال بكردفا
مع لقب سلطان ، فرد عليه المهدى بكل ازدراء بأنه أرفع من أن يكو
أميرا أو سلطانا ، وأنه مهدى الله • ولم يقبل كسوة التشريفة لعد
حاجته الى مثلها ؛ لأن ملابسه مما يلبسه الزهاد ، الذين يعرضو
كل الاعراض عن متاع الدنيا، بل ودعا جوردون الى الاسلام واعتنا
دعوته وارتداء الجبة المرقعة ، وهى رداء الدراويش الرسمى • وه
تنبه جوردون لخطورة الموضوع ، فكتب لحكومته عن طريق بار
يقول : انه لا بد من قوة لسحق المهدى ، ولكن الحكومة الانجليز

تركت الأمور تحل نفسها شيئا فشيئا ، عدا اهتمامها لحد ما بمواني
البحر الاحمر لاهتمام انجلترا بهذا البحر وبالمداخل المؤدية اليه ·
فكان في هذه الموانى سفن حربية وبعض القوات البرية · ولكن هذه
القوات البرية، وقد حاربت عثمان دقنةأحد قواد المهدى فيالسودان
الشرقي ، منعت من التوغل غربا نحو وادى النيل نفسه · وترك
أمر الخرطوم والحاميات المصرية لرحمة الاقدار ، وانتشرت الدعوة
المهدية ، وانقضت القبائل على الحكومة في مختلف جهات السودان
الى أن خرجت عنها معظم الدائرة المحيطة بالخرطوم نفسها ، فوقعت
بربر في حوزة الدراويش، ووصلت قوتهم الى قرب الخرطوم في مركز
الحلفاية ، وانقطعت المواصلات التلغرافية مع مصر ، وأصبحت
المراسلات بالرسل فقط · ومن الرسائل التي وصلت الى مصر
ومنها الى انجلترا ، عرف أن الخرطوم وجوردون في حصار ، فهاج
الرأى العام الانجليزى · وتحت تأثير هذا الهياج تقرر ارسال
تجريدة للتقدم نحو الخرطوم ، وعهد بقيادتها الى القائد ولسلي
Wolseley الذى حارب المصريين في التل الكبير · وقضى ولسلي هو
والقواد العسكريون وقتا طويلا في اختيار طريق النجدة · هل
تسافر عن طريق البحر الاحمر أو عن طريق وادى النيل ؟ وأخيرا
استقر الرأى على أن تتخذ طريق النيل نفسه · ثم مضى وقت آخر
في اعداد أنواع معينة من السفن لتستخدم في النقل ، بدلا من
استخدام السفن النيلية المعروفة · ثم بعد فوات هذه الأوقات الطويلة
تقدمت القوات الانجليزية من وادى حلفا في ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ،
واستطاع أحد القواد وهو السير شارلس ويلسن Charles Wilson
الوصول الى حلفاية في ٢٨ من يناير سنة ١٨٨٥ ، وذلك بعد أن
اشتبكت قوات الحملة مع الدراويش في معارك دامية، ذهب ضحيتها
السير هربرت ستيوارت · ولكن ويلسن سرعان ما عرف وهو
بالحلفاية أن الخرطوم سقطت في أيدى الثوار في صباح ٢٦ من يناير
سنة ١٨٨٥ ، أى قبل وصوله بيومين فقط ، وأن جوردون قد قتله

الدراويش مع عشرات الآلاف من أهالى الخرطوم، فصدرت الأوامر الى الحملة بالعودة ، كما أخليت دنقلة ٠

أما عن حصار المهدى للخرطوم فقد تردد المهدى طويلا فى التقدم من كردفان لحصارها لصعوبات الزحف مسافة طويلة نحوها ، وللاشاعات المتواترة عن تقدم نجدة من الشمال من الجيوش النظامية، ولكن فى النهاية استقر رأيه على السير ، وابتدأ الحصار ، وكان على الاقل يعتمد على أن المدينة ستسلم تحت تأثير قلة الغذاء ، ولكنها سلمت أيضا لان المهديين اقتحموها ٠

ويقال ان السنجق عمر ابراهيم ــ الذى كان من ضباط جوردون ولجأ الى المهدى ــ هو الذى دل قواد المهدى على ثغرة فى خط الدفاع ، الذى أقامه جوردون حول طرف المدينة الجنوبى ، أمكنهم منها دخول الخرطوم ٠ فدخلت قوات المهدى المدينة فجر يوم الاثنين ٢٦ من يناير وهجمت فى اليوم نفسه على سراى الحاكم العام ٠ وكان جوردون ينتظر هناك لأنه لم يحاول الهرب أو الانتحار ٠ وكانت أوامر المهدى تقضى بعدم قتل جوردون واحضاره حيا (١) ، ولكن أتباع المهدى قتلوه ، وقطعوا رأسه ، وانتهى أمره على هذا النحو ٠ وقد أحدث قتله هزة عنيفة فى انجلترا ، حتى أن الملكة لبست عليه ملابس الحداد ، وأن مركز حكومة جلادستون قد ضعف لترددها لدرجة أدت الى هذه المأساة ٠ وأعتقد أن فكرة الانتقام لدى الانجليز قد حملتهم على نبش عظام المهدى وهدم قبته ، عندما استولى كتشنر على أم درمان فيما بعد ٠

ومن العجيب أن الصحافة الانجليزية بعد موت جوردون أصبحت تسمى السودانيين « عصاة » و « متعصبين »، مع أن الحكومة الانجليزية على ملأ من البرلمان فى سنة ١٨٨٤ كانت تصرح بأن

---

1. **Mekki Shigeika : British Policy in the Sudan (1882-1902), London 1952, pp. 300-301.**

السودانيين يقاتلون في سبيل استقلالهم، وأنها عزمت على أن تسترد لهذا الشعب استقلاله ، وأنها سوف لا تتحمل تدخل المصريين في شئونه • وقد كان جلادستون رئيسا للوزارة في ذلك الوقت عندما أشار الى أتباع المهدى « كأناس يناضلون من أجل الحرية ويناضلون بحق من أجلها (١) •

ويقول اتيين فيلبى Etienne Ve by ••• « وعندئذ اقترحت انجلترا لغاية فى نفسها على مصر اخلاء السودان • وكانت تلك الفكرة أجرأ فكرة خطرت ببال انجلترا، اذ أصبح السودان بلا صاحب res Nullius ، وأصبح المكان خاليا ، فتتمنى انجلترا أن تحتله• وأظهرت للخديو بأن السودان حمل ثقيل ايراده ١٢ مليون جنيه ، وتكاليفه ١٦ مليونا ، فالجلاء عمل حكيم فاستسلم الخديو • وللقيام بهذا الجلاء الصعب الخطر استدعى جوردون ، وأمر بألا يخوض غمار موقعة ما • ثم رفضت كل المواد التى طلبها ليحولوا بينه وبين انشاء سلطة محل السلطة المضمحلة ، فلما بلغ الخرطوم قتل فى ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٥ ••• ثم صدر تصريح رسمى فى ١١ من مايو سنة ١٨٨٥ باسم وزارة الاحرار ، القاه الماركيز دى هارتنجتون de Hartington فى مجلس العموم ملخصه : التخلى الكامل والعاجل عن السودان واعادة حدود مصر الى وادى حلفا(٢) » •

واتفقت انجلترا والحبشة على تسهيل خروج الحاميات المصرية، التى كانت مهددة فى السودان الشرقى ، فوصلت هذه الحاميات الى مصوع ، ومنها الى مصر • وبذلك أصبح المهدى وخليفته عبد الله التعايشى من سنة ١٨٨٥ فصاعدا السيدين اللذين لا ينازعهما أحد فى السودان كله ، ما عدا المنطقة الاستوائية ، حيث كان هناك أمين

---

1. Allan, Bernard : Gordon and the Sudan (London, 1931), pp. 204, 230, 338.
2. Velay, Et : Les Rivalités Franco-Anglaises en Egypte, 1876-1904 : 1904, pp. 164 - 165.

باشا محتفظا بمركزه وحاكما باسم مصر حتى اختطفه استانلي في سنة ١٨٨٩ كما سأبين هذا فيما بعد •

ولقد شعر المصريون بفقدهم السودان شعورا مرا، فكان هناك خوف من أن فقدهم السيطرة على أعالى النيل قد يؤدى الى محاولات للتدخل في امداد مصر بالمياه • ولكى نقدر هذا الشعور علينا أن ندرك أن مصر كانت تعتقد لعدة قرون بأنه من الممكن التدخل في مياه النيل وتهديد مصر بمنع وصول المياه اليها •

وتمشى مع هذا الرأى ما كتبه اللورد ملنر Milner في سنة ١٨٩٢ بأن فقد مقياس الخرطوم كان خسارة فادحة ، ويقول ماترجمته « وعدم وجود تقارير يومية عن ارتفاع النيل أثناء الفيضان : كالتقارير التى كانت ترد من الخرطوم قديما ، هو في حد ذاته - كما يخبرك بذلك أى مهندس للرى - سيئة خطيرة لهذا البلد • ولكن هناك قلق زائد • ان أهالى السودان لن تكون لديهم أنفسهم المهارة الهندسية الكافية ليتلاعبوا بالنيل ، ولكن بالرغم من هذا فانه من المزعج أن نفكر في أن امداد المياه المنتظم بواسطة النهر العظيم ، الذى هو بالنسبة لمصر ليس مسألة رخاء ورفاهية ، بل في الواقع مسألة حياة ، سيتعرض دائما للخطر طالما أن مياه أعالى النيل ليست تحت سيطرة مصرية ، من ينبئنا بما يحدث لو أن دولة متحضرة كبرى ، أو أن دولة لديها مهارة فنية قامت في يوم ما بمشروعات هندسية في أعالى النيل ، وحولت المياه اللازمة للرى الصناعى في مصر من أجل رى تلك المنطقة ريا صناعيا • قد يبدو هذا الاجراء بعيدا • وأعترف أن هذا بعيد الاحتمال جدا • ولكن قبل أن نطرح هذا جانبا دعنا نبحث ماذا سيكون شعور سكان أى بلد عادى - وليكن بلدنا على سبيل المثال - لو كان هناك حتى مجرد احتمال بعيد بأنه في امكان أية دولة أجنبية أن تغير كمية المطر السنوية • ولن تشعر مصر بأية راحة ابدا ، ولا يمكن أن نعتبر أن المسألة المصرية قد

سويت الى حد ما ، حتى يسود النظام وادى النيل الى مسافة أبعد من الخرطوم على الأقل (١) ٠

وقال سكوت منكريف بعد ذلك بسنين قليلة « مالا يستطيع أن يعمله المهدى سوف يفعله شعب متمدن ٠٠ ويمكنني أن أوضح حقيقة جلية ، هى أن من يستولى على أعالى النيل يملك زمام مصر ٠٠ فدولة متمدينة فى أعالى النيل يمكنها أن تبنى قناطر عبر مخرج فكتوريا نيانزا ، وتسيطر عليها كما تسيطر منشستر على ثرلمير Thirlmere ، وسوف تكون هذه العملية سهلة ٠ ولو تمت مرة فان امداد النيل سوف يكون فى أيدى هذه الدولة المتمدينة ، واذا نشبت حرب بينها وبين مصر المسكينة ، فانها تستطيع أن تغرقها بالفيضان ، أو تقطع عنها المياه عندما تشاء » ٠

وعلى ذلك فالخطر موجود ومعروف ٠ ولكن لو كان هناك شىء واحد لاتريد السلطات البريطانية فى مصر أن تبحثه فى ١٨٨٨/١٨٨٩ ، فان هذا الشىء هو استرداد السودان ٠

ولقد كتب بارنج فى ذلك يقول « لايوجد الآن ولم توجد منذ تحطيم جيش الجنرال هكس فكرة جدية لبحث سياسة اعادة فتح السودان بقوة السلاح » ٠ ولقد كانت هذه الفكرة بالنسبة له مسألة ميزانية وسياسة ٠ وفى ذلك الوقت لم يكن هناك تأكيد بأن انجلترا سوف تمكث فى مصر ، وحتى لو بقيت فان المال الموجود كانت تحتاجه انجلترا فى مشروعات الاصلاح ٠ وطالما كان المهديون يسيطرون على السودان ، لم يكن هناك خطر كبير فى التدخل فى مياه النيل ٠ بل كانت توجه المراقبة والحذر للدول الاوروبية ٠ وبما أن مصر قد تخلت عن السودان فلم يكن من المستبعد أن تحاول أية قوة أخرى أن تغزوه ٠ لقد تنبأ السير صامويل بيكر فى سنة

1. Alfred Milner : England in Egypt, London 1926, p. 161.

١٨٨٤ بأن السـودان سوف يصبح فريسـة سهلة لأول مغامر ، وصرح بأنه لو كان فرنسيا لما أهمل هذه الفرصة • واقتنع بهذا الرأى كتاب آخرون أمثال السير فردريك لجارد ، فقال « انه لمن التبجح أن ندعى بأنه من حقنا منع دول أوروبية أخرى من النهوض بالسودان والقضاء على تجارة الرقيق ما دمنا قد تخلينا ــ فى مواجهة أوروبا ــ عن ادارة ثابتة الاركان فى تلك المنطقة (١) » •

وبينما كانت مصر تنتظر المال اللازم لاعادة فتح السـودان ، وبينما كانت انجلترا غير راغبة فى اقراض هذا المال أو القيام بالغزو بنفسها ، كانت كل الجهود موجهة لمنع الدول الأخرى من القيام بالمشروع ، وأصـبحت حماية أعالى النيـل احدى مفاتيح السياسة البريطانية فى افريقية ، وكانت هذه سياسة لهـا آثار بعيدة المدى حتى حلت حلا ناجحا بتسوية فاشودة (٢) •

من الممكن الهجوم على النيل من اتجاهات مختلفة : من البحر الأحمر ــ من ساحل افريقية الشرقى ، ومن الكنغو • وعلينا أن نبحث السياسة البريطانية فى كل من هذه المناطق الثلاث ، وهذا ما سنفعله فى الفصول التالية •

---

1. Sir Frederick Lugard : The Rise of our East African Empire (London, 1893), 11, p. 566.
2. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism 1890-1902. New York 1951, p. 108.

الفصل الثالث

السياسة البريطانية في منطقة غربي البحر الأحمر الاتفاقات البريطانية الايطالية في سنتي ١٨٩١/١٨٩٤

كانت الحبشة فى منتصف القرن التاسع عشر مقسمة الى ولايات كثيرة التطاحن ، كل واحدة يرأسها حاكم ، وفى العادة كان الذى يتغلب من بين حكام المقاطعات يصبح امبراطورا وحدث حوالى سنة ١٨٥٠ أن ارتفع نجم أحد الحكام ، وكان الامبراطور ضعيفا ، فتوصل هذا الحاكم الى العرش سنة ١٨٥٥ ، وأصبح يسمى الامبراطور ثيودورو (يعنى المحبوب من الاله) • وكان يطلق عليه « ملك الملوك King of Kings » • وفى ذلك الوقت لم تكن سياسة الاستغلال الاستعمارى قد ظهرت فى أوروبا ، وكان كل اتصال الافريقيين بالاوروبيين عبارة عن اتصال بأفراد ، أغلبهم من العلماء أو التجار أو المبشرين أو المغامرين • وكثيرا ماكان سلوك هؤلاء يثير الشك فى نفوس الحكام ، ومع أن ثيودورو كان متسامحا ، فقد كانت فيه أيضا القسوة وحدة الطبع اذا أثير • ولكى نفهم تطور علاقاته بالاوروبيين، لابد من الاشارة الى بعض الشخصيات التى كانت موجودة فى الحبشة فى ذلك الوقت ، والتى كان لها أثر فى تطور هذه العلاقات • كان هناك ألمانى يدعى شمبر Herr Schimper وكان عالما نباتيا وغرامه جمع نباتات برية وتصنيفها ،

وهو الذى عمل كوشة الزهور اللازمة لتتويج الامبراطور ثيودورو عند تتويجه • وكان هناك ألمانى آخر اسمه زندر Zander وكان مصورا • بعد ذلك تأتى طائفة تابعة للانجليز فى الظاهر ، لأنهـا أرسلت الى الحبشة من جمعية انجليزية تبشيرية لتحويل اليهـــود فى الحبشة الى مسيحيين• ولكن عندما نستعرض أسماء هذه الطائفة لانجد فيهم اسما انجليزيا، بل كلهم يحملون أسماء ألمانية وهم شتيرن Stern وروزنتال Rosenthal وفلاد Flad وبرانديز Brandeis وستيجر Steiger يضاف الى هؤلاء شخص هولندى الأصل عرف باسم انجليزى هو Hall ، وكان يشتغل فى الجيش البروسى ، ولكن لسبب ما أرسل الى الحبشة • ومن الفرنسيين كان يوجد اثنان مدنيان ، أحدهما كان يشتغل فى بلاده الأصلية فى عمل وتصليح الأسلحة ، ويسمى برجود Bourgaud ، والآخر كان عسكريا سرح من الجيش الفرنسى واسمه باردل Bardel •
ومن الرسميين كان هناك القنصل الفرنسى واسمه لوجان Lejean وانجليزيان أحدهما القنصل الانجليزى واسمه Plowden ، والثانى اسمه Bell •

هذه أمثلة للشخصيات الأوروبية الموجودة فى الحبشة أثنـاء تولى ثيودورو العرش ، وقد اجتهد فى الاستفادة منهم ، فعين برجود مشرفا على صناعة الأسلحة فى الجيش وباردل مستشارا خاصـا له وكان يعلم أولاده • واعتمد كثيرا على بلودن الانجليزى • واستمرت العلاقات لا يشوبها أى شيء مـكدر ، الا أنه بعد سنة ١٨٦٠ بدأت العلاقات تسـوء لسبب واضح ، وهو أن الأوروبيين ، وبخاصة الفرنسيين منهم ، لم يستطيعوا فهم وجهة نظر ملك شرقى فى ملكه، كما أن الامبراطوركان لايفهم الأغراض التى يرمى اليها الأوروبيون• ومن الأمثلة التى تضرب كثيرا لتوضيح ذلك مافعله القنصل الفرنسى

لوجان (١) • هنـاك ناحية أخرى هي ناحية المبشرين وعلاقة الامبراطور بهم • فالتبشير الذى كان قد سمح به الامبراطور هو التبشير بين اليهود ، الذى من أجله أتت الجماعة الألمانية السابقة الذكر • ولكن الامبراطور وجد أن من بين هؤلاء المبشرين من لهم مهمة خاصة ، فبعضهم مهندسو طرق ، وبعضهم الآخر يعملون فى صناعة الاسلحة ، فاستخدمهم فى هـذه الاغراض وأصبح يشتبه بعد ذلك فى كل مبشر • ففى فترة وجود القنصل الفرنسى قبل طرده طلب الى الامبراطور أن يسمح لبعثة تبشير كاثوليكية بالدخول

---

(١) لوجان أول ما وصل الى اديس ابابا اعتقد انه ذاهب الى مكان مستواه منخفض عن فرنسا وان الامبراطور هنـاك يمكن معـاملته كموظف بسـيط في الخارجية الفرنسية ، فأول مرة ذهب فيها لتقديم أوراق اعتمـاده للامبراطور ذهب راكبا حمارا ، وهذه عند الاحباش تعتبر خارجة كل الخروج عن اللائق ، ولكن الامبراطور تغاضي عن ذلك واستقبله استقبالا حسنا ثم قال القنصل انه موفد من امبراطور فرنسا لتحسين العلاقات بين الدولتين ، وكان الرد بالمثل • وفي اليوم التالى مباشرة طلب لوجان مقـابلة الامبراطور ، وذهب اليه ومعـه فواتير بعض المنسوجات الحريرية ، وقال ان في فرنسا مدينة كبيرة تنتج الحرير ، وانه مكلف من قبل الشركات للمتاجرة معه فالم هـذا الامبراطور جدا ، وقال لبعض اخصائه فيما بعد ان لوجان حاضر لمتاجرته . والمهم ان الامبراطور صرف لوجان بهدوء وقال انه سينظر في الموضوع . بعد ذلك كان الامبراطور في مهمة حربية ، ففي الميدان نفســه ذهب لوجان ونصب خيمته وبدل ملبســه ، وطلب مقابلة الامبراطور ، فاعتذر الامبراطور عن عدم مقابلته فما كان من لوجان الا ان خرج من خيمته وصاح « هذه اهانة لامبراطورى وأنا لابس البـدلة الرسـمية ولا يمكن خلعها بدون مقـابلة الامبراطور » وكان الامبراطور حليمـا في المرتين السابقتين ولكن في هذه المرة شتمه وأمر بالقبض عليه وتقييده بالسلاسل وكان الامبراطور مستنيرا فقال : هل كان لوجان يفعل ذلك مع امبراطور النمسا مثلا ؟ بطبيعة الحال لا ، والمهم انه بعد بعد مضي مـــدة افـــرج الامبراطور عنه على ان يرحل من الحبشة وكانت النتيجة ان لوجان بعد وصوله الى مصـوع اوسل الى الامبراطور خطابا كله سب فيه . ولذلك أصيب الامبراطور بصدمة من جراء معاملة الاوربيين •

الى البلاد فرفض الامبراطور ذلك ، وبنى الرفض على أسباب حقيقية، وقال في هذا الصدد : « انى أعرف أساليب الدول الغربية اذا أرادت الاستيلاء على دولة شرقية ، ترسل أولا المبشرين ، ثم القناصل لمساعدة المبشرين، ثم الفرق العسكرية لمساعدة القناصل وحمايتهم. ولست أميرا هنديا من الهندستان ، حتى أكون سخرية بهذه الطريقة ، وأفضل محاربة الفرق العسكرية مباشرة (١) » .

وهذا يرينا أن الامبراطور كان يفهم أساليب التدخل الاوروبى ، ولذلك رفض دخول البعثة الكاثوليكية في الحبشة . وهناك عامل ثالث من عوامل استيائه وازدياد شكوكه في الاوروبيين ، هو أن المبشر الانجليزى شتيرن Mr. Stern ألف كتابا فيه اهانة للامبراطور وأسرته (٢) ، فقبض على شتيرن وصديقه روزنتال ، وبعد ضربهما وضعا في السجن . وهناك مسألة رابعة هي أنه بعد وفاة القنصل البريطاني بلاودن ، وكان قد قتل في معركة يدافع فيها الامبراطور ضد الثوار ، عين قنصل آخر اسمه كمرون Cameron ، وصل الى الحبشة ومعه خطاب من لورد رسل الذى كان وزير خارجية بريطانيا . ويدور الخطاب حول توثيق العلاقة بين الدولتين ولكن الإمبراطور عند قراءته الخطاب ظن أنه مرسل من الملكة فكتوريا ، لا من وزير الخارجية فسر جدا ، وعند عودة كمرون في عطلة الى انجلترا أعطاه الامبراطور خطابا للملكة فكتوريا . ولما وصل كمرون الى بريطانيا أعطى الخطاب للورد رسل Lord Russell ، فحفظ في محفوظات وزارة الخارجية ، ولم تره الملكة . وتشاء الصدف في ذلك الوقت أن يقع الامبراطور في محنة ، اذ ثارت بعض القبائل عليه ، كما أن المصريين كانوا يهددون الجزء الشمالى من الحبشة ، واشتبه الامبراطور في أن بريطانيا

1. Leonard Woolf : Empire & Commerce in Africa ; New York, 1920, p. 145.

(٢) أورد ذكره وذكر والدته بكلام وقح وكان يظن ان الامبراطور لا يعرف الانجليزية ولا يصل اليه هذا الكلام ولكن الفرنسيين بلغوه ذلك .

تتآمر مع تركيا ومصر ضد الحبشة • وفي هذا الظرف عاد كمرون من انجلترا لا يحمل جوابا لرسالة الامبراطور • ولما بلغه تقدم المصريين في شمال الحبشة وأنهم هاجموا بعض القبائل داخل الاراضي الحبشية سلك مسلكا مريبا ، فبدلا من أن يذهب مباشرة الى أديس أبابا اتجه الى كسلا لمحاولة التفاهم مع المصريين على حسن معاملة الاماكن المسيحية في الشمال ، وبعد ذلك عاد الى أديس أبابا ، فاستنتج الامبراطور أن كمرون يدبر مؤامرة ، فأول مقابلة له مع الامبراطور سأله عن رد فكتوريا على الجواب ، وطبعا كان لا يوجد رد ، فغضب الامبراطور وألقى بالقنصل وبكل أوروبي آخر في المدينة في السجن • وهنا حاول الانجليز التفاوض مع الامبراطور وأرسلوا له من عدن مبعوثا شرقي الاصل يعمل معهم واسمه رسام Mr. Hormuzd Rassam وتداركوا أيضا خطأهم مع الامبراطور ، وجعلوا الملكة فكتوريا تكتب خطابا أرسلوه له مع رسام ، ولكن ثائرة الامبراطور لم تهدأ • ولم يمكن التفاهم معه ، فلم يستطع رسام أن يهدىء ثائرته الا في مدة مقابلته ، وبعد مقابلته عادت اليه نوبة كراهيته للاوروبيين ، فأرسله معهم الى السجن في المجدلا Magadala. ◙

كل هذه المقدمات توضح لنا سبب ارسال حملة بريطانية تأديبية الى الحبشة سنة ١٨٦٧ • وكانت الحملة مؤلفة من ١٢ ألف جندي بقيادة نابيير Napier الذي كان قائد الحامية البريطانية في بومباي • ونظرا لان الامبراطور كان قاسيا مع الحكام الوطنيين في الحبشة ، فقد ساعد هؤلاء الحكام الحملة الانجليزية • وأخذ الامبراطور في التراجع حتى حوصر في المجدلا حيث يوجد المسجونون ، وكانت المعركة مذبحة بالنسبة للاحباش ، لانهم كانوا يستعملون بنادق عتيقة ، بينما كان مع الانجليز أحدث الاسلحة • وقتل من الاحباش في مدة قصيرة ألفان من ثلاثة آلاف ، وكانت خسارة الانجليز عشرين جريحا • ثم بدأت مفاوضات الصلح ، وهنا يحدث سوء تفاهم آخر ، فالامبراطور أرسل اثنين من

المسجونين لعرض الصلح فكان جواب نابيير كالآتي « لقد حاربت جلالتك بشجاعة ، ولكن هزمت بوساطة الجيش البريطاني الاقوى من جيشك . ورغبتي هي حقن الدماء . فاذا سلمت جلالتك لملكة بريطانيا ، وأطلقت سراح كل الاوروبيين الاسرى طرفك وأحضرتهم اليوم سالمين الى المعسكر البريطاني ، فاني أضمن لك ولأفراد عائلتك معاملة كريمة (١) »

والمهم في الموضوع الجملة الاخيرة لانها لا تبين حالة الملك بالضبط ، فثيودورو فهم من هذه الجملة أنه سيبقى امبراطورا مع دفع غرامة . أما نية بريطانيا فكانت عزله لانها ارتبطت مع الحكام الوطنيين الذين ساعدوا الحملة على اراحتهم منه . والذى حدث هو ان الامبراطور قبل الشرط وما فهمه منه ، وأرسل أغلب الاسرى ومعهم ألف بقرة وخمسمائة رأس من الغنم هدية للجيش البريطاني . وفي عرف الاحباش اذا رفضت الهدية معناه رفض الصلح فقبل الانجليز الهدية مبدئيا ، وطلبوا الافراج عن باقي الرهائن الاوروبيين ، وبعد أن وصل آخرهم الى المعسكر ردوا الهدية . ففهم الامبراطور من ذلك أن هذا خيانة ، وأنهم أرادوا فقط تخليص الاوروبيين ثم محاربته الى النهاية . وبالفعل ابتدأت المدافع تدق بقسوة ، وبسهولة اقتحموا حصن الامبراطور . ولكنه انتحر قبل القبض عليه . ومن الغريب أن الحملة الانجليزية بعد أن حققت غرضها ، وهو تخليص المسجونين ، انسحبت انسحابا تاما من الحبشة ، آخذة معها كل الاوروبيين ما عدا شمبر الذى فضل البقاء ، ونستنتج من ذلك ما يأتي :

١ ــ انه الى ذلك الوقت ، أي الى سنة ١٨٦٨ ، لم يكن قد أصبح للبحر الاحمر أهمية استراتيجية بالغة .

٢ ــ أن سياسة الاستعمار الاقتصادى لم تكن قد تبلورت ،

---

1. Leonard Woolf : Empire and Commerce in Africa, New-York. 1920, p. 147.

ولو تأخر هذا الفتح ١٥ سنة لمـــا خرجت بريطانيا من الحبشة الا بصعوبة ٠

ولم تكن الدول قد بدأت بعد في اقتطاع أجزاء من افريقية ، ومع ذلك فقد كان هناك كتاب متقدمون جدا في تفكيرهم ومنهم مارك هام Sir Clements Markham الذي كتب يقول ان بريطانيا أخطأت في تضييع فرصة فتح بلاد الحبشة ، كمـــا نادى بضرورة اجلاء المصريين عن المناطق التي يحتلونها على الساحل ٠ ونسب اهمال دولته في تنفيذ هذه السياسة الى خوفها من خلق المشاكل الدولية ٠

أصبحت الحبشة في الفترة التي تلت ســـنة ١٨٦٨ دون امبراطور ، فبعد انســحاب الانجليز بدأت الفتنة الداخلية من جديد ، وكل رأس يريد التفوق على غيره ٠ ثم جاء تهديد المصريين من الشمال ٠ وفي سنة ١٨٧٢ انتهت الفوضى الداخلية تقريبـــا بانتصار يوحنا السادس Johannes VI ٠ وقد جاء هذا الامبراطور الجديد في ظرف عصيب جدا ، لان ضغط المصريين من الشـــمال اشتد ، واستولوا في اكتوبر سنة ١٨٧٢ بقيادة منزنجر على كيرن Keren ، عاصمة اقليم بوغوص ٠ وفي ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ غادر محمد رءوف باشا زيلع على رأس حملة لفتح هرر ، فدخلها في ١١ من اكتوبر من العام نفسه ، وسلم أميرها وقبائل كثيرة للفاتح المصري ، وحاولت فرقة مصرية غزو الحبشة من جهة زيلع بقيادة الضابط السويسري منزنجر Munziger ، ولكنها هزمت وقتل منزنجر في ١٨٧٥/١١/١٦ ٠ كما كانت هناك حملة مصرية أخرى لغزو الحبشة بقيادة الضابط الدانمركي ارندروب ، ولكنها هزمت وقتل أرندروب في ١٨ من نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وذلك لان الاحباش تمكنوا من تهريب الاسلحة عبر الخطوط المصرية والوقـــوف على حركات الجيش وسكناته تباعا بوساطة المسيو دي سارزك Serzec القنصل الفرنسي في مصوع ٠ فحاولت مصر استعادة كرامتهـــا الحربية بحملة أخرى سنة ١٨٧٦ من مصوع تولى قيادتها راتب

باشا ، وكان نصيبها مثل الحملتين السابقتين (١) • فقوى مركز يوحنا السادس لدرجة كبيرة بعد هذه الانتصارات ، وطمع في مد حدود الحبشة حتى النيل • وفي سنة ١٨٨٠ نجد الوضع كالآتي :

١ ـ لا تزال في حيـــازة المصريين كسلا وكرن ومصوع والساحل الشرقي وهرر •

٢ ـ بدأت الروح الاستعمارية في أوروبا تقوى نتيجة لحادث الكنغو البلجيكي ، الذى أدى الى احتلال فرنسا لتونس ، وظهرت نتيجته أيضا في احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ •

٣ ـ ان الدول الاوروبية بدأت تنظر باهتمـــام الى حوض النيل والبحر الاحمر من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية •

٤ ـ ظهرت حركة توسع شديدة في آيطاليا ، وكانت أنظار الأيطاليين تتجه الى تونس •

ولكن فرنسا أفسدت عليهم خطتهم ، فاتجهت أنظارهم الى منطقة الحبشة وشرق افريقية • وبنـــاء على ذلك بدأت سياسات الدولة االاستعمارية فى أوروبا ترسم لتحقيق أغراضها فى منطقة البحر الاحمر والحبشة ، وذلك على الوجه الآتى :

تذكرت فرنسا في أواخر سنة ١٨٨٠ انها كانت قد ابتاعت في ١١ من مارس سنة١٨٦٢ بمبلغ ٥٠٠ر٥٠ فرنك منطقة صغيرةعلى خليج تاجورة Gulf of Tajura حول ميناء صغير يسمى أوبك Obock (٢) وفي خلال هذه المدة لم تحتل فرنسا المنطقة أو تعمل فيها شيئا يدل على نيات استعمارية ، ولـكن في سنة ١٨٨٠ أدركت أهمية هــذه النقطة من ناحيتين • ناحية استراتيجية لانها قريبة من منفذ البحر الاحمر ، وناحية اقتصادية هي امكان استخدامهـا كمنفذ للتجارة

1. Augustus B. Wylde : Modern Abyssinia, 1901, pp. 23-28.
2. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, (Third Edition, London, 1909), vol. II, p. 628.

الحبشية ، فاحتلت فرنسا أوبك فى سنة ١٨٨١ . وفى السنة نفسها تنازل السلطان المحلى ، أى سلطان تاجورة وهو أحمد بن محمد ، عن بقية ممتلكاته بما فى ذلك جميع سواحل الخليج الى فرنسا .

أما ايطاليا فقد أقلقها استيلاء فرنسا على المركز السابق . ولكن الايطاليين تذكروا أيضا أن سلطانا آخر كان قد باع لهم سنة ١٨٦٩ ميناء عصب Assab ، ولكنهم مثل الفرنسيين لم يعملوا شيئا قبل سنة ١٨٨١ . وفى تلك السنة أرسلوا بعض السفن الحربية التى احتلت المنطقة باسم ايطاليا .

واهتمت بريطانيا بمراقبة حركات الفرنسيين والايطاليين لقرب مناطقهم من باب المندب وعدن ، وجاء احتلال مصر سنة ١٨٨٢ مناسبا لسياستهم ، خصوصا وأن مصر كانت فى ذلك الوقت تمتلك ساحل الصومال وهرر وجزءا من شمال الحبشة والسودان . وأكدت بريطانيا للدول العظمى أن احتلالها لمصر انما هو احتلال مؤقت . على أن بريطانيا أدركت أهمية أعالى النيل بالنسبة لمصر ، فطالما كانت هذه الاجزاء فى أيدى دول متأخرة ، فلا خطر منها على وادى النيل ومصر ، ولكن اذا انتقلت الى أيدى دولة قوية متمدينة ، فان هذه الدولة تستطيع أن تصبح خطرا كبيرا . ومع أن الانجليز باحتلالهم مصر ، منعوا الفرنسيين من احتمال سبقهم الى هذا العمل ، الا أن الخوف كان لا يزال موجودا من توغل الفرنسيين فى أعالى النيل ، وتهديد مصر من الجنوب . ولذلك فبالرغم من الاحتلال المؤقت لمصر فى نظر الانجليز ، فانهم لم يرغبوا فى توسع أية دولة على البحر الاحمر أو فى أعالى النيل ، وكان خوفهم أكثر ما يكون من فرنسا . على أن موقف الانجليز كان محيرا لهم ، فمصر كانت تمتلك الاجزاء التى ذكرناها فى الجنوب . ومع ذلك لم يمنع هذا كلا من فرنسا أو ايطاليا من احتلال أجزاء كانت مصر تبسط سيادتها عليها . وأخيرا فى سنة

١٨٨٤ اتخذت بريطانيا خطوة ايجابية على ساحل افريقية الشرقى ، وذلك باحتلالها ساحل الصـــومال البريطانى من زيلع الى بندر زيادة • والسبب الرئيسى فى احتـلال هـذا السـاحل ، هو منع الفرنسيين من مد نفوذهم فى هذا الاتجاه الشرقى • وبهذه الخطوة أصبحت الدول الثلاث ايطاليا وفرنسا وبريطانيا متجاورة بالقرب من منفذ البـــحر الاحمر • ولنتكلم الآن بشىء من التفصيل عن السياسة الاستعمارية ، بعـــد أن احتلت كل دولة منـــطقة على الساحل •

قلنا ان الفرنسيين احتلوا أوبك ، وادعوا أن غرضهم من ذلك هو التجارة ، ولما احتل الانجليز زيلع ذكروا السبب نفسه وأن هدفهم التجارة مع منطقة هرر لشهرتها ببعض السلع مثل البن ، فقامت بين الدولتين منافسة شديدة استمرت حوالى ٢٢ سنة ، اذ حاول الفرنسيون والانجليز أن يوجهوا تجارة هـذه المنطقة كل الى مينائه . وكان أول مظهر للنزاع بينهما ، هو أن الفرنسيين فى شخص قنصلهم فى زيلع احتلوا منطقة أو مرفأ صغيرا يقع شرقى زيلع بقليل اسمه دونجاريتا Dongarita فأدى هذا الى مشادة مع الانجليز ، وذلك لان دونجاريتا تقع بين زيلع وبربرة وتدخـل فى دائرة نفوذ الصومال البريطانى • واستمرت المشادة وكادت تؤدى الى حرب بين الطرفين ، ولكن فى سنة ١٨٨٧ بعد استمرار المشادة سنتين تقريبا ، استدعى القنصل الفرنسى الى فرنسا والبريطانى الى بريطانيا ، وسلمت فرنسا بوجهة نظر انجلترا ، خصوصا وأن مسألة التجارة مع هرر ــ بسبب الفوضى الســائدة والخوف من الاستعمار الاوروبى ــ اصبحت لا وجود لها . وفى ٢/٩ من فبراير سنة ١٨٨٨ تبودلت مذكرات بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية، حددت بمقتضاها منـاطق النفوذ فى خليج تاجـورة وعلى ســاحل الصومال ، على أساس أن تتخلى فرنسا عن دونجاريتا ، وأن تعترف بالحماية الانجليزية على ساحل الصــــومال من عند خط الحدود

الفاصل بين الصومالين الانجليزى والفرنسى لغاية بندر زيادة ، وذلك فى نظير أن يعترف الانجليز للفرنسيين بالسيادة والنفوذ فى سواحل خليج تاجورة(١) • والاسباب التى أدت الى الاتفاق هى :

١ ــ أن أهمية هذا الموقع أصبحت قليلة لان التجارة انقطعت تماما •

٢ ــ أن نفوذ المهدى فى الســـــودان كان قد امتد لدرجة كبيرة ، وفى سنة ١٨٨٥ كان قد احتل الخرطوم •

٣ ــ أن انسحاب القوات المصرية والبريطانية من السودان جعل الاحتفاظ بهرر التى كانت تابعة لمصر صعبا فتقرر اخلاؤها •

وبالمحفوظات التاريخية بقصر عابدين تقرير من أربع وعشرين صفحة تاريخه ٢ من يوليه سنة ١٨٨٥ ، مقدم من رضوان باشــا حكمدار عموم هرر وملحقاتها عن تفصيل ما أجراه لاخلاء حكمدارية هرر طبقا للتعليمات الصادرة اليه (٢) •

وفى الوقت الذى ســـوى فيه اشكال دونجاريتــا كانت الحبشة كلهاوهرر وكل الممتلكات الاوروبية فى خطرمن قوات المهدى • وهنــا يدخل عنصر آخر ، وهو الدور الذى لعبتــه ايطاليا من سنة ١٨٨٥ : فى سنة ١٨٨٥ بالذات احتلت ايطاليا مينــاء مصوع ، ومصوع كانت ملكا لمصر ، ومصر كانت تحتلها بريطانيا ، فمعنى ذلك أن احتـــلال ايطاليا لمصوع لا بد أن يكون قد تم بموافقة أو

---

1. E. Hertstet : The Map of Africa by Treaty, (Third Edition, London, 1909), vol. II p. 726-728.

(٢) المحفوظات التاريخية بقصر عابدين : محفظة السودان رقم ٣ ملف ٣/٣ • وبالملف نفسه ثلاث عرائض مقدمة الى حكمدار عموم هرر ، الاولى من التجار الاجانب في هرر مؤرخة في ١٦ من أغسطس ١٨٨٤ باظهار أسفهم لما أشيع من عزم الحكومة المصرية سحب عساكرها من اراضي هرر وملحقاتها ويطلبــون بقاءها حرصا على متاجرهم وأملاكهم • والعريضتان الاخريان من أعيان وعلماء وتجار وأهالى هرر بالمعنى السابق •

بتحريض بريطانيا . وتحليل الفرنسيين لهذا الاتفاق بين انجلترا وايطاليا ، هو أن بريطانيا كانت في مأزق بسبب حركة المهدى ، وفي الوقت نفسه كانت تخشى التوسع الفرنسى ، كما أن بريطانيا لا تخشى من ايطاليا كما تخشى من فرنسا ، فمن الطبيعى اذن أن يتفق الطرفان حتى تصبح ايطاليا عونا للانجليز ضد الدراويش من ناحية والفرنسيين من ناحية أخرى ، لهذه الاسباب أعطيت مصوع الى ايطاليا ، ثم شجعت على تأسيس مستعمرة اريتريا وارسال حملات علمية وتجارية الى اقليم هرر . كذلك تفاهمت الدولتان سرا على أن جميع الاراضى الحبشية تعتبر دائرة نفوذ لايطاليا ، وتستطيع أن تؤسس فيها امبراطورية . وأيضا سمح الانجليز لايطاليا باحتلال كسلا مؤقتا ، وكسلا فى ذلك الوقت كانت فى يد المهدى . وبهذه السياسة تستطيع بريطانيا أن تصطاد ثلاثة عصافير بحجر واحد . فأولا الايطاليون سيقفون سدا أمام المهدى فى الشمال ، وثانيا أن السماح للايطاليين بمد دائرة نفوذهم فى الحبشة الى ما أصبح فيما بعد الصومال الايطالى يجعلهم يقفون سدا أيضا أمام حركة الفرنسيين من الساحل الشرقى نحو السودان . وثالثا أن الحليف الايطالى ، الذى قد يستطيع أن يقف سدا أمام الدراويش لا بد أن يصاب بكارثة على أيدى الاحباش ، وعندئذ تدخل بريطانيا فى الحبشة على جثة الدرويش الذى ذبحه الايطالى ، وعلى جثة الايطالى الذى ذبحه الحبشى ، وعلى جثة الحبشى الذى أفناه الدرويش والايطالى (١) ».

هذا هو تحليل الفرنسيين للاتفاقية ، وسنشاهد أن ماحدث يطابق تماما هذا التحليل ، فمن ناحية احتلال ايطاليا لمصوع لم يكن هناك أى سند يبرره ، فلابد من أن بريطانيا كانت موافقة على ذلك . ويؤيد هذا ماذكرناه من اعطاء كسلا لايطاليا وهى فى يد

1. Leonard Woolf : Empire and Commerce in Africa, New-York, 1920, p. 160.

الدراويش . فالغرض الواضح من هذا هو الاستناد الى القوة الايطالية فى محاربتهم . على أن أطماع ايطاليا لم تقف عند الجزء الشمالى ، بل كانت تطمع فى هرر والحبشة . فبعد أن أخلى المصريون هرر سنة ١٨٨٥ تركت لحكم أمير محلى هو الامير عبد الله ، وكان شديد التعصب لتعاليم الدين الاسلامى . وفى خلال حكم المصريين للاقليم كانت التجارة رائجة ، ولكن عندما أتى عبد الله اعتبر كل أنواع تجارة الجملة غير مشروعة ، وعدها نوعا من الربا ، فحرمها وبذلك قضى على مصالح الاوروبيين الذين كانوا يتخصصون فى هذه التجارة ، على أنه لم يقض على رغبة الاوروبيين الملحة فى فتح هرر تجاريا . تلك الرغبة التى اتفقت عليها كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا . وأخيرا تجرأت ايطاليا على تحدى الأمير وأرسلت بعثة تجارية للتجارة بالجملة فى البن ، ونزلت فى زيلع ووصلت الى حدود هرر ، وأرسلت الى الامير أن لديها هدايا تريد توصيلها اليه ، فأمرها الامير بالعودة فورا الى الساحل . ولكنها ألحت فى تقديم الهدايا ، وعبرت الحدود ، فحوصرت وقتل جميع الاوروبيين . وكان عددهم قليلا ولكنهم كانوا مسلحين تسليحا عظيما . ويقال ان خسارة الامير فى هذه العملية بلغت سبعة من الصوماليين . وقد أوقفت هذه الضربة الاولى ايطاليا عند حدها مؤقتا .

أما بالنسبة الى الحبشة نفسها وخطر المهدى فى الشمال ، فقد رأت بريطانيا أن تتحالف مع يوحنا امبراطور الحبشة ، وبالفعل وضعت اتفاقية سنة ١٨٨٤ ، أى قبل احتلال ايطاليا لمصوع بسنة . وقد تعهدت بريطانيا فى هذه المعاهدة بضمان حرية نقل التجارة بين الحبشة ومصوع ، بما فى ذلك الاسلحة ، واتفق أيضا على اعادة منطقة فى الشمال — كان المصريون قد احتلوها — الى الاحباش ، ذلك فى نظير مساعدة المصريين على اجلاء حامياتهم التى كانت موجودة فى بعض المدن مثل كسلا وكرن وغيرهما. وقد نفذ الطرف الحبشى فى المعاهدة وهو الامبراطور تعهداته

بكل اخلاص ، وساعد المصريين فعلا على الجلاء ، ولكن بعد أن حصلت بريطانيا على هذه المساعدة سمحت للايطاليين باحتلال مصوع . فاحتج الامبراطور على ذلك ، لان هذا يخالف المعاهدة ، التى لم تكن قد جف مدادها بعد، خصوصا وأن الامبراطور كان يطالب بهذه المدينة ، ثم جاءت مخالفة أخرى نتيجة للمخالفة الاولى . وهى أنه فى حين تعهد البريطانيون بالسماح بوصول الاسلحة الى الامبراطور . وأصبحت ترسل الى عدوه منليك Menelik وكان أميرا محليا فى منطقة جنوبية اسمها شـوا Shoa . كيف يتحالف البريطانيون مع شخص ثم يتجاهلونه في خلال سنة واحدة؟ كان على بريطانيا أن تميز فى هذه الظروف بين حليفين : الحبشة أو ايطاليا . ولما كانت مطامع ايطاليا لايمكن أن تحقق الا على حساب الحليف الآخر وهو الحبشة ، فلم يجد الانجليز بدا من التضحية بالامبراطور . لذلك نجد أن ايطاليا بدأت فى الاتساع من مصوع نحو الحبشة ، فاحتلت مناطق كثيرة فى الداخل ،أحيانا بقوات مسلحة ، وأحيانا بما أسمته بعثات علمية وتجارية ، ولكن حدث فى سنة ١٨٨٧ أن أسر أحد رؤساء هذه الحملات فى منطقة حبشية تبعد أكثر من ٥٠ ميلا عن الميناء . وأرسل القائد الحبشى الى حاكم مصوع الايطالى انذارا بألايتعدى حدود الميناء، فرفض الانذار بالطبع وبدأت الحرب . وفى فترة قصيرة جدا طوق الايطاليون ودحروا تماما بالقرب من دجالى Dogali والنتيجة المباشرة للحرب هى أن الحاكم انسحب ، وطلب نجدة من ايطاليا . وكان موقف الامبراطور فى هذه الفترة ، بالرغم من انتصاره ، فى غاية الحرج . لان الدراويش مازالوا خطرا من الغرب ، ومنليك بمساعدة الاسلحة الايطالية مازال خطرا من الجنوب . كل هذا بالاضافة الى الخطر الايطالى نفسه من الشمال . ولم يكن للامبراطور حليف سوى بريطانيا . وقد أثبت هذا الظرف قيمة التحالف معها ، اذ لم تكن لها مصلحة أو خدمة تنتظرها من حليفها .

وبعد ان درس الامبراطور موقفه على أساس واقعى ، عزم على مواجهة أعدائه واحدا واحدا ، واختـــار الدراويش أولا ، لأنهم كانوا أشد الأخطار . ولكن فى سنة ١٨٨٧ كان منليك قد احتل هرر ، أى بعد انسحاب المصريين منها بسنتين . وفى سنة ١٨٨٩ عقد معاهدة مع ايطاليا اعترفت فيها ايطاليا بمنليك ملكا على الحبشة ، فى نظير مساعدته لها ضد يوحنا ، وكانت تمـده بالاسلحة من مصوع . وفى حرب الامبراطور يوحنا مع الدراويش انتصر عليهم ، ولكنه أصيب بجرح قاتل بعد انتصاره . وبلا شك لولا مســـاعدة الايطاليين لمنليك لمـا اسـتطاع تحدى الامبراطور السابق يوحنا . ومع أن الامبراطور يوحنـا لم يمت نتيجـة لعمليات قام بها منليك الا أنه كان قد ضـعف فى حملاته ضـد الدراويش ، وكان من المحتمل جدا أن يتغلب عليه منليك بعد ذلك بمساعدة الاسلحة الايطالية ، وعلى كل فان منليك حينما تولى العرش ، كان عليه أن يدفع ثمن المساعدة الايطالية ، وبالفعل احتلت ايطاليا بعض المقاطعات الشمالية ، ولكنها لم تقف عند الحدود التى رسمت فى الاتفاق بينها وبين الامبراطور ، بل عبرت نهر مأرب واحتلت عـدوة سـنة ١٨٩٠ فاتضـحت بذلك نياتهـا . الا أن منليـك أظهـر للايطاليين صـداقتـه مؤقتا حتى يحصل منهم على المســاعدة اللازمة لاخضـاع جميع أرجاء الامبراطورية ، فاستطاع فى فترة وجيزة أن يخضع هرر . غير ان ايطاليا كانت فى الوقت نفسه على اتصـال ببريطانيا لتنفيذ سياستها الاستعمارية . واثار هذا الانتصار مخاوف فرنسـا ففاتحت بريطانيا للاتفاق على عـدم احتـلال هرر ، ومقاومة احتلالهـا بوسـاطة دولة أوروبية أخـرى . فأحرجت الحكومة الانجليزية لأن تفاهمها مع ايطاليا كان على أساس اعتبار جميـع الامبراطورية الحبشية مرتعا للاسـتعمار الايطالى . ولكنها فى الوقت نفسه لم ترد أن تظهر لفرنسا نياتها او اتفاقها مع ايطاليا . فكانت النتيجة أن اتفقت الدولتان انجلترا وفرنسـا على عـدم

الاخـلال باستقلال هرر (يعنى تبعيتها للحبشة) . ولكن بريطانيا لجأت فى صياغة اتفاقية ٢/٩ من فبراير سنة ١٨٨٨، التى ذكرتها سابقا ، الى اضافة جملة فيها شيء من الغموض . فقد جاء فى المادة الرابعة من هذه المعاهدة ما يأتى :

« على الحكومتين الا تحاولا ضم هرر ، أو وضعها تحت الحماية . وباتباع هذا الاتفاق لا تعنى الحكومتان التنازل عن حقهما فى معارضة محاولات أية دولة أخرى للحصول أو المطالبة بأية حقوق فى هرر (١) »

اعتقد الفرنسيون أن هذه الصيغة كافية لان تلزم بريطانيا ادبيا بمقاومة أى اعتداء ايطالى ، ولكن الانجليز فى صياغتهم لهذه المعاهدة بهذا الشكل كانوا يعلمون أن التزامهم الأدبى هذا لا يلزمهم بأى تدخل فعلى . وهناك دليل مادى على أن بريطانيا كانت تريد مغالطة فرنسا فى هذه الناحية ، وهو أنها طلبت من فرنسا جعل هذه المعاهدة سرية ، فقد تم توقيعها فى فبراير سنة ١٨٨٨ ، ولم يعرف سرها الا سنة ١٨٩٤ . وكان الغرض من الاهتمام بجعلها سرية ، هو عدم اغضاب ايطاليا التى تفاهمت بريطانيا معها على عكس ماجاء فى هذه المعاهدة . وبعد ذلك استندت ايطاليا الى معونة انجلترا ، ومضت فى تنفيذ سياستها تجاه الحبشة . وفى ٢ من مايو سنة ١٨٨٩ أبرمت المعاهدة الشهيرة مع منليك وهى معاهدة أوتشيالى Ucciali (٢) . واهم ما فى هذه المعاهدة المادة رقم ١٧ المتعلقة بعلاقات الحبشة الخارجية . وقد كتبت المعاهدة من نصين احدهما إيطالى ، والآخر أمهرى ، وجاء نص المادة ١٧ مختلفا اختلافا جوهريا فى الايطالى عنه فى الحبشى . فكان النص الحبشى كالآتى :

«His Majesty the King of Kings of Ethiopia *shall be*

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. II, p. 726.
2. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. II, p. 454

at liberty to avail himself of the Italian Government for any negotiations which he may enter into with other powers or Governments».

ومعنى ذلك أن لجلالة امبراطور الحبشة الحرية فى أن يستعين بالحكومة الايطالية فى مفاوضاته مع الحكومات الاخرى . أما فى النص الايطالى فبدلا من التعبير الذى تحته خط ورد تعبير shall be obliged معناه « عليه أن يستعين بالحكومة الايطالية فى مفاوضاته .. » ووفق المعنى الأخير تصبح الحبشة فى الواقع محمية ايطالية . وقد ظل منليك جاهلا بهذا الموضوع مدة . وبعد هذه المعاهدة بقليل وقعت اتفاقية اخرى فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ ، تضمنت اعطاء قرض للحبشة قدره أربعة ملايين ليرة ، بضمانة الحكومة الايطالية . على أنه اذا لم تدفع اقساط القرض بانتظام فللحكومة الايطالية أن تستولى على جمرك هرر وتديره بنفسها (١) . وبعد أحد عشر يوما من توقيع هذه الاتفاقية الأخيرة أرسلت ايطاليا الى الدول العظمى خطابا دوريا تعلمها فيه ، بناء على المادة ٣٤ من مواد مؤتمر برلين فى ٢٦ من فبراير ١٨٨٥ ، أنه استنادا الى المادة ١٧ من معاهدة أوتشيالى ، فان ملك الحبشة قد وافق على تكليف الحكومة الايطالية بادارة جميع شئون الحبشة الخارجية مع الدول والحكومات الاخرى (٢) . وبهذا التبليغ اتضح تفسير ايطاليا لمعاهدة أوتشيالى ، خصوصا وأن مادة مؤتمر برلين التى جعلت ايطاليا تبلغ الدول كانت تنص على أن « أية دولة تمتلك من الآن فصاعدا أية رقعة من الأرض على سواحل القارة الافريقية خارجة عن ممتلكاتها الحالية » وأية دولة لا تمتلك الآن شيئا على الاطلاق ثم تحصل على أراض هناك ، وكذلك دولة تبسط حمايتها على جزء هناك يجب أن تخطر الدول الموقعة على الميثاق الحالى بذلك ، حتى تستطيع هذه الدول ، اذا لزم الأمر ، أن توضح

1 Ibid., p. 456.
2 Ibid., p. 457.

اية طلبات خاصة بها (١) . فالتبليغ الدولى نفســـه معناه ان الحبشة أصبحت محمية ايطالية .

وحتى ذلك الوقت كان منليك يجهل الاعمال التى فعلتهـــا ايطاليا . ولكن من صاحب المصلحة فى تبليغه ذلك ؟ انها فرنسا بطبيعة الحال . فقد أوضـــحت له هذه الحقائق. فأرســـل الامبراطور بدوره خطابا دوريا الى الدول الكبرى يؤكد فيه أنه لم يوافق مطلقا على جعل بلاده تحت الحماية الايطالية . وأنه مقيد فقط بالنص الحبشى لمعاهدة أوتشيالى ، وهو النص الذى وقع عليه شخصيا (٢) . أما ايطاليـــا فانها صممت على اتباع النص الايطالى ، وكانت موافقة بريطانيا فى نظرها أهم من موافقـة امبراطور الحبشة . ولهذا وقعت ايطاليا مع بريطانيا اتفاقيتين فى سنة١٨٩١ ، الاولى فى ٢٤من مارس ، والثانية فى ١٥ من ابريل(٣)

ويتضح موقف الحكومة المصرية من هاتين الاتفاقيتين من الخطابين المتبادلين بين وزارة الخارجية المصرية والسردار فى مايو من الســنة نفســها . جاء فى الخطاب المؤرخ فى ٢٨ من مايو ســنة ١٨٩١ الذى أرســـله تجران باشا وزير الخارجية الى السردار جرانفيل باشا ما يأتى :

« انه من المحتمل أن تكون قد اطلعت على البروتوكول الموقع فى ١٥ من ابريل سنة ١٨٩١ فى روما بين اللورد دوفرين والمركيز دى رودينى ، لتحديد خط فاصل لمنطقتى النفوذ المخصصتين لكل من ايطاليا وسوداننا الشرقى .

لقد تمت هـذه التسوية دون علم حـكومة صـاحب السـمو (الخديو) الذى من جهة أخرى ، لا صفة له للبت فى مسألة من

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. II, p. 48.
2. Leonard Woolf : Empire and Commerce in Africa ; New York 1920, pp. 139-170.
3. Blue Book : Italy No. 1 (1891) ; Hartslet : The Map of Africa By Treaty, vol. III pp. 948-949.

هذا القبيل ، نظرا لأن فرمان ٧ من أغسطس سنة ١٨٧٩ اشترط صراحة بأنه لا يجوز للخديو ، لأى سبب كان ، التنازل عن أى جزء من أراضيه .

وبما أن البروتوكول المشار اليه قد أصبح علنيـــا بنشره فى الـكتـــاب الأزرق رقـــم ١ « Blue Book, Italy No. 1 » فانه يحق للباب العالى بأن يتخذ الاجراءات المناسبة . ولما كانت حكومة صاحب السمو رغبة منها فى تحاشى المشـــاكل التى قـــد تحدث فى الجهات المذكورة بين الاشـــخاص الرســـميين الذين لا يهتمون عادة الا بتنفيذ التعليمات الصادرة اليهم ، فقد كلفت بأن أرسل لك هذا البروتوكول ، مع رجائى بأن تبلغوه الى حاكم سواكن ، وأن تطلبوا منه احترام خط الحدود المبين به ، لحين صدور أوامر أخرى » .

وقد أجاب السردار على وزير الخارجية بخطاب مؤرخ فى ٣١ من مايو سنة ١٨٩١ ورد فيه ما يأتى :

« أتشرف بالاحاطة باستلام خطاب سعادتكم المؤرخ فى ٢٨ الجارى ، والمرفق به صور من البـــروتوكول المبين فيه الخط الفاصل لمنطقة النفوذ فى السودان الشرقى . وتنفيذا لرغبتـــكم قد أرسلت صورة من هذا البروتوكول الى الحاكم العام لسواكن وأخطرته بأن يحترم ، لحين صدور أوامر أخرى ، خط الحدود المقرر فى البروتوكول (١) » .

كما وقعت بريطانيا مع ايطاليا اتفاقية ثالثة فى ٥ من مايو سنة ١٨٩٤ (٢) . وعلى العموم نصت هذه الاتفاقات على اعتراف بريطانيا بدائرة نفوذ ايطالية ، تمتد من ساحل اريتريا وتشـــمل

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية المصرية : ملف رقم ٢/٤ قديم .

2. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty. Third Edition, London 1909, vol. III ; p. 959.

جميع الحبشة ، وتنتهي على ساحل المحيط الهندي بما فيها الصومال الايطالي .

وقد روعي في رسم حدود هذه المنطقة ان تكون بعيدة نوعا ما عن وادي النيل . وفي الوقت نفسه تقف سدا ضد أية محاولة للفرنسيين للتوغل غربا من الصومال الفرنسي . وفي السنة التي وقعت فيها الاتفاقية الاخيرة أي في سنة ١٨٩٤ ، وهذه الاتفاقيات كانت سرية ، وصلت أنباء هذه الاتفاقيات بطريقة ما الى علم فرنسا فقدمت احتجاجا شديدا ، وشكت من أمرين :

الأول : أن بريطانيا قد حاولت اعطاء ايطاليا أراضي لا حق لبريطانيا نفسها فيها .

الثاني : أن فرنسا لمحت أن هناك اتفاقا سريا لم يظهر في بنود هذه المعاهدة يقضي بأن تعطى ايطاليا بريطانيا امارة هرر بعد الاستيلاء عليها . وبهذا ترتكب بريطانيا مخالفتين ، الاولى أنها سمحت لايطاليا بأخذ هرر في الاصل ، والثانية أن تعود هرر الى بريطانيا التي قطعت على نفسها عهدا بعدم ضمها .

وكان رد الحكومة البريطانية مراوغا ، وقد تضمنته مذكرة سلمها السفير البريطاني في باريس الى مسيو هانوتو ، وورد فيها « سيكون أي عمل من جانب انجلترا ، ويستند على اتفاقية ٥ من مايو قاصرا على اتصالات واجراءات تتمشى مع الاتفاقية بين فرنسا وانجلترا ، ولا تؤثر بأية حال على الوضع السياسي في هرر ، الذي لا تنوي حكومة صاحبة الجلالة التدخل فيه . »

نلاحظ في هذا الرد أن الانجليز اعترفوا بأن هناك اتفاقا بينهم وبين ايطاليا ،ويبررون هذا الاتفاق بأنه سيكون قاصرا على اجراءات لاتتعارض مع الاتفاقية الفرنسية البريطانية ، فنجد هنا أن موقف بريطانيا كان غريبا جدا ، اذ كيف يمكن التوفيق

بين اقرارها أن الاجراءات لن تؤثر فى الوضع السياسى لهرر ، وبين اتفاقها مع ايطاليا على استعمار هرر بل الحبشة بأجمعها ؟

وهكذا اتبعت بريطانيا فى منطقة البحر الاحمر سياسة تحول دون هجوم فرنسا وايطاليا والحبشة على أعالى النيل من هذه الناحية .

الفصل الرابع

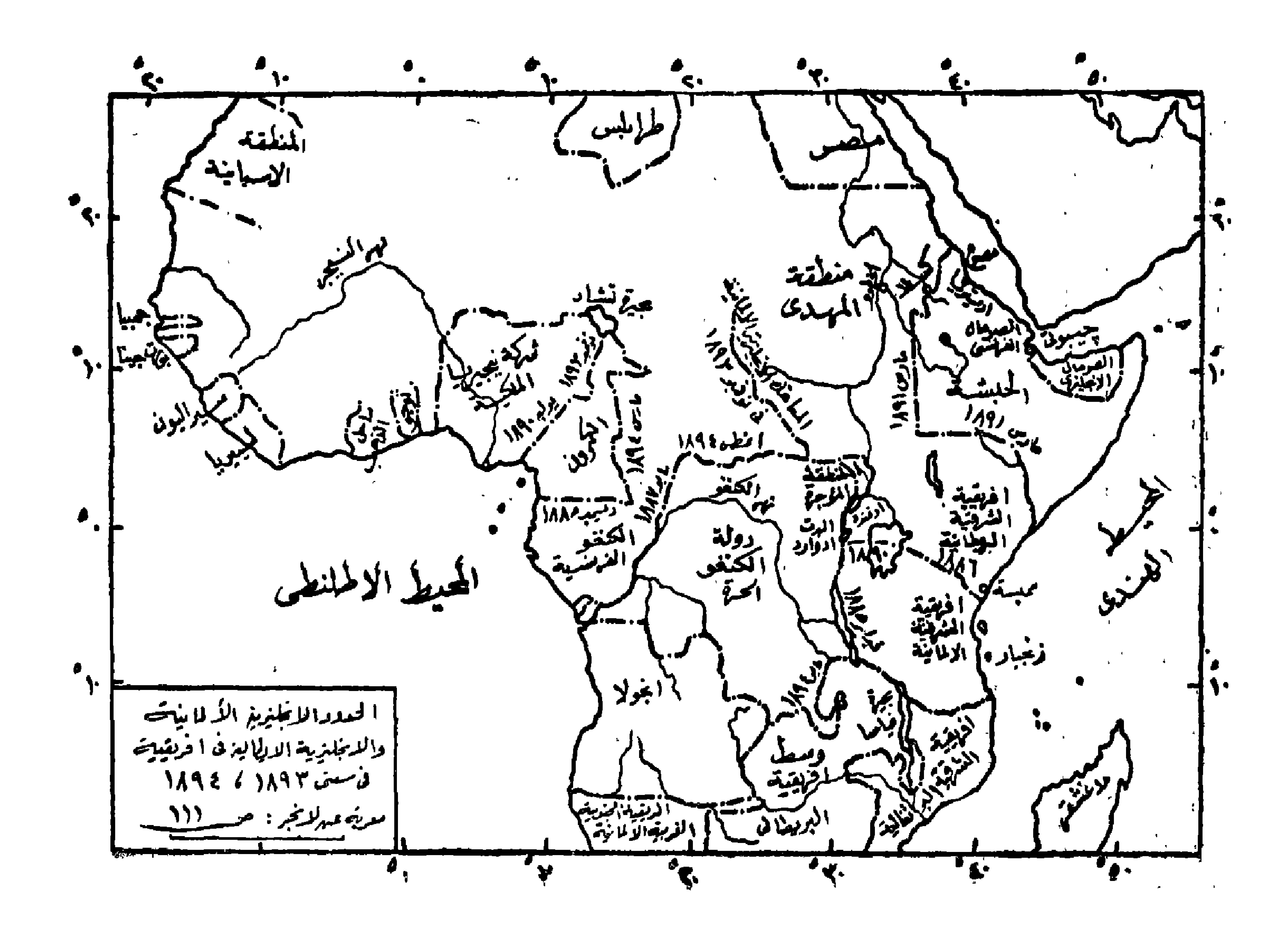
بريطانيا والمانيا فى شرق أفريقية

اخلاء أعالى النيل من المصريين
كارل بيترز وخططه والاتفاق الانجليزى
الألمانى فى أول يوليو سنة ١٨٩٠

بريطانيا وألمانيا فى شرق افريقية :

لم تكن الحبشة وايطاليا الدولتين الوحيدتين اللتين تهددان أعالى النيل والسودان . وكما بين جوردون أن أحسن طريق لمنطقة البحيرات وأعالى النيل هو طريق ساحل افريقية الشرقى من مشارف مونباسة . ولقد كانت هذه المنطقة جزءا من أملاك سلطان زنجبار ، وكانت مسرحا لمنافسة عنيفة بين الانجليز والالمان ، ولأهمية هذه المنافسة فى موضوعنا سأتحدث عنها بشىء من التفصيل .

حتى أوائل سنة ١٨٨٥ لم تكن أية دولة أوروبية تمتلك مترا مربعا واحدا فى ساحل زنجبار وشرق افريقية ، ولكن ما جاءت سنة ١٩١٤ الا وكان شرق افريقية من الصومال الايطالى شمالا الى أفريقية البرتغالية الشرقية جنوبا تحت سيطرة الدول الاوروبية ، فايطاليا تحتل الصومال وبريطانيا تحتل جزر زنجبار وبمبا ، والساحل ما بين افريقية الشرقية الالمانية والصومال الايطالى ، وتمتد فى الداخل حتى السودان وأعالى النيل ، أى تشمل كينيا وأوغندة الحاليتين . ثم المانيا وكانت تحتل الاراضى بين المحيط



الحدود الانجليزية الألمانية
والانجليزية الايطالية في افريقية
في سنتي ١٨٩٣ ، ١٨٩٤
المنطقة الاسبانية
طرابلس
مصر
نهر النيجر
بحيرة تشاد
منطقة المهدى
الحبشة
المحيط الاطلنطى
المحيط الهندى
دولة الكنغو الحرة
الكنغو الفرنسية
الكمرون
انجولا
وسط افريقية
افريقية الشرقية البريطانية
افريقية الشرقية الالمانية
زنجبار
ممبسة
مدغشقر

الهندى فى الشرق ونهر الكونغو فى الغرب ، وتحاط من الشمال والجنوب بالممتلكات البريطانية والبرتغالية • وقد تم القضاء على سيادة واستقلال هذا الجزء من افريقية فى أقل من عشر سنوات ؛ وبدأ استعماره فجأة فى عام ١٨٨٥ •

فمن منتصف القرن الثامن عشر كان معظم هذا الساحل الافريقى ملكا لامام عمان • وفى سنة ١٨٠٤ أصبح السيد سعيد اماما على عمان • وقد نجح فى جعل سلطته فعالة وقوية فى زنجبار وممتلكاته على ساحل افريقية • وقد حكم السيد سعيد مدة طويلة اذ توفى فى سنة ١٨٥٦ ، وقرب نهاية عهده اتخذ زنجبار مقرا له؛ وترك أحد أولاده حاكما على مسقط • ومن آثار حكمه أنه ترك ممتلكاته فى حالة استقرار ورفاهية بسبب تشجيعه للتجارة • وبعد وفاته بخمس سنوات انفصلت زنجبار عن مسقط ، وأصبح السيد مجيد سلطانا على زنجبار وشرق أفريقية ، ومن سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٨٨ كان السلطان على هذه الجهات هو السيد برغش، وكانت العلاقة بين شرق افريقية وأوروبا فى الفترة من سنة ١٨٢٠ الى بدء استعماره فى سنة ١٨٨٥ كما يأتى :

بريطانيا كانت تحتل مكانا خاصا لدى السلطان لسببين :

(أ) أن بريطانيا كانت تسيطر على الهند ، وهذه السيطرة جعلتها تهتم بالخليج الفارسى وبكل من مسقط وعمان • وفى سنة ١٨٢٠ أرسلت حكومة الهند حملة الى هذه الجهات لتتعاون مع السيد سعيد فى معاقبة القرصان العرب •

(ب) أن التجارة فى زنجبار كان أغلبها فى يد رعايا هنود ، وكانت العلاقات بين زنجبار والهند قوية جدا •

وبالإضافة إلى التجارة المشروعة ، كانت هناك التجارة غير المشروعة فى العبيد • لذلك انتهى الاوروبيون الى نتيجة هى ضرورة إدخال المدنية فى هذا الجزء من القارة المظلمة ! وبمجرد السماح

لهذه التجارة أن تستمر كانت القبائل الافريقية فى حرب مستمرة بعضها مع بعض . ولما جاء الاوروبى بأسلحته الحديثة كان الضرر عظيما جدا ، لانه لم يقتصر على الحملات الاوروبية لاقتناص العبيد. بل كانت الاسلحة تباع للاهالى وتستخدم فى الحروب بينهم . فالاوروبيون كانوا يستفيدون من ناحيتين . بيع الاسلحة والتجارة فى الرقيق .

ومن الغريب أن تقوم فى بريطانيا ـ فى ذلك الوقت ـ حركة لمناهضة تجارة الرقيق ، وفى سنة ١٨٨٠ كانت الحركة الدولية ضد تجارة الرقيق قد بلغت شأنا كبيرا ، واعتبرت هذه التجارة غير مشروعة وكادت توقف تماما على الساحل الغربى لافريقية . أما على الساحل الشرقى فكانت الظروف مختلفة ، فالمحاولات التى بذلت لم يكن لها أى أثر حتى سنة ١٨٧٠ ، ولكن فى سنة ١٨٧٣ عقدت معاهدة مع برغش حرم فيها تصدير الرقيق من ساحل افريقية وأقفلت جميع الاسواق العامة للرقيق فى ممتلكاته ، وحصلت بريطانيا والهند من جراء هذه المعاهدة على نفوذ ومركز خاص عند السلطان . ومما زاد فى هذا النفوذ بعض العوامل الشخصية . ففى سنة ١٨٧٣ أيضا عين الدكتور جون كرك Dr. Kirk ، وكان طبيبا للوكالة البريطانية فى زنجبار ، عين قنصلا عاما لبريطانيا ومندوبا سياسيا بها . وقد أصبح بنفوذه فى هذه الوظيفة القوة المحركة للسلطان . وقد تنحى عن الوظيفة فيما بعد وأصبح أحد مديرى شركة شرق افريقية البريطانية . والشخصية الثانية التى جعلت العلاقات قوية جدا هو سير لويد ماثيوز Sir Loyd Mathews الذى وصل الى شرق افريقية كملازم على طرادة بريطانية سنة ١٨٧٥ ، وفى سنة ١٨٧٧ استطاع كيرك بنفوذه لدى برغش أن يقنعه بضرورة تأسيس قوة مكونة من خمسمائة رجل مسلحين بأسلحة حديثة ، تحت قيادة ضابط انجليزى ، ورشح ماثيوز لهذا العمل . واستعير من البحرية البريطانية . وفى سنة ١٨٨١ استقال

من البحرية وعين بريجادير جنرال ، أى أميرالايا لجيش زنجبار ، وظل فى هذه الوظيفة حتى مماته سنة ١٩٠١ .

وبعد سنة ١٨٨٠ كان هناك صراع عنيف بين بريطانيا وألمانيا على الاراضى التابعة لمملكة زنجبار . وكما رأينا سابقا كان الاوروبيون يدعون أن الحكام الوطنيين مغرمون بالتنازل عن سيادتهم الى الاوروبيين وخصوصا البريطانيين . وحدث فى سنة ١٨٧٢ أن أسست شركة ملاحية تربط الهند وزنجبار وأوروبا ، ومؤسسها شخصية هامة جدا هو السير وليم ماكينون William Mackinnon ويخبرنا السير وليم ماكينون هذا أن السلطان برغش استطاع أن يقدر بذكائه الفوائد التى ستعود على دولته من هذه الشركة والتى ستعود على شعبه من توثيق الروابط بينه وبين المصالح البريطانية التجارية ، لدرجة أن السلطان فى سنة ١٨٧٧ عرض على سير وليم امتيازا لمدة سبعين سنة ، يتناول الجمارك والادارة فى جميع ممتلكات السلطان ، والسيادة المطلقة على جميع هذه الممتلكات ، بتحفظات بسيطة فيما يتعلق بجزيرتى زنجبار وبمبا . وليس بمستبعد أنه نظرا الى صعوبات لغوية لم يفهم سير وليم حقيقة أغراض السلطان ونواياه ، ولكن مع ذلك يمكن القول أنه كان من السهولة بمكان لمدير شركة ملاحة كبيرة أن يستولى على أى جزء من ممتلكات السلطان فيما بين ١٨٧٠ ، ١٨٨٠ ، لان النفوذ البريطانى كان على أشده فى هذه الفترة .

الا أن الجو لم يصف لبريطانيا لابتلاع جميع هذه الممتلكات ، اذ أن دولا أوروبية أخرى تقدمت للاشتراك فى الاستعمار ، وأهمها الامبراطورية الالمانية . وقد بدأت علاقات ألمانيا مع ساحل افريقية الشرقى بشكل تجارى ، اذ تأسست شركات ألمانية فى العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ، للتجارة على ساحل الصومال وزنجبار وموزمبيق ومدغشقر ، وكان يرافق التجارة دائما نشاط كشفى ، لان المذهب السائد فى أوروبا فى ذلك الوقت

هو أن الدولة التى ينتمى اليها الكاشف تسيطر على ما يتم كشفه بواسطته · وقد نجحت ألمانيا في ارسال تجار وكاشفين ممتازين ، ولكن بريطانيا كانت تستطيع أن تستند الى رعاياها الهنود الذين كان فى يدهم معظم التجارة المحليـــــة ، والى نفوذ كيرك ومائيوز وماكينون ، بالاضافة الى الكاشفين البريطانيين من أمثال سبيك وبرتون ، فاذا جاءت ألمانيا فى ســـنة ١٨٨٤ وادعت أحقيتها فى حرمان سلطان زنجبار أو ملك أوغندة من ممتلكاته ، فان بريطانيا كانت أقوى فى هذا الادعاء ، أو على الاقل تستطيع أن تنـــــادى بأحقيتها فى حرمان هؤلاء السلاطين من أراض أكثر اتساعا بمقارنتها بألمانيا · وما حدث هو أنه من أول سنة ١٨٨٠ فما بعـــد بدأت الحكومات الاوروبية فى الاستيلاء على بعض المساحات من الساحل الافريقى · وبدأ تفكير الاستعماريين الالمــــان فى ساحل شرق افريقية ، وفى الحقوق التى أسسها التجار فى هذه الجهات · ومن أهم الشخصيات الالمانية فى استعمار هذا الساحل الكاشف الكبير دكتور كارل بيترز Dr. Karl Petersففى ٢٨ من مارس سنة١٨٨٤ أسس بيترز وبعض الاستعماريين جمعية أطلق عليها اسم «الجمعية الالمانية للاستعمار Gesellschaft für deutsche Kolonisation » واستمرت هذه الجمعية مدة ثلاثة أشهر تناقش الموضوع الآتى : فى أى أجزاء افريقية تستطيع أن تنفذ مشروعاتها الاستعمارية ؟ · وفى ١٦ من سبتمبر استقر رأيها على استعمار الجزء من الساحل الواقع خلف « دار السلام » · على أن تقـــوم الحملة فى أكتوبر وتتكون من بيترز نفسه وثلاثة آخرين أحدهم من التجار ، وقـــد أدركوا احتمال معـــــارضة بريطانيا ، ولذلك اتخذوا احتياطات قـــوية(١) جدا كى لا تعرف أغراضهم الحقيقية · والمهم فى هذه

---

(١) من ضمن هذه الاحتياطات أن بيترز نفسه من وقت وجوده في برلين بدا يستعمل أسماء خلافاسمه الحقيقى فيبرلين سمىنفسه كيرمان Kirmann وفي النمسا تسمى باسم مستر فرد هانتر Mr. Fred Hunter وفي المركب سمى نفسه Mr. Bowmank وفي عدن اتخذ اسم كومان Caumann

الحملة أن الحكومة الالمانية رفضت أن تعترف بها رسميا ، أو تقدم لها أية معونة ـ اما لانهـــا غير مهتمة بالاستعمار ، أو امعانا فى التضـليل ، فالقنصـل الالمـانى فى زنجبـار صرح لبيترز بأنه لا يستطيع أن يعتمد على أية حماية من جانب الحكومة الالمانية . فاستند بيترز الى معاونة الشركات التجارية التى كانت مؤسسة هناك ، وهذه أمدته بمستلزمات الرحلة . وفى ١٠ من نوفمبر سنة ١٨٨٤ هبـط بيترز ورفاقه السـاحل الافريقى ، واختفوا فى الداخل . وتنسب الى بيترز بعض التصرفات التى تدلنا على طرق الاوروبيين فى الاستيلاء على هذه الاراضى . ففى جميع الادعاءات التى ادعاها الاوروبيون عن تنازل الحكام الوطنيين عن ممتلكاتهم كانوا يقدمون وثائق معاهدات بموجبهـا تنازل الحاكم عن أرض للكاشف أو للتاجر .

وظاهريا وجدت حملة بيترز جميع الحكام فى المنطقة التى ارتادتها مسالمين ، ومستعدين للتنازل عن أراضيهم ، حتى أنه بعد ثلاثة أشهر فقط قضتها الحملة فى الداخل عادت ومعها أكثر من عشر معاهدات تنازل أصحابهـا عن مساحات واسعة فى داخل القارة . وقد وصف بيترز بعد عودته الى ألمانيا بعض الطرق التى استخدمت فى الحصول على هذه المعاهدات ، وفيما يلى نموذج لها :

أولا ـ قبل الوصـول الى قرية الرئيس أو الحاكم يرسل بيترز رسولا ومعه هدايا ، ويطلب من الحاكم السماح لهم باقامة معسكر فى القرية .

ثانيا ـ عند وصولهم الى القرية يرسل بيترز دعوة الى الحاكم لتناول الطعام معه .

ثالثا ـ فى أثناء الطعام يتخم الحاكم بالاكل والمشروبات ، وبعد نهاية الطعام يعطى هدايا أخرى .

رابعا ـ بعد ذلك يسأله بيترز عمـــا إذا كان لديه مانع من توقيع وثيقة تسجل الصـداقة بينه وبين الامبراطورية الالمانية ، وطبعا لا يستطيع الحاكم أن يرفض فى مثل هذا الظرف ، فيقــوم أحد المرافقين لبيترز ويقرأ نص الوثيقة باللغة الالمانية ، فلا يفهمها الحاكم ، ثم يوقع عليها . وبهذه الطريقة تبسـط ألمانيا حمايتها على ممتلكاته . ثم يصافح بيترز فريسته بحرارة ، ويرفع العلم الالمانى على المعســكر ، ويطلق النــار لتحيتــه ، ويتبع ذلك مشروب آخــر وأحيانا زيادة فى تثبيت الصداقة يتناول بيترز والحاكم حمــاما مشتركا . ثم تنتقل الحملة لتكرر العملية نفسها فى جهة أخرى . وكان يكتب فى الوثيقة أن الحاكم متنازل لبيترز ، ممثل الجمعية الالمانية للاستعمار ، عن هذه الاراضى ليملكها الى الابد ، وليعمل فيها كما يشـاء ، وله الحق المطلق فى اســتغلال التربة السطحية والباطنيةوالغابات ، وفى ادخال المســتعمرين ، وفى ادخــال نظم ادارية وقضائية وفرض ضرائب واقامة جمرك وغير ذلك، فالحقوق التى تكتسبها الشركة واضحة . أما عن الواجبات التى تقــدمها فى نظير هذه الحقوق ، فتكون فى غاية الغموض . فيقــال ان على الشركة أن تحترم ملكية الحاكم لجزء خاص ، وأن تدفع له ايجارا فى شكل ماشية او سلع تجارية ، يحدد مقدارها أو ثمنها مقدما وشفويا . وفى الحق ان صراحة الدكتور بيترز فى نشر هذه الوقائع تعتبر صراحة من النوع القاسى على المستعمرين ، ولا بد من أن هذه الطريقة هى التى كانت متبعة فى بقية الجهات . ولا غرو فى ذلك ، ففى الكونغو البلجيكى صرح أحد القناصل الانجليز فى الوقت نفسه ، ان أية دولة أوروبيــة تستطيع امتلاك أى جزء فى افريقيــة بالقماش ، وان منها ما استولت على جزء من القارة فى نظير ثوب أحمر مطرز وكاسكتة وأربعين فانلة وأربعين طاقية بيضاء (١) .

نجح بيترز بهذه الوسيلة فى الحصــول على عــدد كبير من

---

1. Woolf, Leonard ; Empire and Commerce in Africa. New York, 120 ; pp. 228-239.

المعاهدات خلال ثلاثة الشهور التي قضاها في الداخل . ثم توجه الى برلين ووصلها في فبراير سنة ١٨٨٥ . وبعد أيام من وصوله منحت الحكومة الالمانية شركة الاستعمار الافريقي مرسوما بتأسيسها . وفي ٦ من مارس أخطرت الدول الموقعة على اتفاقية برلين سنة ١٨٨٤ أن الشركة الالمانية قد حصلت على أراض وحقوق سيادة في بعض الممتلكات التابعة لمملكة زنجبار ، وأنها التمست من امبراطور المانيا منحها مرسوما وانتكفل بحمايتها . والمهم في ذلك — أنه حسب اتفاقية برلين — أن اية دولة تعقد معاهدات مع حكام محليين وتخطر الدول الاخرى بها معناه اعلان الحماية على هذا الاقليم ، فعملية الاخطار نفسها كان معناها اعلان الحماية الالمانية على هذه الاجزاء من افريقية . وطبعا أحدث الاخطار جزعا في لندن وفي زنجبار نفسها ، فسلطان زنجبار كان يدعي سيادته على هذه الاراضي . وفي ٢٧ من أبريل أرسل الى امبراطور ألمانيا احتجاجا على وضع جزء من أراضيه تحت الحكم والسيادة الالمانية ، وذكر في احتجاجه أن زنجبار كان لها حاميات عسكرية هناك ، وأن رؤساء القبائل الذين وقعوا المعاهدات مع رسل الشركة لم تكن لهم السلطة في توقيع هذه المعاهدات . وكان الرد الالماني قصيرا وبسيطا ، فقد كلف القنصل الالماني في زنجبار بأن يخطر السلطان بأن الاحتجاج والحقوق التي نسبها لنفسه لم يكن لها أي أساس . وبعد ذلك بقليل في ١٢ من يونية كرر السلطان احتجاجه في خطاب الى بسمارك ، وعرض عليه تأليف لجنة للتحكيم في المسألة، وأن تتكون اللجنة من فرنسا وانجلترا . وكان الرد عليه أيضا بسيطا ، اذ جاء فيه أن ما استولت عليه المانيا كان مستقلا عن زنجبار ، وأشير في الرد الى المعاهدات المختلفة التي تم ابرامها مع الحكام المحليين .

أما من ناحية الألمان ، فقد كانوا يدركون أن الخطر الحقيقي ليس في زنجبار ، بل في لندن . فالعملية السياسية هنا من نوع

دقيق جدا من الناحية الاستعمارية . ففي ٦ من مارس سنة ١٨٨٥ اخطر سفير المانيا فى لندن اللورد جرانفيل بالحماية الالمانية وبالامتيازات التى حصلت عليها الشركة . وكان الرد الانجليزى سريعا بالنسبة للظروف ، لأن هذه الاشياء كانت تأخذ عدةأشهر . وكان للرد مغزى كبير جدا ، ففى ٢٥ من مايو سنة ١٨٨٥ أرسل جرانفل الرد ، وأشار فيه الى احتجاج سلطان زنجبار ، وأخطر الحكومة الالمانية أن حكومة بريطانيا مقتنعة بأنه ليس فى نية المانيا الاعتداء على استقلال زنجبار ، على أنه يوجد بعض الغموض فيما يتعلق باتساع ممتلكات السلطان فى القارة الافريقية . وأن الحكومة البريطانية لا تمانع فى استعمار المانيا لبعض هذه الاجزاء ، « ولكن هناك مشروع يقوم به بعض كبار الراسماليين البريطانيين لاستعمار الجزء الواقع بين الساحل الشرقى والبحيرات التى تعتبر منابع نهر النيل، والتى ترغب بريطانيا فى ربطها بالساحل بخط حديدى، فلكى تتجنب الدولتان تضارب مصالح المانيا بمصالح الرأسماليين البريطانيين ، يقترح اللورد جرانفيل تعيين الحدود بينهما » .

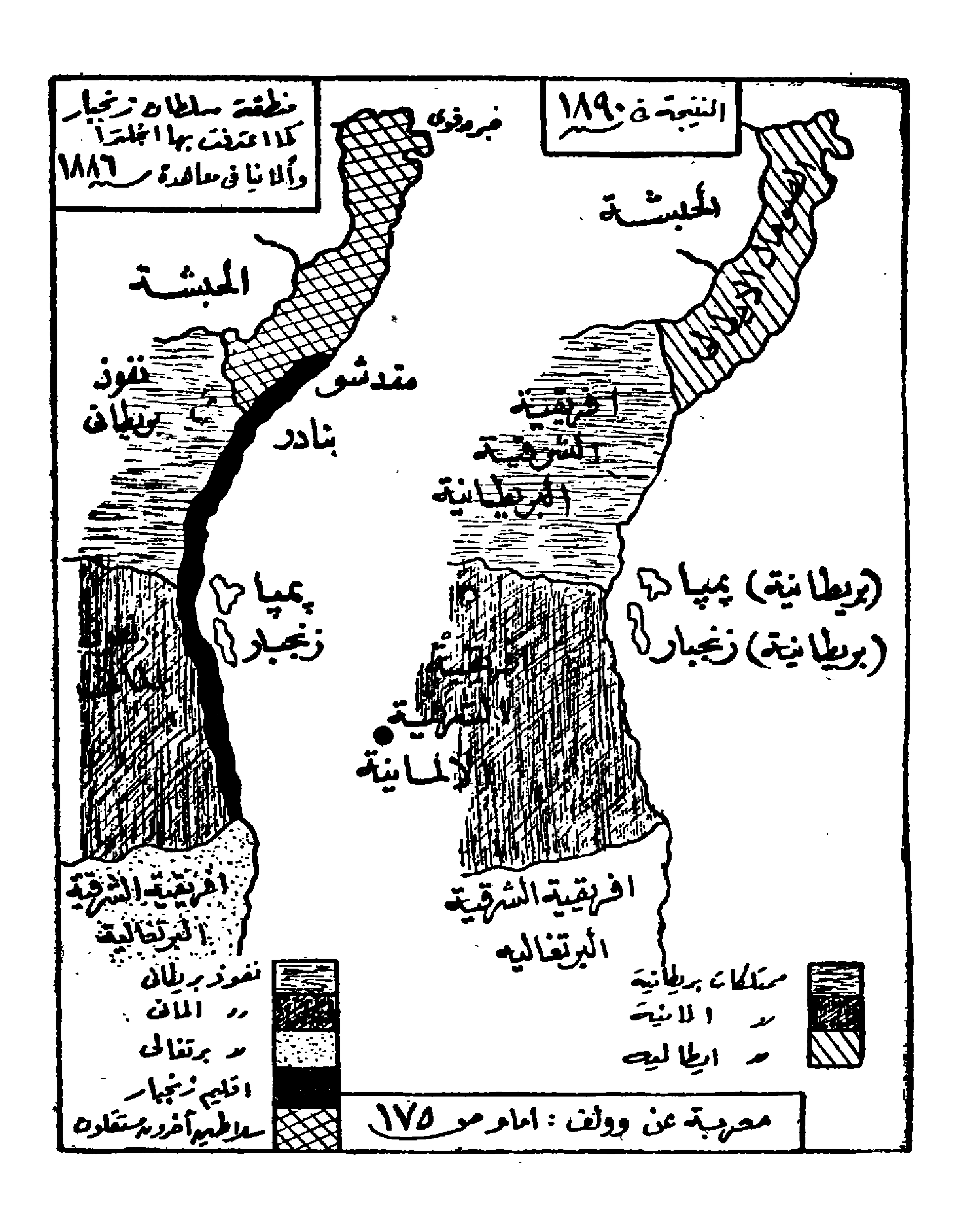
هذا الرد معناه أن انجلترا رحبت بأخذ المانيا جزءا ، وانها هى الاخرى ستأخذ جزءا آخر . ووافقت المانيا على الاقتراح الانجليزى ، كما أنها أبدت استعدادها للانضمام الى اتفاقية كانت قد عقدت سنة ١٨٦٢ بين فرنسا وانجلترا لضمان استقلال زنجبار ، ووافقت على تعيين لجنة محايدة لتحديد ممتلكات السلطان ، ولتحديد الاراضى الالمانية والبريطانية فى الوقت نفسه .

من هذا نرى أن الحكومة البريطانية اتبعت الاساليب الاستعمارية التى كانت تعترض أحيانا عليها اذا قامت بها دولة أخرى . واللورد جرانفيل اذ أشار الى جماعة الرأسماليين البريطانيين فى رده ، كان يقصد الجمعية التى كانت قد الفت فى لندن عقب سماع أخبار الحملة الالمانية ، وكانت تسمى British East African Association والتى تحولت ــ بعدقليل من

انشـــــائها ــ الى شركة مســـــاهمة تحت اســم Imperial British East Africa Company وكما أن الحكومة الالمانية أعطت شركتها هذه الاراضى الواسعة لاستغلالها ، فقد فعلت الحكومة البريطانية الشيء نفسه .

واستمرت الشركة الالمانيــة تعضــدها حكومتها فى تحقيق رسالتها الاستعمارية دون أية مواربة . ولكنها فشلت ماديا بالرغم من دقة النظام والقسوة التى استعملت ، وانتهت حياتها كشركة سنة ١٨٩٠ ؛ اذ استولت عليها الحكومة .

اما الجانب البريطانى فلا نلاحظ فى اغراضه الصراحة التى لمسناها فى الجانب الالمانى ، فمع أن وضع الشركة يجعلها شركة تجارية ، فان الانجليز أعلنوا عن أهداف بعيدة عن معنى الاستغلال الاستعمارى ، أهداف قد تنبعث من الوازع الدينى او الانسانى ، وأبعد ماتكون عن شراء السلع من أرخص الاسواق لبيعها فى أغلى الاسواق ، وهى اغراض الشركات التجارية . فهؤلاء التجار ، اذا صحت التســمية ، ضموا الى بريطانيــا أراضى واســعة من أفضل الاراضى الافريقية . ولكن النتيجة كانت خســـارة مادية للشركة وسفك كميات كبيرة من دماء الافريقيين . ونلاحظ ان الانجليز دائما فى تأليف شركاتهم الاستعمارية يحاولون أن يكون من بين أفرادها ماليون لتمويلها ، وعدد من الارستقراطيين ليكســبوها رونقا واهمية ، وعدد من العسكريين ، وعدد من الذين لهم خبرة استعمارية . وتعطينا معرفة الرؤساء المهيمنين على هذه الشركة فكرة عن نوع العمل وطبيعة الاستعمار ، فكان من هؤلاء الرؤساء سير وليم ماكينون ، وكان رئيس هذه الشركة الجــديدة ، وظل كذلك حتى مات ســـنة ١٨٩٣ . وهــو الذى وضع الخطــوط الرئيسية لســياسة الشركة فى السنوات الاولى من تأسيسها . وكان معه من المديرين اثنــان من اللوردات وفارسان ومارشـــال وثلاثة جنرالات . والأغرب من هذا كله أنه كان معه سير توماس


منطقة سلطان زنجبار
كما اعترفت بها انجلترا
وألمانيا في معاهدة سنة ١٨٨٦
جردفوي
الحبشة
مقدشو
بنادر
نفوذ بريطاني
بمبا
زنجبار
افريقية الشرقية البرتغالية
نفوذ بريطاني
" الماني
" برتغالي
اقليم زنجبار
سلاطين أفريقية مستقلة
النتيجة في ١٨٩٠
الحبشة
افريقية الشرقية البريطانية
(بريطانية) بمبا
(بريطانية) زنجبار
افريقية الشرقية الالمانية
افريقية الشرقية البرتغالية
ممتلكات بريطانية
" ألمانية
" ايطالية
مصورة عن وولف : امام ص ١٧٥

باكستون Sir Thomas Fowell Buxton وهذا كان وكيل جمعية التبشير المسماه Church Missionary Society. وعلى العموم كان الموقف يتلخص فى منتصف سنة ١٨٨٥ فيما يأتى :

أولا — أن المانيا اعلنت حمايتها على جزء من شرق افريقية ومنحت مرسوما بتأسيس الشركة .

ثانيـا — أن زنجبار نادت بملكيتها لهـذه الارض ، واحتج سلطانها .

ثالثا — فى خلال شهر من الخطوة التى اتخذتها المانيا كون الراسماليون البريطانيون جمعية ، اعترفت الحكومة البريطانيـة بأغراضها ، وأخطرت المانيا بوجودها ، وبأن لبريطانيا مصالح فى الجزء الواقع شمال المنطقة الالمانية .

رابعا — كانت طبيعة المصالح البريطانية غامضة ، ولكن بما أن الاراضى تقع بين الساحل والبحيرات ، فكان لابد من تبعيتها الى سلطات زنجبار أيضا .

خامسا — اقترحت الحكومة البريطانية تأليف لجنة لتعيين الحدود بين الاراضى الالمانية والبريطانية ، ومعنى هذا فى الواقع تقسيم شرق افريقية بين الدولتين .

وما حدث بعد ذلك يسير جدا ، ففى أكتوبر عينت اللجنة وفى ٩ من يونية سنة ١٨٨٦ وضعت تقريرها . وهـذا التقـرير سيثير الاهتمام ، اذ ورد فيه باجماع الآراء أن للسلطان حقـوق سيادة لا تنكر على جزيرتى زنجبار وبمبا Pemba ، وكذلك على اجزاء ساحلية من افريقية تمتد عشرة أميال من الساحل فيمـا بين افريقية الشرقية البرتغالية من الجنوب ومقدشو من الشمال. وتلا ذلك تبـادل مذكرات بين المانيـا وبريطانيـا انتهت بتوقيع معاهدة ٢٩ من اكتوبر — ١ من نوفمبر سنة ١٨٨٦ ، التى اتفق فيها على

الاعتراف بتوصيات اللجنة التيأعطت السلطان حقا فىالجزيرتين والعشرة أميـال • ثم قسمت الاراضى الداخليـة الى منطقتى نفوذ : الشمالية بريطانية والجنوبية المانية (١) . وتعهدت بريطانيا بأن تؤيد المانيا فى مفاوضتها مع السـلطان كى يؤجر للشركة الالمانية جمارك الموانى الهامة ، وخصوصا دار السلام ، فىنظير مبلغسنوى يدفع له ، مع أن السلطان لم يخطر بذلك كله . فبريطانيا فى ٣ من ديسمبر ١٨٨٦ أبلغت الاتفاقية للسلطان ، راجية منه أنيدرك الروح الودية التى ادت الى الوصول الى هذه الاتفـاقية ، وأن استعداده للتمسك بشروطها. سيساعد على حل المشاكل التى قد تعرض مصالح السلطنة للخطر ، حلا مرضيا . وورد فىخطاب هولمود Holmwood قنصل بريطانيا فى زنجبار المؤرخ فى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٦ ، والموجه الى السلطان يبلغه فيه الاتفاقية ، ماياتى : « ان حكومة جلالة الملكة تثق فى تقـدير سـموكم للروح الودية ، التى أدت الى هذه الاتفاقية ، وان استعدادكمللتمسك بشروطها ، سوف يساعد على حل المشاكل التى قد تعرض مصالح السلطنة للخطر ، حلا مرضيا » (٢) .

ومعنى ذلك الاتفاق على تقسـيم أمـلاك السـلطان بروح الصداقة ، كما طلب منه الموافقة على الاتفاقية بالتهديد . فروح المودة والتهديد اديا الى النتيجة المطلوبة ، اذ وافق السلطان بعد ٢٤ ساعة على كل ما طلب منه ، وذلك بمقتضى خطابه المؤرخ ، فى ٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٦ الى هولمود قنصل بريطانيا (٣) .

والمهم فيما سبق أن انجلترا والمانيا حصلتا منالسلطان على موافقـة على تقسـيم مملكته فى افريقيـة ، فيمـا عدا المنطقـة الساحلية التى اعترفت لجنـة الحدود بأن للسلطان سـيادة عليهـا

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty. Third Edition, London 1909, vol. 3, p. 882.
2. Ibid., vol. 1, p. 306.
3. Ibid., vol. 1, pp. 306-308.

الى مدى عشرة اميال الى الداخل . ولكن تبعت هذه الاتفاقية اتفاقيتان اخريان بين بريطانيا والسلطان للحصول على امتيازات فى المنطقة الساحلية نفسها . أولى هاتين الاتفاقيتين كانت فى ٣١ من اغسطس سنة ١٨٨٩ (١) ، والثانية كانت فى ١٤ من يونيه سنة ١٨٩٠ (٢) . والمهم أن الدولتين أخذتا ما يوازى جميع حقوق السيادة فى هذه المنطقة ايضا من استثمار أراض ومد طرق مواصلات وفرض ضرائب . واستأجرتا منه الجمارك . وفى نظير كل هذه الامتيازات حصل السلطان على سهم من أسهم كل شركة تؤسس ، وكان هذا السهم يخول له أخذ ١٠٪ من صافى أرباح الشركة ، بعد دفع نصيب الاسهم العادية للمساهمين بواقع ٨٪ . كما اتفق على اعطاء السلطان مبلغا سنويا يعادل ايراد الجمارك . هذا هو نصيبه نظير كل هذه الامتيازات. وقد اتضح ان النصيب الاول كان وهميا بحتا لان الشركات لم تستطع مطلقا أن تدفع أرباحا تعادل ٨٪ للمساهمين العاديين . وبذلك لم يبق للسلطان اى فائض . ولم يتناول من الشركتين أو من الحكومتين الانجليزية والالمانية الا رسوم الجمارك (٣) .

ومن المهم ان نلاحظ ان الدول الاوروبية ، ومنها بريطانيا والمانيا ، اتبعت فى بقية اجزاء افريقية نظرية سياسية تقضى بأن الدولة التى لها سيادة على منطقة ساحلية تصبح ذات سيادة ايضا على ظهر هذه المنطقة فى الداخل Hinterland Theory. بناء على هذه القاعدة كان يجب الاعتراف بسيادة السلطان على المناطق الداخلية التى اضطر الى التنازل عنها ، لان له سيادة فعلية على السواحل التى تعتبر منفذا لهذه الاجزاء . ولكن بدلا من أن تفعل المانيا وبريطانيا ذلك ، نجد انهما قسمتا المنطقة

1. Ibid., pp. 359-361.
2. Ibid., pp. 308-309.
3. Woolf, Leonard ; Empire and Commerce in Africa. New York, 1920, pp. 240 - 246.

الداخلية الى منطقتي نفوذ . ولم يكن لادعائهما أية صفة شرعية ، فكان عملهما فى الواقع سرقة دولية . ثم انهما لم تكتفيا بذلك لان الساحل ضرورى لهما ، ويستطيع السلطان اذا تركت له المنطقة الساحلية ان يخنق هذه المستعمرات بأن يقيم حواجز جمركية مثلا أو يفرض رسوما لعبور منطقته . ولهذا السبب اضطروه ايضا الى اعطائهم الامتيــازات التى ذكرناها . والخلاصــة ان السلطان وقع الاتفاقيتين اللتين جــردتاه من المنطقة الســاحلية ايضا ، ولم تبق له من مملكته سوى زنجبار وبمبا وبعض جزر صغيرة اخرى .

اخلاء أعالى النيل من المصريين :

بينما كان البريطانيون والالمان يحاولون تسوية مشاكلهم فى ساحل افريقية الشرقى وفى الداخل ، كانت هناك مشكلة جديدة اثارتها الاخبار التى وصلت الى أوروبا فى ســنة ١٨٨٦ بأن أمين باشا ، الحاكم المصرى للمنطقة الاستوائية ، يطلب النجدة لحرج مركزه ، وانه لا بد من التعجيل بارسال حملة فى الحال لانقاذه . والذى دبر هذه الأخبار هو جون كيرك ، قنصل بريطانيا فى زنجبار ، اذ أوعز الى جونكر ه الرحالة الألمانى بأن يرسل برقية فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٨٦ الى أوروبا بهذا المعنى . وكما عرفنا سابقا اقتسمت المانيا وانجلترا فى ذلك الوقت ساحل افريقية الشرقى ، تمهيدا لان تتوغل كل منهما فى قلب افريقية ، وتنفذ سياستها الاستعمارية . وكانت كل منهما تفكر بالطبع فى الاستيلاء على أعالى النيل أو مديرية خط الاستواء ، التى كان يحكمها باســم مصر المانى ، هو امين باشا . كما أن الملك ليوبولد كان يطمع أيضا فى الاستيلاء على هذا الجزء الجنوبى من السودان . وقد لاحظنــا ســابقا أنه كان يأمل ذلك عن طريق جوردون ، وبناء على هـــذا كانت هناك مصلحة فى انقاذ أمين ! وكانت انجلترا بطبيعة الحال أسبق الى «انقاذه» !

اهتمت الدوائر البريطانية الاستعمارية بهذا الموضوع ، وألف السير وليم ماكينون رئيس الجمعية البريطانية لشرق افريقية ، لجنة لجمع الاموال للشروع فى تكوين حملة النجدة . ولم يكن الغرض من ارسال هذه الحملة الحصول على مأرب سياسى فحسب ، بل على مأرب تجارى أيضا ، لانه كان من المعلوم فى انجلترا أن أمين باشا كدس فى وادلاى كمية كبيرة من العاج ، وأن فى امكان الحمالين الذين يستخدمون فى نقل المواد اللازمة لأمين أن يتولوا احضار تلك الكمية . وكانوا يقدرون أن هذا العاج عندما يباع يغطى ثمنه نفقات الحملة ، بل ربما تبقى بعد ذلك ربح . وهكذا يصاد عصفوران بحجر واحد . وحادث ماكينون ستانلى فى المشروع والمبلغ اللازم لتنفيذه . وللصلة التى كانت بين ليوبولد ملك البلجيك وستانلى الذى عمل معه مدة طويلة ، وللصلة التى كانت أيضا بين ليوبولد وماكينون ، الذى كان فى سنة ١٨٧٨ أحد الافراد القلائل الذين ساهموا فى جمعية ليوبولد للدراسات فى أعالى الكونغو Comité d'Etudes du Haut-Congo لهذه الصلة بين ليوبولد وستانلى وماكينون وجد ليوبولد باب أمل جديد لتحقيق أطماعه فى الاستيلاء على أعالى النيل ، فانضم الى لجنة الانقاذ ، وعلى ذلك كانت نجدة أمين باشا من عمل هؤلاء الرجال الثلاثة : ماكينون وستانلى وليوبولد . ولقد جمع ماكينون وقبيلته ، كما كان يقول ستانلى ، مبلغ ١١٫٥٠٠ جنيه للحملة ، وأضافت الحكومة المصرية الى هذا المبلغ عشرة آلاف جنيه . وانه لغريب أمر تلك الحكومة القصيرة النظر التى تنفق أموالها فى سبيل ترك أرضها وجنودها لغيرها .

وكان من الواضح أن أمين لم تكن لديه النية فى التخلى عن المنطقة التى مكث فيها مدة طويلة . ففى خطابه الى صديقه المبشر فيلكن Felkin قال انه فى أمن وطمأنينة ، وان المديريات كلها هادئة ، وانه سوف لا يرحل ولا يريد من انجلترا الا أن تمده

بما يحتاجه من المئونة وبخاصة الذخيرة ، وأن تقرب التفاهم مع ملك أوغنده وتفتح طريقا آمنا الى الساحل . وكانت الحكومة المصرية معبرة عن آراء السير افلن بارنج ، ووزارة الخارجية البريطانية تريد من آمين باشا أن يترك المنطقة ، اذ كان وجوده في وسط افريقية يتطلب مسئوليات غير مرغوب فيها . وكان هذا ما أثار اهتمام ليوبولد وصديقه ماكينون . وكانت فكرتهما الأصلية أنه لو عزز أمين باشا مركزه فانه يمكنه أن يجعل من منطقته نهاية للطرق التى تفتح من دولة الكونغو من ناحية ومن الساحل الشرقى من الناحية الاخرى . وبعد مناقشة رضخت لجنة النجدة الى ليوبولد ، الذى أصر على أن تسير الحملة عبر الكونغو لنجدة أمين ، ومن ثم ترجع عن طريق افريقية الشرقية الى الساحل . ولقد عقد كل من استانلى وماكينون مؤتمرا مع ليوبولد فى بروكسل قبل الذهاب الى مصر وزنجبار . وعندما رحل ستانلى الى القاهرة فى يناير سنة ١٨٨٧ ، ذهب بصفته الوكيل المأجور لليوبولد ، كما أنه ذهب بصفته رئيس لجنة النجدة .

وفى القاهرة استلم ستانلى من الحكومة المصرية خطابات لأمين باشا ، تطلب اليه فيها أن يأتى هو ورجاله ، ومبينة أنه اذا أصر على البقاء ، فانه سوف يتحمل وزر هذا وحده . ولقد كانت الطريق مفتوحة لتحقيق الخطة المزدوجة التى أعدت فى بروكسل ، فذهب ستانلى الى زنجبار ليجمع بعض الحمالين وينفذ بعض المعاملات المالية الخاصة باتباعه . وأقنع السلطان بمنح عقد الايجار الذى كان يريده ماكينون . وقد حاول الحصول على استئجار الممتلكات الداخلية لسلطان زنجبار . وكان يعد خطة لعمل خط حديدى من مونباسة الى بحيرة فكتوريا ، وكانت جمعية شرق افريقية ، التى كانت تحت رياسته ، تأمل فى الاستيلاء على المنطقة كلها من الساحل الى البحيرات العظيمة والنيل . وعلى العموم بمنح عقد الايجار المشار اليه حصلت رابطة شرق افريقية

فى سنة ١٨٨٨ من الحكومة البريطانية على مرسوم باسم «شركة شرق افريقية الانجليزية الامبراطورية» .

وعندما قابل ستانلي ــ بعد تجارب متعبة ــ أمين باشا على شاطىء بحيرة البرت فى مايو سنة ١٨٨٨ كان لديه قليل من النجدة له ، فالمؤن كانت مع الطابور الخلفى الذى تركه وراءه . وكان ستانلى فى حاجة الى نجدة أكثر من أمين باشا ، الذى كان فى الواقع يبدو فى حالة رخاء وقناعة . ولقد أطلع ستانلى أمين باشا على خطابات الحكومة المصرية ، وحثه على ترك المنطقة . واذا كان قد حثه على ذلك ، فيمكن أن نعلل هذا فقط بأن ستانلى قد اقنع نفسه بأن الطريق داخل الغابات الكبيرة فى أعالى حوض الكونغو لا يمكن اختراقها ، وانه من الصعب توصيل امدادات الى الباشا . وعلى أى حال فان رد أمين باشا زاد الموقف حرجا ، اذ أصر على الانسحاب اذا رغب رجاله ذلك ، والا فلا . وهنا عرض عليه ستانلى عرضين ، (الاول) وهو عرض ليوبولد أن يبقى امين باشا فى المنطقة كمدير فى خدمة دولة الكونغو . ولقد قال ستانلى ان هذا العرض مشروط بأن يجعل أمين هذه المنطقة تدفع اموالا . ولكن لا يوجد فى مذكرة أمين باشا مايدل على ذلك . وعلى العموم فان هذا العرض لم يرق فى نظر امين . ويبدو أن ستانلى لم يلح عليه . وكانت وجهة نظره فى هذا الوقت غير واضحة . وكان يبدو أنه أقل حماسة فى خدمة سيده البلجيكى عنه فى خدمة قبيلة ماكينون . ونعرف من رسائل امين أنه حتى مستر فلكن ، الذى لم يكن أصلا يعضد جمعية شرق افريقية قد اتجه هذا الاتجاه ، اذ ظل يكتب لأمين باشا من أوروبا حاثا اياه أن يبقى فى المنطقة ويعمل كنائب للجمعية البريطانية . وفى الحقيقة فانه ذهب الى حد أنه كان يفرض نفسه كوكيل لامين ، وأن يعقد اتفاقا مع الشركة الجديدة بوساطته يسلم أمين باشا المنطقة الاستوائية ، ويعمل فى خدمة الشركة كمدير . ويبدو هذا الضغط واضحا فى العرض (الثانى) الذى

بموجبه يأخذ أمين رجاله ويذهب الى الشمال الغربى لساحل بحيرة فكتوريا ، ويبنى هناك مراكز ، وينتظر قوات الشركة التى تصل اليه من الساحل ، ولقد راق العرض الثانى فى نظر أمين اكثر من الاول ولو أنه كان يشعر بأن المسألة ما هى الا مجرد مشروع لتجار وسياسيين بريطانيين ، فلم يستقر على رأى نهائى فى ذلك الوقت ، وذهب ليستشير رجاله . وفى أثناء ذلك رجع ستانلى ليحضر الطابور الخلفى من رجاله . ولم يتقابل الرجلان حتى فبراير سنة ١٨٨٩ . وفى ذلك الوقت كانت الاوضاع قد قلبت رأسا على عقب ، اذ ثارت قوات أمين واسر هو بعض الوقت . ومن ناحية أخرى كان لدى ستانلى ذخيرة وامدادات أكثر من ذى قبل . وكان فى مركز يسمح له بأن يقوم بالنجدة ، ولكن « أمين » لم يعد فى مركز ليستفيد منها . واضطرت الظروف الحاكم أمين أن يقبل دعوة ستانلى ليرحل الى الساحل . ولقد فسدت الخطة كلها فلم يستطع أمين البقاء والاحتفاظ بالمنطقة لليوبولد أو ماكينون . ولم يستطع أن يثبت مركزه على بحيرة فكتوريا ، تلك المنطقة التى كان من الممكن أن يستعد منها للاستيلاء على أوغنده واونيورو للشركة لو أن الظروف مكنته من ذلك . ولم يكن أمام ستانلى الا أن يستفيد من هذا الظرف . ففى طريقه الى الساحل عقد معاهدات مع رؤساء كثيرين فى المنطقة بين بحيرة ألبرت وادوارد وفكتوريا . ومن الواضح أنه كان من المأمول أن امين باشا سوف يقتنع بأن يدخل فى خدمة الشركة . وقدمت له عروض بوساطة ماكيى Mackay المبشر المشهور ، وقررت هذه العروض عندما وصل الجميع الى بجميو Bagamoyo على الساحل . ولو رجع امين بقوات وامدادات كافية لكان من الممكن أن يكون وكيلا ذا قيمة كبيرة .

وكانت النتيجة الهامة لمسألة بعثة النجدة هى ترك المنطقة الاستوائية مشاعة ، ولقد شعرت قبيلة ماكينون بخيبة أمل كبيرة

عندما ترك المنطقة . وكتب فلكن لأمين في أول نوفمبر سنة ١٨٨٩، قائلا انه يأمل أن تكون أخبار انسحابه مع ستانلى غير صحيحة « مهما كانت رغبتنا في أن نراك » وأن تدرك مقدار هذه الرغبة ، الا انه يبدو أن الرأى العام هو أنك تبقى سنة أخرى أو أكثر قبل حضورك ، حتى تترك المنطقة منظمة تنظيما سليما » (١) .

والحقيقة التى يجب أن نقررها هى أن الحملة كانت ترمى الى مقصد سياسى ، الا وهو ابتلاع منطقة اعالى النيل ، واعطاؤها للحكومة البريطانية .

كارل بيترز وخططه والاتفاق الانجليزى الالمانى فى أول يولية سنة ١٨٩٠ :

لو كانت منطقة أعالى النيل قد وقعت في أيدى الدراويش لما اختلفت حالتها عن بقية السودان . وكان الخطر ينشأ من أنه ربما تهدد دولة أوروبية لتحصل على مركز هناك . ولقد حذر فلكن أمين باشا مرارا من مؤامرات الالمان . ولهذا أسباب وجيهة لأن كارل بيترز والمستعمرين الالمان كانوا ينظرون الى الحملة البريطانية بالريبة وعدم الثقة . وفى سنة ١٨٨٨ نظموا نجدة منهم لم تنل أى تعضيد أو استحسان من الحكومة الالمانية . ولكن كان من الممكن أن تخلق موقفا مثل موقف ١٨٨٤/١٨٨٥ . ولم يحاول بيترز فى كتبه اخفاء أغراضه . ولما كان يعتقد أن أمين باشا لايزال في المنطقة الاستوائية، فانه كان يأمل أن يصله قبل وصول ستانلى ، ويدخله فى خدمة الالمان ، ويقنعه بأن يمد سلطانه الى بحيرة فكتوريا والى المستعمرة الالمانية جنوبا . وبهذا يقطع صلة البريطانيين بالداخل ، بينما يمد نفوذ الالمان الى النيل ، « ولم تكن الحملة الالمانية لامين باشا رحلة للنزهة ولكنها كانت مشروعا استعماريا سياسيا ضخما » .

وكانت خطة بيترز على وشك النجاح . فبعدما أفاق أمين من

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902, New-York, 1951. pp. 114-116.

كبوته فى بجميو دخل فى خدمة الشركة الالمانية ، وأعلن أن المنطقة الاستوائية منطقته ، وأنه سوف يعطيها لالمانيا ، ورحل عن طريق شرقأفريقية الالمانيليستعيد مركزه٠وكان المعروف أنهقتل بواسطة العرب، في حين هويشق طريقه فى منطقةالبحيرات فى سنة ١٨٩١٠ وفىالوقتنفسه ذهببيترز شمالاازاء الساحل حتى نهر تانا Tana وبعد أن تجنب الحصار وصل الى المناطق الداخلية ٠ وقبل مارس سنة ١٨٩٠ كان قد وصل الى أوغندة وعقد معاهدة حماية مع الملك٠ ووصلت حملة أرسلتها شركة شرق افريقية البريطانية الى أوغنده بعد ذلك بشهر ٠

كان السباق من أجل أوغندة وتهديد بيترز بأن يقطع السبل على الانجليز فى الداخل وفى أعالى النيل قد أحدث أثرا كبيرا فى انجلترا٠ ففى ٣ من أبريل لفتتجريدة التيمس الانظارالى خطروجود الالمان على النيل ٠ وكانت الحكومة نفسها قلقة ، وبذلت مجهودات متكررة فى ربيع سنة ١٨٩٠ لاجل الاتفاق مع السلطات فى برلين٠ وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك ادعاءات متضاربة تجعل الوصول الى حل وسط شيئا بعيد الاحتمال ، ولذلك حث سولسبرى الجمعية البريطانية (التى صدر مرسوم بها فى سنة ١٨٨٨ باسم الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق افريقية) بأن ترسل جنودا أكثر الى أوغندة ٠ وكما يقول ستانلى « لقد نصحت الشركة وأوعز اليها وحثت » ولكن لم تعط الشركة أية معونة مادية ، مما دعا الى شكاوى مرة فى ذلك الوقت واتهامات مريرة بعد ذلك ٠

وكان يبدو واضحا أن سولسبرى كان لا يرغب فى أن يفعل الكثير من أجل الشركة ، ربما يكون ذلك لانه كان يعتقد أن الشركة كانت تعمل لمصلحتها ، كما فعلت فعلا ، وبذلك كانت توفر نقود الدولة ٠ ولكن كان هناك مظهر هام للمشكلة ٠ ولم يكن رئيس الوزراء يناضل مع ماكينون وقبيلته فقط ، ولكن مع فريق منظم

آخر ، وهو الشركة البريطانية لجنوب أفريقيــة التي منحت مرسوما في خريف ســنة ١٨٨٩ بأن تستولى على المنطقــة التى تعرف الآن بروديسيا ، وكان هذا الفريق الذى يتزعمه سيسل رودس يحتضن الفكرةالتى عرفت فيمابعدبخط حديدالكاب ــ القاهرة ، والتيكانت ترمي الى ربط المنــاطق البريطانيــة في جنوب أفريقية بالممتلــكات الجديدة في أواسط أفريقيــة ومصر ٠ وكان يبــدو أن هذه الفــكرة اقترحت في بادىء الامر في سنة ١٨٧٦ في كتيب كتبه سير ادون أرنولد Edwin Arnold. وفي الســـنة التي تلتهـــا بالذات أدرك جلادستون مرمى هذه الفــكرة ، عندما أراد أن يتخذ خطوة حاسمة تجاه مصر .

« وموقعنا الاول في مصر سوف يكون كنواة لامبراطورية في شمال افريقية ، سوف تنمو وتنمو ٠٠ حتى ترتبط في النهاية عبر خطالاستواء بناتال وكيبتون، ولا داعي أن نذكر شيئا عن ترانسفال ونهر الاورنج فيالجنوب ، أو عنالحبشة وزنجبارالتي سوفنبتلعها في طريقنا » (١) ٠

وحوالى سنة١٨٨٨ أصبحت الفكرة أكثر شيوعا٠ ولقد أخبرنا سير هرى جونسون ، الكاشف الافريقى المشهور ، كيف أنه شرح هذه الفكرة الى اللورد سولسبرى في سنة ١٨٨٨، وكيف أن رئيس الوزراء وافق على مقال نشره في ٢٢ من أغسطس ســنة ١٨٨٨، في جريدةالتيمس .فيهذاالمقال ذكرجونسون Sir Harry Johnston بأنه اذا منحت الحــكومة بعض المســاعدة للمشروعات التجــارية والتبشيرية في منطقة البحيرات « فان ممتلكاتنا في جنوب افريقية قد ترتبط يوما ما بمناطق نفوذنا في شرق افريقيــة وفي السودان المصرى بوساطة مجموعة من المستعمرات البريطانية » وفي الوقت نفسه تقريبـــا حث سير جيمس ســفرت Siveright المهنــدس

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902. New-York, 1951, pp. 116-117.

البريطاني على انشاء خط تلغراف من جنوب أفريقية الى الخرطوم • وفي ربيع السنة التالية نشر سير تشارلز ميتكاف Metcalfe الذى كان فى ذلك الوقت يقوم بتشييد الطريق الحديدى من كمبرلى الى فريبرج Vryburg مقالا فى مجلة Fortnightly أشار فيه الى « الطريق الحديدى الذى يجب أن يربط الكاب بالقاهرة ويحمل المدنية خلال قلب القارة المظلمة » (١) •

ولقد تشبع رودس بأفكار جونسون بعد مناقشة لهما في لندن في مايو سنة ١٨٨٩ ، وبعد تفكير عميق كان هذا المستعمر الكبير مستعدا فى الحال لان يستولى على أى شيء وسط افريقية بين الزمبيزى والنيل الابيض • وبدأ فى اعانة الشركة الانجليزية للبحيرات الافريقية ، وأعطى جونسون ألفين من الجنيهات ، لكى يسرع الى منطقة نياسا ، ويقوم بتشييد مراكز بين بحيرتى نياسا وتنجانيقا ، وهى منطقة كان الالمان أيضا يدعون ملكيتها • وقبل نهاية ١٨٩٠ كان منهمكا فى مشروع الخط التلغرافى من الجنوب الى الشمال • وفى ربيع سنة ١٨٩٠ كانت الشركة البريطانية لجنوب افريقية مهتمة على وجه الخصوص بالحصول على المنطقة بين بحيرة نياسا وبحيرة تنجانيقا ، وبين بحيرة تنجانيقا وبحيرة ألبرت ادوارد • وبهذه الطريقة سوف يكون لها أرض لا تتخللها أملاك لغيرها ومواصلات مائية بين روديسيا وأوغندة • ومن ناحية أخرى كانت الشركة البريطانية لشرق افريقية مهتمة اهتماما خاصا بأن تبقى الالمان جنوب الخط الذى يجرى من الطرف الجنوبى لبحيرة فكتوريا الى الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا ، وأن تبعد الالمان من المنطقة كلها على طول الساحل الشمالى لنهر تانا • ومن الواضح أن سولسبرى رأى من أول الامر أنه لا يمكن تحقيق كل هذه الامانى • وكان يفكر فى اعادة فتح

1. Sir Harry Johnston : Britain Across the Seas, Africa (London, 1910), p. 182.

السودان مع اهتمامه بمشروع أوغندة أكثر من أى شيء آخر (١) ٠
وفى ذلك الوقت أى فى أبريل سنة ١٨٩٠ كان ستانلى قد عاد الى أوروبا ٠ وكان قد توقف فى كان Canne بفرنسا ، حيث بحث الموقف مع ماكينون٠ ثم ذهبا معا الى باريس وبروكسل، حيث عقدت هناك مؤتمرات طويلة مع الملك ليوبولد ٠ ومن الواضح فى ذلك الوقت أن الملك ليوبولد وماكينون قد وصلا الى اتفاق عام بأنه لا بد من تقسيم مناطق النشاط على طول نهر سمليكى ٠

وفى الاسبوع الاول من مايو رجع ستانلى وماكينون الى انجلترا٠ وفى سلسلة من الخطب أثار الكاشف العظيم الشعور ضد العدوان الالمانى ، وطالب بأحقية انجلترا فى كل المنطقة من بحيرة فكتوريا ودولة الكونغو ٠ ولقد اشتكى سولسبرى كثيرا الى السفير الالمانى من الصعوبات التى تسببت عن اثارة الشعور العام ، ولو أنه فى الحقيقة لم يهاجم ٠ ومن خطابات الملكة فكتوريا نعلم أن رئيس الوزراء تناول طعام العشاء مع ستانلى وماكينون فى قصر وندسور الملكى فى ٦ من مايو٠ ونحن نفرض أن هؤلاء السادة كانوا يدركون الهدف الذى يريدونه وأن المسألة كانت «كيف يثيرون القضية» .

ومن محادثات رئيس الوزراء مع السفير البريطانى فى ١٤ ، ١٧ من مايو اقتنع بأن الالمان سوف لا يوافقون على أى اتفاق يجعل البريطانيين ينفذون الى داخل ممتلكاتهم ويقطعون الطريق عليهم من دولة الكونغو ٠ وفى ٢٢ مايو اعترف سولسبرى بأن المنطقة الالمانية سوف تلمس دولة الكونغو فى المنطقة شمال بحيرة تنجانيقا (٢) ٠
وكان هذا يعنى نهاية الطريق الاحمر (الانجليزى) من الجنوب الى الشمال على الاقل فيما يخص المانيا ٠ ولكن كان هناك حل آخر : لقد وصل ليوبولد الى لندن ٠ وتباحث مع سولسبرى وماكينون

1. Die Grosse Politik, VIII, nos. 1776-1779.
2. Die Grosse Politik, VIII, nos. 1676-1678.

وستانلى ، وكانت نتيجة ذلك ما يسمى معاهدة ماكينون التى وقعت فى ٢٤ من مايو سنة ١٨٩٠ ، بوساطة حكومة الكونغو والشركة البريطانية لشرق إفريقية . وبوساطة هذا الاتفاق اعترفت الشركة بسيادة دولة الكونغو غرب خط يسير من الركن الجنوبى الغربى لبحيرة ألبرت شمالا ازاء النيل حتى لادو Lado فى حين اعترفت حكومة الكونغو بسيادة الشركة على منطقة يبلغ عرضها خمسة أميال وتمتد من الشاطىء الجنوبى لبحيرة ادوارد الى النقطة الشمالية لبحيرة تنجانيقا .

ولقد أرسلت الاتفاقية الى اللورد سولسبرى الذى لم يبد أى اعتراض . وشعر بأن طلب مثل هذه المنطقة الصغيرة ليس له أهمية دولية كبيرة ، وبين أن الحكومة الالمانية «سوف تنظر بعين غير راضية الى منح امتيازبمنطقة خلف منطقةنفوذها بدون معرفتها وموافقتها». ومع ذلك بذل كل جهده فى الحصول على هذه المنطقة من الالمان . ولكنه وجدهم مصرين على عدم التنازل عن هذه المنطقة ، وأدرك أنه اذا أصر على الحصول عليها فسوف يؤدى هذا الى قطع المفاوضات وفقد كل شىء . وفى ٢ من يونية كتبت الجرائد أن بيترز (الذى كان يرهب جانبه) قد وقع اتفاقية مع ملك أوغندة . وفى الحال ترك سولسبرى جانبا كل محاولة للحصول على هذه المنطقة ، التى كانت ضرورية لانقاذ أوغندة ، ولذلك عرض على الالمان عرضا مغريا بأن يمنحهم منطقة هيليجولاند Heligoland ، التى قبلوها بكل سرور . وفى الاتفاقية المشهورة التى عقدت فى أول يولية سنة ١٨٩٠ تنازل الالمان عن مطالبهم فى المنطقة شمال وغرب منطقة النفوذ البريطانى المحددة فى سنة ١٨٨٦ . واعترفوا ضمن النفوذ البريطانى بكل المنطقة شمالا حتى منطقة النفوذ الايطالى فى الصومال وحدود مصر، وغربا الى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو ودولة الكونغو (١). ولقد حصل البريطانيون على كل ما يريدون تقريبا ، ما عدا المنطقة

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 3, p. 899.

الصغيرة التي كانوا شغوفين بالحصول عليها • ولا ندرى ما اذا كان سولسبرى قد اهتم بذلك كثيرا أم لا • وقد أشار الى مشروع خط حديدالكاب ـ القاهرة فى خطاب ألقاه بعد ذلك بقليل قائلا « هذه فكرة غريبة قد أصبحت شائعة منذ وقت قريب » وأشار بأن منطقة تبعد عن البحر بمسيرة ثلاثة أشهر تعتبر « ممتلكة غير مناســبة » وفى خطابه مع الملكة أظهر أن الصعوبات نتجت عن عدم رغبة الشركتين فى قبول وجهــة نظره • والشىء المهم حقيقة ، وهو حرية العمل بين المحيط والنيل ، قد حصل عليه • ووفقا للتسوية كتب الى الملــكة يقول « كل المنطقة خارج حدود الحبشــة وبلاد الجالا Galla Land سوف تكون تحت النفوذ البريطانى حتى الخرطوم ، هذا فيما يخص أى تنافس من أوروبى آخر (١) .

---

(1) William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism 1890-1902. pp. 118-119.

الفصل الخامس

اعلان الحماية الانجليزية على اوغندة

سنة ١٨٩٤

على الرغم من تفاؤل سولسبرى بأن كل المنطقة خارج حدود الحبشة وبلاد الجالا سوف تكون تحت النفوذ البريطانى حتى الخرطوم، وفقا للاتفاقية التى عقدت بين ألمانيا وانجلترا فى أول يولية سنة ١٨٩٠ ، الا أنه لم يكن قانعا بمجرد الاعتراف الالمانى بالنفوذ البريطانى ، اذ كان من الضرورى السيطرة الكاملة على أوغندة • ومنذ سنة ١٨٨٥ كان هناك قول بانشاء خط حديدى من ممبسة مارا بمئات الأميال من الارض القاحلة حتى بحيرة فكتوريا • وكان هذا مشروعا يعضده ستانلى بكل حماسة• وكان بعض الناس يظنون أن هذا المشروع غير عملى وكثير النفقات ، لدرجة لا تشجع على محاولة القيام به ، ولكن سولسبرى كان يعتقد فيه اعتقادا جازما ، وكانت الشركة البريطانية لشرق أفريقية شغوفة أيضا بأن تقوم بالمشروع، معللة ذلك بأنه بواسطة خط حديدى فقط يمكن عمل شئ لالغاء القوافل المحملة بالعبيد • وفى ديسمبر سنة ١٨٩٠ اقترحت وزارة الخارجية البريطانية أن تمنح الشركة مبلغا من المال لكى تبدأ المشروع، ولكن رئى أخيرا أن ينظم أولا مسح المنطقة • واستمر الحال على هذا بعض الوقت ، وأخيرا فى ديسمبر سنة ١٨٩١ نظم فريق للقيام بهذا المسح تحت رياسة الكابتن ماكدونالد MacDonald •

وكانت الشركة قد أعلنت فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٩١ أنها

مضطرة الى الانسحاب من أوغندة (١)، وادعى مديرها أنها اضطرت لاحتلال هذه المنطقة فى ١٨٩٠ نظرا لتقدم الالمان وتحت ضغط الحكومة البريطانية • فلو كانت الحكومة راغبة فى أن تضمن فائدة على رأس المال اللازم للخط الحديدى لتمسكت الشركة بأوغندة • وعلى هذا لم تتمكن الشركة من أن تستمر فى القيام بنفقات تكلفها حوالى أربعين أو خمسين ألفا من الجنيهات فى السنة • ويبدو أن اللورد سولسبرى اقتنع بالسماح للشركة بأن تنسحب • وكان سولسبرى يلقى بكل شىء فى سبيل هذا الخط الحديدى الذى وصفه السير هرى جنستون بعد ذلك بأنه «الشرط الذى لا غنى عنه للابقاء على النفوذ البريطانى على المناطق التى حول منابع النيل» ، فبمجرد انشاء الخط الحديدى سيكون من السهل على الحكومة أن تعيد سيطرتها على أوغندة نفسها •

ولكن الانسحاب من أوغندة لم يكن من السهل تنفيذه • فلقد عارضته جريدة التيمس بصراحة فى ٢٨ من سبتمبر ، مبينة الخطر على الارساليات البروتستانتية فى بلد كان دائما به حرب أهلية منذ سنة ١٨٨٩ بين المسلمين والكاثوليك والعناصر البروتستانتية • ويعضد القسم الاول العرب، ويتبع الفريق الثانى قيادة الارساليات الكاثوليكية الفرنسية • ولقد أحدثت هذه الاثارة فعلها ، وانضم لقائمة المعارضين فى الانسحاب الجمعية الارسالية للكنيسة، وجمعية منع الرقيق ، وبعض المنظمات الأخرى • وعلى أثر ذلك أقرض فريق الارساليات الشركة أربعين ألفا من الجنيهات ، ووافقت الشركة على أن تستمر فى الاحتلال حتى ٣١ من ديسمبر ١٨٩٢ • وفى أثناء ذلك كان الكابتن لجارد Lugard ، الذى كانت الشركة قد أرسلته فى ديسمبر سنة ١٨٩٠ قد أرغم موانجا ملك أوغندة على التوقيع على معاهدة فى ٣٠ من مارس ١٨٩٢ (٢) ، وسار بقوته عبر المناطق

---

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. I, p. 392.
   E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty : vol. 1, p. 392.

الغربية بين بحيرتى ألبرت وادوارد ، منشئا مراكز دفاعية دعمها بقوات أمين باشا السودانية السابقة • وقد كتب جونستون يقول « ان لجارد هوالذى جلب القوات السودانية الى أوغندة ، وكان يتعذر فى ذلك العصر أن يلجأ لجارد الى وسيلة أخرى اذا أراد أن يوطد السلام بين الاحزاب المتنازعة ، ويثبت الرقابة البريطانية • ولم يكن يخطر على البال فى ذلك الوقت ارسال جنود من الهنود الى أوغندة ، وكان يستحيل أيضا العثور على جنود آخرين مدربين قادرين على احتمال الجو غرباء عن كل نفوذ فى أوغندة » (١) .

وعندما نشب نزاع دينى خطير بين الكاثوليك والبروتستانت فى يناير سنة١٨٩٣ وجه لجارد الى الفريق الفرنسى انذارا بالعقوبة، ثم قمع الاضطرابات بوسائل شك فى سلامتها كثير من الناس ولا سيما الفرنسيين (٢) وكتب دارسى Darcy يقول « سار لجارد على رأس قوات عسكرية عظيمة ، وتوغل حتى منجو Mengo مقر الملك موانجا ، وفرض عليه معاهدة حماية ، ثم انقلب يهاجم الكاثوليك بذريعة واهية ، وطردهم، فذهبوا الى جزيرة كبرى ببحيرة فكتوريا، كان يوجد فيها حول الملك والمبشرين الفرنسيين عدد ضخم من اللاجئين من الأطفال والرجال والنساء • وقد صوب لجارد مدافعه ضد أولئك الضعفاء العزل ، فأفنى منهم عددا كبيرا • ثم أمعن فى سياسة التدمير والتقتيل وأرخى العنان لقواته وأنصاره ، فحرقوا كل قرى الآباء البيض ومحطاتهم وكنائسهم ومزارعهم ، وكان لجارد لا يجهل أن محو الكاثوليك معناه محو النفوذ الفرنسى فى أوغندة ، ولذلك لم يبق أثر من العمل الذى تعب فى تشييده مواطنونا» (٣) • «وفى أغسطس سنة ١٨٩٢ أرسل كابتن ماكدونالد تقريره عن مسح

---

1. Harry Johnston : The Uganda Protectorate, vol. I, p. 237.
2. Woolf, Leonard : Empire and commerce in Africa, pp. 277-289.
3. Darcy Jean : Cent Années de Rivalité Coloniale, Paris, 1904.

الخط الحديدى . ولقد قدر أن الخط حتى بحيرة فكتوريا سوف يكون طوله ٧٠٠ ميل وأن الانشاء سوف يستغرق حوالى أربع سنوات ، وأن التكاليف سوف تبلغ ٢٫٢٤٠٫٠٠٠ من الجنيهات . ولكن قبل أن يفعل شيئا آخر فى هذه المسألة تركت حكومة سولسبرى الحكم. وشكل الوزارة جلادستون ، وكان معه لورد روزبرى Rosbery وزيرا للخارجية . وكان روزبرى استعماريا كسولسبرى . وكان مقتنعا بأنه لا بد من الابقاء على أوغندة . ولا بد من عمل شيء فى الحال ، لان الاوامر تستغرق شهورا حتى تصل الى اوغندة من انجلترا وكانت الشركة تضع خطة الانسحاب فى ٣١ من ديسمبر ، وعلى ذلك وزع روزبرى فى ٢٠ سبتمبر على مجلس الوزراء مذكرة أعدها السير بيرسى أندرسون Percy Anderson الخبير بالشئون الافريقية فى وزارة الخارجية . وكما يقول السير وليم هاركورت Harcourt كانت هذه المذكرة « جريئة تدعو الى ضم كل البلد حتى بحيرات ألبرت لغرض اعادة فتح السودان عن طريق أعالى النيل (١) » .

وبهذه الاقتراحات لم يكن من المحتمل أن يناله روزبرى تأثيرا طيبا على مجلس للوزراء كان يرأسه جلادستون، ويشرف على ماليته هاركورت. وكان هاركورت قد فعل كل ما فى وسعه ليحبط اقتراح سولسبرى بعمل مسح للخط الحديدى ، وكتب الى جلادستون قائلا « اذا بدأنا هذه المسألة الميئوس منها، فلن يهدأ لنا بال مع الفرنسيين والالمان» واستطرد قائلا انه سوف لا تكون تجارة فى البلد ، وأن الهيئات الدينية سوف تذبح بعضها بعضا ، وليس هناك دليل على وجود تجارة رقيق فى هذه المنطقة. ولقد عضده جلادستون ومورلى Morley واسكوث Asquith. . ولذلك كتب الى روزبرى قائلا ان الشركة قد ذهبت الى أوغندة لمجرد الغيرة من الالمان ، لطمعها الذى لا حد له فى اكتساب أرض . ومع هذا كان على انجلترا فى هذا

1 Gardiner A.G. : The Life of Sir William Harcourt, London, 1923, vol. 2, pp. 196-197.

الوقت أن تبدأ فى اعادة فتح حوض أعالى النيل كله · لماذا ؟ لخوفها من الالمان والفرنسيين والبلجيكيين فى الكونغو · هذه جرأة عجيبة مصدرها الانتقام · وكان علينا أن نراقب النيل ، وعلى فرقنا الموسيقية أن تضرب هناك · ويجب أن يكون النيل منطقة حرة من منبعه الى مصبه ، وأوغندة هى النقطة التى يدور حولها » · ولكى يزيد من الاقناع فى مناقشته أشار الى مذكرة أعدها فى أبريل سنة ١٨٩٢ سير ريجنولد ونجت ، ضابط المخابرات بالجيش المصرى ، الذى أكد فيها آثار الانسحاب من مصر ، وحث بشدة على استرداد السودان (١) · ورجع سير فريدريك لجارد الى انجلترا ، وأخذيقوم بحملة لا تهدأ فى الجرائد اليومية والشهرية، وعلى منصات الخطابة· وكانت الدولة وبخاصة الهيئات الدينية ، تطالب بحل سريع ، فكانت هناك صيحة من قلب الدولة ، ومن رئيس أساقفة كانتربورى نفسه تطالب بمساعدة الشركة حتى تستطيع البقاء (٢) · وكان لا بد من عمل شىءما· وفى ٣٠ من سبتمبر وافق هاركورت ، حفظا على تماسك مجلس الوزراء ، على أن تتحمل الحكومة تكاليف الاحتلال حتى ٣١ من مارس سنة ١٨٩٣ ، كى تتمكن الحكومة من الحصول على معلومات جديدة (٣) ·

وفى هذااليوم نفسه ظهر حل جديد مرض للمشكلة ، اذ كتب الملك ليوبولد ملك دولة الكونغو ، الذى كان دائما على استعداد لأن ينتهز مثل هذه الفرص لتوسيع منطقته ، الى جلادستون مقترحا أن يقوم هو بادارة أوغندة وأونيورو تحت اشراف بريطانيا· ولقد بدت الفكرة الى جلادستون جديدة وغريبة،ولكن الملكة فكتوريا اعتقدت أنه

1. Gardiner A.G. : The Life of Sir William Harcourt, London, 1923, vol. 2, p. 192.
2. Lugard, Frederick D. : The Rise of our East African Empire, London 1893, vol. 2, pp. 547 ff.
Gardiner A.G. : The Life of Sir William Harcourt, London, 1923, vol. 2, p. 192-197.

عمل عظيم ، اذا هم تعاونوا مع ملك البلجيك • ولقد قرر مجلس الوزراء ألا تتخذ أية خطوة عملية في تلك اللحظة ، وكتب جلادستون الى الملك بترك المسألة للمناقشة • وبمجرد أن أرسل هذا الخطاب قدم اقتراح أكثر قبولا : وفي أكتوبر سنة ١٨٩٢ وصل سيسل رودس الى لندن وكان اذ ذاك رئيس الوزراء في مدينة الكاب ، وذا نفوذ وعلاقات طيبة في مدينة لندن• وبما أنه كان يتزعم مستعمرى عصره فكان من الطبيعي أن يعارض في جلاء البريطانيين من أوغندة• وكانت للمنطقة قيمة كبيرة بالنسبة له ، لاهتمامه اهتماما كبيرا بمشروع خط التلغراف من جنوب أفريقية الى مصر • وحتى مع كون أوغندة تحت النفوذ البريطاني فقد كان من الضروري أن يسير الخط التلغرافي عبر جزء من الاراضي الالمانية • لذلك كتب رودس الى وزارة الخارجية بأن تتخذ خطوات لتحصل على موافقة عاجلة من الحكومة الالمانية ، ومعبرا عن أمله في أن يمتد الخط نهائيا حتى وادى حلفا • وفي الوقت نفسه قدم رودس عرضا بأن يأخذ أوغندة نفسها من الشركة البريطانية لشرق أفريقية ، ويديرها مع منحه اعانة قدرها عشرون ألف جنيه في السنة • وقد تباحث طويلا مع هاركورت في الموضوع ، ونال اقتراح رودس ما ناله اقتراح الملك ليوبولد • وظهر المشروع بأنه غير عملي • وانهمك مجلس الوزراء في دراسة اقتراح بأن توضع هذه المنطقة تحت حكم سلطان زنجبار ، الذى كان تحت الحماية البريطانية • والظاهر أن هذا الاقتراح قد قدمته الشركة البريطانية لشرق أفريقية في يولية سنة ١٨٩٢ • والواضح أن روزبرى لم يرض به ، لانه خلال شهر نوفمبر بذلت مجهودات بواسطة وزارة الخارجية لاقناع الشركة بأن تستمر في احتلال المنطقة لوقت ما باعانة من الحكومة • ومع هذا كانت الشركة غير راغبة في أن تبقى أقل من ثلاث سنوات ، وطلبت اعانة قدرها خمسون ألف جنيه في السنة ، ومن ثم أوقفت• وبدلا من ذلك صممت الحكومة على ارسال مستر جرالد بورتال Gerald Portal ، الوكيل

فى زنجبار ، ليبحث المسألة . وكانت لديه تعليمات بأن يقدم تقريرا عن « أفضل الوسائل لمعالجة هذا البلد ، سواء عن طريق زنجبار أو غير ذلك » • ومن البين أنه قبل ذلك الوقت كان الجميع ، حتى هاركورت ، مقتنعين بأن احتفاظ بريطانيا العظمى بهذه المنطقة أمر لا بد منه ، وأن نتائج بورتال النهائية سابقة لاوانها • وعلى أى حال ترك بورتال زنجبار قاصدا الى أوغندة فى أول يناير ١٨٩٣ ، وكان برفقته الصاغ أوين Owen وبيركلى Berkeley قنصل صاحبة الجلالة ومدير ممتلكات الشركة فى ممبسة، ومائتا رجل مسلحين من زنجبار وعندما وصل بورتال الى أوغندة أنزل فى الحال علم الشركة ورفع العلم البريطانى • وكان ذلك فى أول ابريل سنة ١٨٩٣ •

وفى خلال ربيع سنة ١٨٩٣ أرسل بورتال تقارير مفصلة عن الأحوال هناك • وكانت المشروعات التجارية تبشر بالخير • فقد كتب الكولونيل فرانك رودس فى خطاب أرسله بواسطة بورتال يقول « انى أعتبر شرق افريقية سوقا باهرا فى المستقبل للصناعات الاوربية • ويطالب الواجندا Waganda بأحذية وجوارب ونظارات وخلافه ، وفى كل يوم تظهر طلبات جديدة » • أما عن الموقف الدينى فقد وجده بورتال سيئا • فاذا انسحب البريطانيون فسوف تنشأ حرب ابادة • وفى ٢٩ من مايو ١٨٩٣ عقد موانجا ملك أوغندة اتفاقا مع السير جيرالد بورتال نص فيه على أن الشركة البريطانية لشرق افريقية قد انسحبت تماما من أوغندة ، وأنه الى أن تصدر الحكومة البريطانية قرارها بشأن مسألة أوغندة كلها ، فان موانجا قد ألزم نفسه ببعض الشروط ، ودخل فى ارتباطات الغرض منها الحصول على حماية بريطانيا ومساعدتها وارشادها ، ومن هذه الارتباطات أنه تعهد بألا يعقد آية معاهدات أو اتفاقات مع أى أوروبى ، مهما كانت جنسيته ، بدون موافقة مندوب الحكومة البريطانية (١) • وفى

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty : vol. 1, pp. 393-395.

أول نوفمبر سنة ١٨٩٣ لخص بورتال آراءه فى تقرير أرســـله من زنجبار • ولفت فيــه النظر الى موقع أوغنــــدة ووصفه بأنه « موقع استراتيجى ذو أهمية طبيعية كبيرة،يسيطر على الشواطىء الشمالية والغربية لبحيرة فكتوريا ، وعلى الطريق الوحيــد الى بحيرتى البرت وألبرت أدوارد ، وعلى مياه أعالى النيل » • وكانت كما يقول «المفتاح الطبيعى لكل وادى النيـــل وأغنى منـــاطق وسط افريقية» • فاذا انسحبت بريطانيا فان دولة ما ، وربما كانت ألمانيا ، سوف تستولى عليها وسوف تفقد بريطانيا « كل تلك المنطقة الشاسعة التى أبقتها المعاهدة الانجليزية الالمانية لكى تكون ميدانا للنفوذ البريطانى » • ان سيطرة دولة أخرى ، سوف تمتد حتما لا على أوغندة وملحقاتهــا فحسب ، بل ستنضم أيضا كل البلاد المجاورة والبحيرات العظمى ، ووادى النيل ، والمرتفعات الطبيعية فى الداخل • ان السيطرة على أوغندة تعنى فى خلال سنوات قلائل طغيان النفوذ والتجارة فى أغنى وأكثر منطقة ازدحاما بالسكان فى وسط افريقية » •

وهذا التقرير مع بعض الاعتبارات الاخرى جعل السير وليم هاركورت يغير رأيه تماما ، وفى ١٨ من يونية ١٨٩٤ أعلنت الحماية على أوغندة ، وفى ٢٧ من أغسطس من السنة نفسها عقدت معاهدة فى كمبالا بين موانجــا ملك أوغندة والسـير هنرى كولفيل القــائم بأعمال المندوب البريطانى ، تعهد فيها الملك بأنه وورثتــه وخلفاؤه سوف يتمسكون بالشروط الواردة فى اتفاقية سنة ١٨٩٣ • وفى ٤ من يناير سنة ١٨٩٥ وافقت الحكومة البريطانية على هذه المعاهدة• وفى ٣٠ من يونية ١٨٩٦ امتــدت الحماية حتى شــملت أونيورو • وعقدت اتفاقات فى سنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠١ مع ملوك أوغنــدة وتورو وأنكولى ، بشأن ادارة بلادهم وفى هذه الاتفاقات خططت الحدود بين هذه البلاد (١) •

F Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 1, pp. 395-403.

وعلى ذلك أصبح النيل محميا من ناحية أوغندة وشرق افريقية أى لم يكن هناك خطر عليه من هذه المناطق • وحتى حكومة الاحرار التى كانت تبحث دائما امكان الجلاء عن مصر ، لم تستطع أن تتجنب المسئولية فى هذا الموضوع •

وكانت مسألة أوغندة ذات أهمية كبيرة فى تطور الاستعمار البريطانى • وقد كانت اعلانا لبداية الانشقاق فى حزب الاحرار • ذلك الانشقاق الذى كان ذا عواقب سيئة فيما بعد • ولقد كسب روزبرى والاحرار الاستعماريون نصرهم الاول فى الشهور الاولى بالذات من أيام ادارة جلادستون الاخيرة • ومن الواضح أن كلا من رئيس الوزراء وصديقه الحميم جون مورلى كان يرغب فى الجلاء عن مصر • وكان لدى الفرنسيين آمال بأنه لابد من عمل شيء ما • ولكن السفير الفرنسى مسيو وادنجتون Waddington ، علما منه بأن روزبرى سوف لا يكون عطوفا ، أخطأ خطأ فاحشا فى أن تكلم مع جلادستون شخصيا • وعندما علم وزير الخارجية بهذه المناورات، التى من وراء الستار ، كان من الطبيعى أن يغضب ، وجعل المسألة المصرية تأخذ صفة المشكلة ونفذ فكرته • وأصبح موقف السفير الفرنسى لايطاق، ولذا استقال من وظيفته• وكانت النتيجة الواضحة لهذا هى أن الانجليز صمموا على البقاء فى مصر مؤقتا ، ولم يمض وقت قليل حتى تقرر الاحتفاظ بأوغندة • وكان من الطبيعى أن يتبع القرار الاول القرار الثانى • اذ لو أردت أن تحتفظ بمصر فلا بد من حماية النيل • وكان قد نشر كتاب ملنر المشهور « انجلترا فى مصر England in Egypt » فى سنة ١٨٩٢ . ولقد أثر تمجيده لاعمال البريطانيين فى مصر فى الرأى العام ، وجعله يميل الى فكرة البقاء • وكان لتحذيره من خطر التدخل فى امداد مصر بالمياه تأثير على تسوية مشكلة أوغندة (١) • وفى كتيب صغير عن هذه المسألة

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902, pp. 120-124.

نقرأ ما يأتي بصدد تعضيد الحكومة في مسألة الاستيلاء على أوغندة ·

« ان ترك أوغندة الى أية دولة متمدينة يعرض مصر في الحال للخطر ، اذ أن تحويل أوسد مجارى المياه في النيل يمنع عنها المياه، ويهلك أهلها من الجوع (١) ·

1. Ernest L. Bentley : Handbook to the Uganda Question (London, 1892), p. 8.

الفصل السادس

الكونغو ما بين بلجيكا وانجلترا وفرنسا

ومعاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤

كان لمسألة أوغندة مظهر دولي أوسع مما ذكرنا ، اذ كانت الامور تتطور بسرعة عجيبة في حوض النيل . وكان ليوبولد يظهر نشاطا غير مرغوب فيه ، وكانت في جيبه معاهدة ماكينون التي عقدت في سنة ١٨٩٠ والتي تركت له الحرية في أن يمد مستعمراته الى نهر السمليكي وبحيرة ألبرت والنيل الاعلى . وقد حثه أقدر وأجرأ ضباطه وهو فان كركهوفن Van Kerckhoven على أن ينتهز هذه الفرص ولذلك أرسله ليوبولد في سبتمبر سنة ١٨٩٠ بقوة كبيرة وسارت حملته متقدمة خلال المنطقة بين خط تقسيم مياه الكونغو والنيل ، وسلح الوطنيين بالبنادق ليحاربوا بها الدراويش . وكان يبدو أنه لا توجد هناك أية عقبة في سبيل هذه القوة البلجيكية ووصل جزء منها بالفعل الى النيل عند وادلاي في أكتوبر سنة ١٨٩٢. وكان لورد سولسبري يشعر بخطورة نشاط ليوبولد على انجلترا. فأرسل احتجاجا الى بروكسل ولفت النظر الى الاتفاقيات التي بين انجلترا وألمانيا وايطاليا والتي تعترف بأن هذه المنطقة ضمن النفوذ البريطاني . وأجاب الملك بأن دولة الكونغو لم تخبر رسميا بهذه الاتفاقات ولا تعترف بها . وتمسك بمعاهدة ماكينون وتجاهل حجة سولسبري بأن هذه الاتفاقية لم ترسل الى الحكومة البريطانية ولم تحز موافقتها .

ولم ينزعج ليوبولد من احتجاجات بريطانيا بقدر انزعاجه من تهديد فرنسا • ومنذ مغامرة فرى Ferry الفاشلة فى تونكين Tonkin طرأ على الرأى العـــام الفرنسى تغير ملحوظ بالنســـبة للمشروعات الاستعمارية• ولقد كان لعمل الكاشفين الفرنسيين المثيرفى أفريقية تأثير كبير على الرأى العام الذى بدأ يهتم ويدرك أن فرنسا يجب ألا تتخلف فى السباق علىالحصول على أراض فى القارة السوداء•وكانت الغرف التجارية تحثعلى زيادة النشاطكما تحمس كثيرمن المخاطرين• وأصبح كثيرمن المنظمات كالجمعيةالجغرافية La Société de Géographie فى باريس،والجمعيةالجغرافيةالتجارية La Société de Géographie Commerciale والجمعية الافريقية La Société Africaine وجمعيــة فرنســا لمحـــاربة الرقيق La Société Antiesc-lavagesite de France ، مراكز للدعاية الاستعمارية •

وفى سنة ١٨٩٠ أسست أكثر هذه الجمعيات نشاطا ألا وهى جمعية افريقيــة الفرنســـية Comité de l'Afrique Française وكان من مؤسسيها الكثير من العسكريين والنواب والكتاب والتجار ورجال السياسة (١) ، وبعد سنة ١٨٨٩ زادت الحركة نشاطا حتى أن فكرة الحصول على منطقة من الارض تمتد من غرب افريقيــة الى ساحلها الشرقى أصبحت فكرة مقبولة • ويخبرنا هانوتو أحد كبار الاستعماريين ، أن كل الـكشوف الفرنسية فى أفريقية فى أواخر القرن التاسعءشر كانت تسير الىهذه الغاية وكاننشاط الفرنسيين ذا أهمية من النـاحية الدولية لأن آمالهم كانت تتعـارض مع آمال البريطانيين منذ البداية وفى كل ناحية •

وكان دى برازا De Brazza الـكاشف الفرنسى المشهور فى ذلك الوقت حاكما على الكونغو الفرنسية ، التى تقع شـمال دولة الكونغو ، ولو لم يكن لها حدود واضحة ، وفى اتفاق مع حـكومة

1. Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau : Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le Monde : Tome IV, pp. 435 - 439.

الكونغو وقع فى بروكسل فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٧ نص على أن تكون الحدود عند نهر أوبانجى Ubanghi وخط عرض ٤ بحيث اعتبرت كل المنطقة التى تقع شمال هذا الخط منطقة فرنسية والتى فى جنوبه تابعة لدولة الكونغو (١) . وبذلت مجهودات كبيرة لتدعيم مركز الفرنسيين حول بحيرة تشاد والى ما بعدها شرقا . وفى ابريل سنة ١٨٩٠ أرسل دى برازا اداريا قديرا يدعى فكتور ليوتارد Victor Liotard وكان صيدليا فى البحرية يبلغ من العمر ٣٢ سنة ، وكان قد قام بكشوف فى جابون . أرسله دى برازا «لاحتلال الاراضى التى للفرنسيين الحق فى دخولها احتلالا تدريجيا ولا سيما أعالى الاوبانجى ، ولجعل هذه الاراضى منطقة فرنسية تشرف على النيل(٢) . وفى ٥ من فبراير سنة ١٨٩١ كتب برازا الى ليوتارد يقول « أما عن عملنا تجاه الشمال الشرقى فان مجرد الاندفاع بكشوفنا فى هذا الاتجاه حتى فروع أعالى النيل له أهمية معتبرة » (٣) .

ولم يكن مع ليوتارد غير قوة صغيرة تعدادها مائة سنغالى فلم تستطع أن تفعل كثيرا ولذلك كان الفرنسيون قلقين لتقدم حملة فان كركهوفن التى وصل جزء منها الى وادلاى فى سنة ١٨٩٢ ، وكانت ترسل فرقا صغيرة الى الشمال والى الشمال الغربى حتى أن كل اتصال للفرنسيين بالنيل الاعلى سوف يقطع . وكانت كل العمليات ــ فى نظر الفرنسيين ــ لا تتفق مع اتفاقية سنة ١٨٨٧ ، ولذلك بدأت المفاوضات مع ليوبولد . وبدأ الفرنسيون بالاصرار على الاوبانجى كحد ولكن البلجيكيين ناقشوا هذه المسألة بذكاء سائلين عما اذا كان هذا يعنى نهر ولى Welle أو الموبومو M'Bomu وهما الفرعان اللذان يتفرع اليهما الاوبانجى فى أعاليه . وفى النهاية عقدت اتفاقية اعترف فيها بأن يكون الحد هو نهر تشنكو Chinko

1. Ibid., p. 428.
2. Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau : Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le Monde : Tome IV, pp. 503 - 504.
3 Ibid., p. 507.

وخط عرض ٧ شمالا • وفى مقابل هذا الامتياز يبدو أن ليوبولد كان موافقا على آن يقسم مع الفرنسيين المنطقة التى تقع على الجانب الغربى من النيل الاعلى بحيث تأخذ دولة الكونغو المنطقة التى فى الشمال حتى لادو وتترك الباقى للفرنسيين • ويظهر أن مسيو ريبو Ribot وزير خارجية فرنسا كان موافقا على هذه التسوية فى بادىء الامر ولكنه رفضها بعد ذلك تحت ضغط الفريق الاستعمارى فى مجلس النواب • ومع هذا فقد كانت لدى ليوبولد وثيقة موقع عليها، ولذلك تمسك بها • وفى ديسمبر سنة ١٨٩٢ انتهت المناقشات •

وهنا ظهر عامل جديد فى السياسة الفرنسية • ففى ٢٠ من يناير ١٨٩٣ خطب مهندس فرنسى بارز كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية ، وهو مسيو فكتور برمبت Victor Prompt خطب فى المعهد المصرى عن بعض مشاكل هيدروغرافية Hydrogrophy النيل وكان منهمكا منذ سنين فى بحث مسألة خزن المياه لاستعمالها فى الصيف واقترح فى بادىء الامر تشييد خزان عند أسوان • وفى محاضرته ذهب أبعد من ذلك اذ ناقش موضوع امكانية انشاء خزانات كبيرة عند مخارج بحيرتى فكتوريا وآلبرت ، أو عند التقاء السوباط بالنيل الابيض • وقدر تصريف الفيضان بحوالى ٧٥ بليون متر مكعب فى مدة خمسة أو ستة شهور ، وأوضح قائلا انه ببناء الخزانات يمكن خزن كمية أكثر من المياه لاستعمالها فى الصيف ولم يعترض أحد على خطابه هذا • ولكن مسيو برمبت ذهب الى استنتاجات غير معقولة فلاحظ أنه لو لم تصرف المياه من خزانات البحيرات فى الوقت المناسب فان الامداد الصيفى لمصر سوف يضيع نصفه • ولو فتحت الخزانات فجأة ونشأ الفيضان فان مدنية النيل سوف تغرق فى كارثة واحدة • وفى النهاية بين أن هذه الخزانات التى يفكر فيها سوف لا تكلف كثيرا فى بنائها فستبلغ تكاليف الخزان الواحد حوالى نصف مليون فرنك •

وكان لخطاب مسيو برمبت تأثير كبير على السياسة الفرنسية، وربما على السياسة الإنجليزية أيضا . فصامويل بيكر الذى كان يشعر دائما بخطر التدخل فى مياه الفيضان الآتية من الحبشة، لا بد وأنه كان يفكر فى خطاب برمبت عندما كتب الى صديق انجليزى له فى أول مايوسنة ١٨٩٣ يقول « اذا استقر بنا الحال فى أعالى النيل، فسوف نسيطر على مصر ، وخزان عند ممر ضيق حيث يخترق النيل منطقة صخرية عرضها ٨٠ ياردة خلف مخرجه من بحيرة ألبرت نيانزا سوف يرفع منسوب الخزان العظيم على النيل بمقدار خمسين قدما ويسيطر سيطرة كاملة على امداد مصر بالمياه » وأثرت آراء برمبت تأثيرا ظاهرا فى خطابات وكتابات الآخرين أمثال سكوت مونكريف Scott Moncrieff ومنذ ذلك الوقت أصبحت نظرية هذا المهندس الفرنسى نوعا من الكابوس للانجليز .

وكان تأثير الخطاب على السياسة الفرنسية مؤكدا ، فمن قبيل المصادفة أن كارنو Carnot رئيس الجمهورية الفرنسية ، كان صديقا من أيام التلمذة لمسيو برمبت ويظهر أنه حصل على نسخة من الخطاب فى الحال . ففى ٥ من مايو سنة ١٨٩٣(١) دعا الى قصر الأليزيه Elysée Palace مسيو دلكاسيه M. Delacasse وكيل الوزارة لشئون المستعمرات والكاشف الفرنسى ميجر مونتيل Major Monteil الذى كان يحرضه دلكاسيه للقيام ببعثة الى النيل وقال لهما « اننى أود أن أعيد فتح الكلام فى المسألة المصرية. ان السودان المصرى مشاع الآن res nullius وتحتاج فرنسا الى منفذ على النيل من أجل ممتلكاتها على نهر الاوبانجى ». ثم قدم لهما تقريرا عن خطاب برمبت ورسم لهما خطة للتقدم الى فاشودة التى لم تكن تبعد عن التقاء السوباط بالنيل . وباحتلال هذا المركز

1. Mekki Shibeika : British Policy in the Sudan (1882-1902), London 1952, p. 334.

سوف يزعزع الفرنسيون مركز البلجيكيين وفي الوقت ذاته يزعجون البريطانيين حتى يضطروهم الى الجلاء عن مصر بتهديدهم بقطع امداد المياه وكان على مونتيل أن يتقدم الى أعالي الاوبانجي في الحال بقوة كبيرة ، ثم يتقدم الى النيل ويحتل فاشودة • ووضع ليوتارد تحت امرته• وأخذوا يعدون العدة بكل نشاط ، فأرسل الملازم دى كازس Decazes الى الكونغو في الحال(١) ، وكان على مونتيل أن يتبعه في أكتوبر سنة ١٨٩٣ • ولكن في ذلك الوقت ، وفي ليلة رحيله بالذات وصلهم خبر من دى برازا بأن البلجيكيين يهددون باستعمال القوة لايقاف الحملة• ولقد عاملوا في ذلك الوقت الوكلاء الفرنسيين معاملة غير مرضية ، وبذلت مجهودات في باريس للوصول الى اتفاق معهم ولكن المفاوضات لم تؤد الى شيء واتخذ دى برازا نفسه سبيل الحذر ونصح بتأجيل الحملة • وفي هذه الاثناء كانت العلاقات متوترة بين فرنسا وايطاليا،ولذلك رأت الحكومة الفرنسية أن توقف استعداداتها للتقدم الى النيل بدلا من أن تدخل نفسها في مشكلات أكثر من اللازم (٢) • وفي شتاء ١٨٩٣/١٨٩٤ تبودلت المفاوضات والاستعدادات وبحث وزير خارجية فرنسا مسيو دى فيل M.Develle الموقف مع وزير خارجية دولة الكونغو في أكتوبر وكان هو يميل الى منح الكونغو حدا يسير ازاء نهر الموبومو وازاء خط عرض ٣٠سم٥٥ شمالا • وكان هذا العرض أقل من ذلك الذى وافق عليه الفرنسيون منذ سنة مضت • ولذلك رفضه البلجيكيون • وكانت النتيجة لفشل المباحثات أن خطة الحملة بدأت تبرز مرة أخرى • ولسبب غير معروف لم يعد مونتيل قائدا للحملة • وفي ديسمبر أرسل الى برلين ليفاوض في اتفاق سوف نبحثه بعد• ولكن في أكتوبر اتصل مسيو فرانسوا دى لونكل M. François Deloncle أحد الاستعماريين

---

1. Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau : Histoire des Colonies Françaises : Tome IV, p. 508.
2. Jules Cocheris : La situation internationale de l'Egypte, (Paris, 1903) pp. 393 - 394.

الفرنسيين النشطاء فى مجلس النواب الفرنسى، بالكولونيل شاييه لونج Chaille-long وهو رجل أمريكى من أصل انجليزى كان دائما مرتبطا بجوردون ومعروفا بكراهيته للحكم البريطانى فى مصر، واقترح عليه دى لونكل بأن يتولى حملة الى النيل عن طريق الاوبانجى، ولكن شاييه لونج كان يعتقد أن هذه الفكرة سخيفة . ومنذ عهد بعيد كان قد اقترح على رئيس الوزراء الفرنسى جول فرى Jules Ferry أن يقنع الفرنسيون الاحباش بأن يهاجموا المهدى ويهزموه وبعد ذلك يعلن ملك الملوك سلطانا على السودان تحت الحماية الفرنسية . وأعاد الآن الكلام فى هذا الرأى مع دى لونكل الذى تأثر بالفكرة. وعلى أي حال نظم مؤتمر مع رئيس وزراء فرنسا مسيو كازمير بيرييه M. Casimir Perier وبحث الموقف بحثا تاما فى ١٧ من يناير سنة ١٨٩٤ ، ولكن رئيس الوزراء قرر نهائيا أن المشروع جرىء جدا ومن المحتمل أن يؤدى الى نزاع مع ايطاليا .

وعندما عاد مونتيل من برلين فى مارس أخذ يحث حكومته على ضرورة العمل ، وبين فى خطاب الى مكتب المستعمرات فى ٧ من مارس أن الحملة كانت قد قررت فى الاصل نظرا لاعمال الانجليز فى أوغندة ولمجهوداتهم الواضحة للسيطرة على النيل من الجنوب «واذا ما سيطر الانجليز على أعالى وأواسط حوض النيل فانهم عندما يشاءون يمكنهم أن يخصبوا أو يجدبوا البلاد التى تقع فى النيل الاسفل ببناء قليل من القناطر » وختم قائلا ان فاشودة ذات أهمية كبيرة لانها تسيطر على النيل وبحر الغزال ونهر السوباط ، ولانها سبيل للاتصال بالحبشة . والعقبة الوحيدة للمشروع كله هى معارضة حكومة الكونغو ويمكن ازالتها بالمفاوضات .

وبناء على آراء مونتيل أعادت الحكومة الفرنسية فتح باب المباحثات مع ليوبولد وأرسلت مفاوضين قديرين هما مسيو هانوتو ومسيو هاوسمان Haussman الى بروكسل فى ١٦ أبريل . ولمدة

عشرة أيام تبودلت المناقشات والحجج بدون تقدم ملحوظ . وأصر ليوبولد على ألا يأخذ أقل مما عرض عليه في سنة ١٨٩٢ ، ولم يكن الفرنسيون في مركز يمكنهم من عرض هذا في سنة ١٨٩٤ . وفي ٢٥ من أبريل أوقفت المفاوضات ورجع المندوبان الفرنسيان الى باريس (١) .

ولم يكن الانجليز غير مهتمين بما يحدث بين ليوبولد وفرنسا كما يبدو ذلك واضحا من الفصول الاخيرة لكتاب لجارد الذى نشر في خريف سنة ١٨٩٣ وجاء فيه « أما عن فرنسا فلم يكن هناك التزام يمنعها من أن تعتدى على السودان ، وقال ان مصر قد تركت كل مطالبها هناك، ولم تعترف فرنسابالاتفاقات المعقودة بين بريطانيا من جهة والمانيا وايطاليا من جهة أخرى . ولقد أظهرت حملة فان كركهوفن أغراض البلجيكيين ، وكان يخشى أن تكون فرنساوليوبولد قد اتفقا على ترك لادو لفرنسا ، اذا سيطرت فرنسا على حوض النيل فانها بدون شك سوف تحتاج الى الحصول على منفذ الى البحر الاحمر حيث كان لها في ذلك الوقت قدم في أوبك Obok» . ومن الممكن أن تفعل ذلك عن طريق تسوية مع ايطاليا أو الحبشة . وكان الروس في ذلك الوقت يبدون نشاطا في الحبشة مستغلين الروابط الدينية المزعومة . واذا ما ثبتت فرنسا مركزها في النيل الاعلى فمن السهل أن تشيد خزانا على البحيرات وتقطع عن مصر امداد المياه في فترة الصيف (٢) .

قدم لجارد هذه الحجج معضدا ضم أوغندة التى سوف تدعم مركز الانجليز بالتدريج وسوف تجبر فرنسا ودولة الكونغو على الاعتراف بنفوذهم الوحيد في وادى النيل ، وبعد تردد كبير أعلنت

---

1. Ibid., p. 394 - 396.
2. Lugard, Fredrick D. : The Rise of our East African Empire, London 1893, vol. 2, pp. 566 - 584.

الحكومة البريطانية الحماية على أوغندة ، ولكن هذا لم يعتبر كافيا اذ كان تهديد وادى النيل كبيرا جدا •

وفي الحبشة كان الفرنسيون والروس نشيطين حقا، فالفرنسيون هم الذين لفتوا نظر منليك في ١٨٩٠ الى التفسير الايطالى لمعاهدة اتشيالى ، ودفعوه الى احتجاج أهملته بريطانيا بهدوء في اتفاقاتها مع ايطاليا سنة ١٨٩١ • والفرنسيون أيضا هم الذين جعلوا منليك يرسل مذكرة دورية فى ١٠ أبريل سنة ١٨٩١ يردد فيها أحقيته في كل المنطقة حتى شاطىء النيل الايمن ويعبر عن غرضه فى أن يمد دولته الى حدود الحبشة القديمة «الى الخرطوم وبحيرة نيانزا» وليؤكد منليك غرضه هذا منح في فبراير سنة ١٨٩٣ ألفرد الج Alfred Ilg وهو مهندس سويسرى كان يعمل مستشارا خاصا ، اذنا بأن ينظم شركة ويدرس الخط الحديدى الذى يبدأ من الميناء الفرنسى جيبوتى ويعبر مناطق هرر وأنتوتو Entotto وكافا Kaffa حتى النيل الابيض •

وكان من الضرورى أن يعزز البريطانيون قوتهم على الحدود الحبشية وكان مسيو تشفنو Chefneux وهو زميل لالج وشخصية خطيرة في الشئون الحبشية قد نجح فى أن يحصل على وعد في باريس بامداده بالمال • وفي ٩ من مارس ١٨٩٤ منح الامتياز بوساطة منليك لانشاء الطريق الحديدى الى هرر ، وسيكون هذا أول مد للخط الى أديس أبابا والنيل الابيض • ولم يكن واضحا أن الانجليز يعرفون ذلك أو أثر فى أعمالهم ولكن اتفاقياتهم السابقة مع ايطاليا كانت قد أظهرت من غير شك أن الانجليز كانوا يدركون أنه « يجب على مصر دائما — على سبيل الدفاع عن النفس — أن تكون في مركز تسيطر فيه على الحبشة، سواء بطريقة مباشرة أوغير مباشرة » ، ومنذ فبراير كان كتشنر، وهو فى ذلك الوقت في خدمة الحكومة المصرية، يقترح القيام بمفاوضات مع ايطاليا للتعاون ضد قوات الدراويش المركزة

حول كسلا وكان الايطاليون شغوفين بأن يسهموا فى هذا آملين دائما أن اتفاقا من هذا النوع سوف يؤدى الى زمالة فى القتال واتفاق أكثر مع بريطانيا (١) • وفى ٥ من مايو سنة ١٨٩٤ وقعت معاهدة جديدة وكانت فى الاصل تخص تخطيط الحدود بين الصومال البريطاني والمناطق التي يطالب بها الايطاليون• ولكن كانت هناك مذكرة رسمية منضمة الى البروتوكول أعترف فيها بترك هرر الى ايطاليا، وذلك بالرغم من المعاهدة الانجليزية الفرنسية التي عقدت في سنة ١٨٨٨ بشأن هذه المنطقة • فى حين كان هناك فى نفس الوقت تصريح سرى سمح لانجلترا بالعمل هناك وباعتبار هذه المنطقة ضمن نفوذها حتى تكون ايطاليا مستعدة لتسلمها • وكانت هرر الطريق الاساسي الى الحبشة والتسوية الجديدة مع ايطاليا تقف حائلا دون أية محاولة من فرنسا لتسيطر على هذه المنطقة الاستراتيجية •

وفى الغرب كما فى الشرق بدأت الحكومة البريطانية تتخذ احتياطات لحماية وادى النيل من الاعتداء • ولم تكن بعثة مونتيل الفرنسية سرا ، وكان معلوما فى لندن أن دى كازس Decazes كان قد وصل بمقدمة قوته قبل نهاية سنة ١٨٩٣ الى أبيراس Abiras عند التقاء نهرى ولى Welle وموبومو M'bomu وكان لجارد وكتاب آخرون يحذرون الحكومة باستمرار من مشروع الفرنسيين لضم ممتلكاتهم فى الشرق والغرب ومن نشاطهم فى الحبشة وخطر تقدمهم فى حوض النيل من الكونغو الفرنسية ومن أوبك • وبلغ التنافس بين فرنسا وانجلترا فى نيجيريا درجة التوتر • ولهذه الاسباب فتحت الحكومة الانجليزية باب المفاوضات مع برلين • وفى ١٥ من نوفمبر سنة ١٨٩٣ وقعت معاهدة تحدد الحد الغربى (٢) للكمرون وتسمح للممتلكات الالمانية بأن تمتد شمالا حتى بحيرة

1. Die Grosse Politik, VII, nos. 1988 - 1991, 1996.
2 E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, Vol. 3, p. 912.

تشاد • وكان الحد الجنوبي للكمرون قد قرر بوساطة اتفاق فرنسي ألماني في ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٥ (١) ولكن الحد الشرقي كان مفتوحا ومن الممكن مده حتى حدود دولة الكونغو • فاذا كان الالمان قد رغبوا في التوسع شرقا ، كما كان يأمل الانجليز ، لقطعوا الطريق على امتداد المناطق الفرنسية الى النيل ولكن لم يكن في استطاعتهم التدخل في مطالب الانجليز ، لان المادة الرابعة تقول « ان نفوذ ألمانيا •• سوف لا يمتد شرقا أبعد من حوض نهر شارى Shari ودارفور وكردفان وبحر الغزال •• سوف تكون خارجة عن نفوذها ، حتى ولو وقعت أفرع نهر شارى ضمن هذه المناطق » •

وأدرك الفرنسيون مرامي هذه التسوية واحتجوا عليها • وكان وكلاؤهم ووكلاء الألمان في تنافس حاد في الاراضي الداخلية للكمرون • وكانوا شديدي الرغبة في تسوية ما • وقد حث مونتيل وآخرون على ابرام هذه التسوية • وكانت الحكومة الالمانية التي هدأتها تماما مظاهرة طولون ، راغبة في أن تسوى مشاكلها مع فرنسا وروسيا • ولذلك أرسل مونتيل وهاوسمان الى برلين للتفاوض • وسارت المحادثات في جو ودى ، وفي ٤ من فبراير وصل الى اتفاق وقع في ١٥ من مارس ١٨٩٤ (٢) • وكان هذا نصرا كبيرا لفرنسا اذ أنه في مقابل بعض الامتيازات البسيطة للالمان وافقوا على تحديد الحد الشرقي للكمرون الذى ترك لفرنسا الحرية في التوسع شمالا حتى بحيرة تشاد وشرقا كما يريدون • وأكثر من هذا بذل الامبراطور وليم وكابريفي Caprivi ما في وسعهما لتدعيم الاتفاق بين فرنسا وألمانيا • واذا ما صدقنا تقرير مونتيل عن ذلك ، فان كابريفي ذهب الى حد أنه ذكر الالزاس واللورين ، ووصف ضمهما بقوله « انه عمل غير سياسي » وأضاف قائلا ان الامبراطور

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, Vol. 2, p. 653.
2. Ibid., vol. 2, p. 657.

الالمانى لا يمكنه بطبيعةالحال أن يتنازل عن أى قطعة ورثها ولا يمكن هذا دون تعويض على الاقل وختم قائلا « عليكم أن تبحثوا لنا عن الوسائل التى يمكننا بها أن نعيد اليكم المناطق المفقودة » وطبعا نظر فى باريس الى هذه الاقترحات بريبة غير عادية • وبالرغم من ذلك ، ففيما يختص بافريقية فان الفرنسيين قد حصلوا على كل ما يهمهم (١) •

ولا داعى لتوضيح عدم رضاء الانجليز عن نتائج المفاوضات الفرنسية الالمانية • فما أعطوه للالمان فى نوفمبر أعطاه الالمان بدورهم للفرنسيين فى فبراير • وزادت متاعب حكومة الاحرار أيضا من جراء ادعاءات حكومة الكونغو • وقد سئلت أسئلة تدل على قلق مجلس العموم البريطانى من التقدم البلجيكى ، ولكن الحكومة لم تكن تعرف شيئا محددا وكان الكولونيل كولفل Colvile المندوب السامى فى أوغنده فى ذلك الوقت — يقوم بحرب غير معروفة السبب مع كباريجا Kabarega ملك أونيورو ، وقد أرسلت اليه تعليمات بأن يرسل أحد أتباعه وهو الصاغ أوين Owen بلقب « مساعد المندوب السامى لوادى النيل Assistant-Commissioner for the Nile Valley وبتعليمات « ليتأكد من صحة هذه الاشاعات •• بأن بعثة أرسلتها حكومةالكونغوالحرة تحت امرة المرحوم كابتن فان كركهوفن ، قد ثبتت مراكزها داخل مناطق النفوذ البريطانى المبينة فى المعاهدة الانجليزية الالمانيةالتى عقدت فى عام ١٨٩٠» . وبالفعل سار أوين الى وادلاى ووصلها فى ٤ من فبراير ووجدها قد أخليت فرفع العلم البريطانى على جانبى النيل وعقد معاهدات مع رؤساء القبائل المحليين وترك حامية هناك •

ولكن هذه الحقائق لم تكن معروفة فى أوروبا حتى مايو ، وقبل

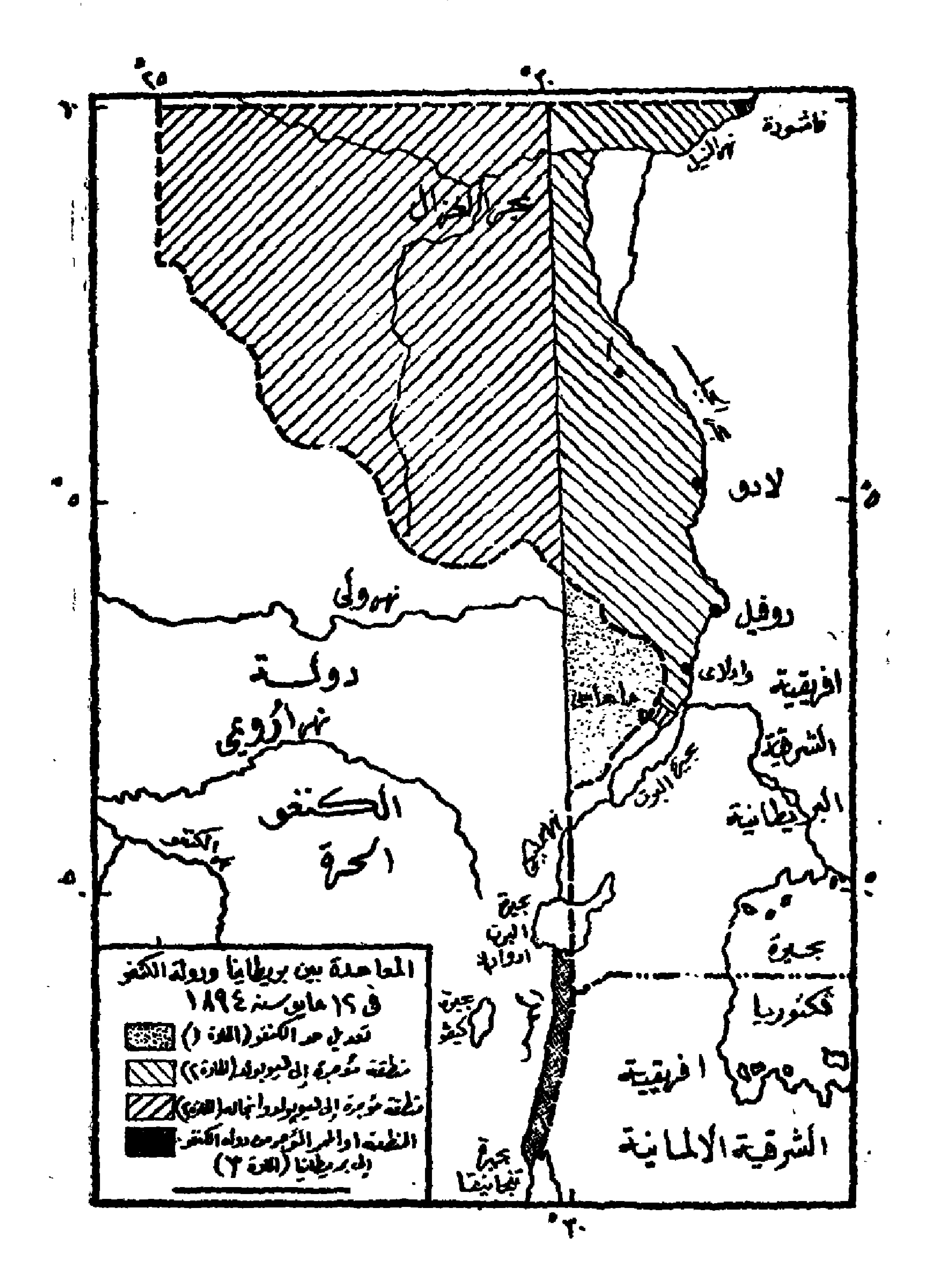
---

(١) Darcy, Jean : Cent Années de Rivalité Coloniale, Paris, 1904, p. 267.

ذلك الوقت كانت الحكومة البريطانية تشعر شعورا خفيا بالمفاوضات بين ليوبولد وفرنسا • وكان لابد لها من أن تعمل شيئا ما ، ولذلك استقر رأيها على تسوية المسألة مع ليوبولد ، وهو الجانب الاقل صلابة وفى أواخر مارس أسرع رينل رود Rennell Rodd الذى كان وكيل الحكومة البريطانية فى زنجبار الى بروكسل • ولكى يخفى الغرض من بعثته ذهب أولا الى برلين وفى فترة وجيزة وصل الى اتفاق مع ليوبولد • وفى ١٢ من ابريل كان من الواضح أن أهم المسائل فى المعاهدة كانت قد سويت ، لانه فى ذلك التاريخ أبرق اللورد كمبرلى Kimberley الى الوكيل فى زنجبار قائلا « اكتب الى الكولونيل كولفل Colvile أننا وصلنا الى اتفاق ودى سوف يبقى البلجيكيون بمقتضاه فى الضفة اليسرى للنيل من بحيرة البرت الى فاشودة كمستأجرين تحت اشراف بريطانيا العظمى • واذا ما اتصل بهم فيجب أن تكون علاقاته معهم ودية » •

ويبدو من هذه الوثيقة ان المعاهدة التى وقعت فى ١٢ من مايو كانت ببساطة عبارة عن اعادة كتابة وقبول اتفاق ماكينون الذى عقد فى ١٨٩٠ مع بعض التعديلات ، اذ أعطت ليوبولد كل ما كان يريده من بريطانيا تقريبا • وبكل تأكيد أكثر مما كان سيمنحه له الفرنسيون • ولهذا السبب لم تكن هناك أية متاعب فى عقد هذه الصفقة مع ليوبولد • وكانت المعارضة الوحيدة من أحد أعضاء الحكومة البريطانية وهو السير وليم هاركورت ، الذى كان متعصبا كجلادستون نفسه • ولم يخبر بادىء الامر بالمفاوضات ، وربما لم يعلم بها حتى سويت كل الشروط . وقد تبين انه قيل له ان هذه المعاهدة سوف تخفف عن بريطانيا بعض مسئولياتها • ولكن هاركورت كان أذكى من أن يخدع بهذا القول لمده طويلة •

وعندما ادرك مرامى المعاهدة احتج بشدة وحاول كل جهده أن ينقض هذه المسألة . وفى ٢٣ من ابريل أرسل سير برسى



فاشودة
نهر النيل
بحر الغزال
لادو
روفيل
نهر ولي
دولـــة
نهر أرويمي
الكنغو
الحرة
بحيرة البرت
بحيرة البرت ادوارد
بحيرة كيفو
بحيرة تنجانيقا
افريقية
الشرقية
البريطانية
بحيرة
فكتوريا
افريقية
الشرقية الالمانية
المعاهدة بين بريطانيا ودولة الكنغو
في ١٢ مايو سنة ١٨٩٤
تعديل حد الكنغو (المادة ١)
منطقة مؤجرة إلى ليوبولد (المادة ٢)
النطقة والممر المؤجر من دولة الكنغو إلى بريطانيا (المادة ٣)

اندرسون Sir Percy Anderson الخبير فى الشئون الافريقية بوزارة الخارجية البريطانية الى بروكسل فى بعثة خاصة ليرى ما يمكن عمله . والظاهر أن ليوبولد رفض أن يتقهقر أو يرجع عن شيء . وجدير بالذكر أن هذا السياسى الماكر العجوز أبقى باب المفاوضات مع فرنسا مفتوحا حتى ٢٥ من ابريل حتى يتأكد من أن كل العقبات التى تعترض المعاهدة مع بريطانيا قد أزيلت، ووقعت المعاهدة فى ١٢ من مايو سنة ١٨٩٤ فى بروكسل . وتتألف من ست مواد . وتنص المادة الثانية على أن تؤجر بريطانيا الى الملك ليوبولد الثانى ، ملك بلجيكا ودولة الكونغو الحرة مناطق غرب بحيرة ألبرت وتتبع خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو حتى خط طول ٢٥ شرق جرينتش . وتبلغ هذه المناطق نقطة شمال فاشودة وتنص المادة الثالثة على « أن دولة الكونغو الحرة تؤجر لبريطانيا العظمى ، لتحتل وتدير بالشروط والمدة المحدودة ممرا من الارض عرضه ٢٥ كيلو مترا ويمتد من الميناء الذى يقع فى أقصى شمال بحيرة تنجانيقا ، والذى يقع هو نفسه فى هذا الممر الى نقطة تقع فى أقصى جنوب بحيرة ألبرت ادوارد . ومدة هذا الايجار هى نفس مدة ايجار المناطق التى تقع غرب خط ٣٠ شرق جرينتش » (١) . وعرضت المعاهدة على البرلمان البريطانى فى ٢١ من مايو . وحتى قبل ذلك الوقت كانت أخبارها قد تسربت الى باريس . واذا تذكرنا أن الفرنسيين كانوا يتفاوضون مع ليوبولد وانهم لم يفقدوا الامل فى عقد اتفاق معه فاننا ندرك عاصفة الغضب التى قامت فى العاصمة الفرنسية . ومن سوء حظ فرنسا انها وجدت نفسها فى هذه اللحظة وسط احدى أزماتها الوزارية المتكررة . وربما نشرت المعاهدة فى تلك اللحظة على أمل ألا تسترعى نظر الفرنسيين . ولكن الحال كانت خلاف

---

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty. Third Edition, London 1909, vol. 2, pp. 579 - 580.

ذلك ، اذ فى فترة ستة ايام (من ٢٢ الى ٢٧ من مايو) شكلت وزارة جديدة بوساطة مسيو ديبوى M. Dupuy وفى أثنائها أيضا كان الفريق الاستعمارى فى مجلس النواب الفرنسى يخطو خطوات واسعة ويقدم حججه . وزاد من اشتعال النيران نشر الاتفاقية البريطانية الايطالية المعقودة فى ٥ من مايو . واستعرضت فى مجلس النواب الفرنسى اتفاقات فرنسا السابقة ومطالبها ضد الكونغو . ورددت على منبره حقوق المصريين والاتراك فى السودان ، كما بينت سياسة بريطانيا ذات الوجهين فى مسألة هرر .

وفى ٢٧ من يونيه حدثت مناقشة هامة فى مجلس النواب الفرنسى ، وبدأ مسيو ايتيين Etienne زعيم الفريق الاستعمارى فى المجلس باستعراض تاريخى مطول عن نشاط انجلترا فى افريقية ملقيا اللوم بشدة على الانجليز لوضعهم العراقيل فى طريق الفرنسيين . وتبع ايتيين استعمارى متطرف آخر هو مسيو فرانسوا دى لونكل François Deloncle ولم يتناول دى لونكل تفاصيل معاهدة الكونغو والاتفاقية البريطانية الايطالية . ولكنه ركز كلامه فى الأهم من ذلك ، اذ بين أن السياسة البريطانية كرست نفسها لسنين عدة لحماية حوض النيل . ومن ثم كانت هذه السلسلة من الاتفاقيات التى ترجع الى سنة ١٨٩٠ . لماذا كان البريطانيون يتبعون هذه السياسة ؟ كان السبب واضحا . ثم أخذ دى لونكل يناقش تقرير المهندس الفرنسى مسيو برمبت الذى ادخله فى حسابه وأشار الى خطط برمبت فى تشييد الخزانات الكبيرة عند مصب السوباط وفى البحيرات . وقال ان هذه « مشروعات عظيمة جديرة بالعبقرية الفرنسية » ولكنه اضاف ان برمبت كان أصرح مما يجب أن يكون عليه المهندسون فلم يخف أنه من الممكن خزن مياه كافية فى بحيرة البرت لمحو المدنية المصرية اذا ما أطلقت فى وقت الفيضان . وذكر دى لونكل ان رغبة بريطانيا فى السيطرة على حوض النيل ووضع مصر تحت رحمتها زادت بلا شك منذ توضيحات برمبت هذه . كما بين ان

تقرير برمبت كانت له أهمية كبيرة فى تشكيل السياسة الفرنسية. ومن المحتمل أيضـــا السياســة البريطانية . وعلى الرغم من ذلك فان مسيو هانوتو ، وزير الخارجية الجديد ، الذى كان يتفاوض قبــل ذلك بستة أسابيع فى بروكسل فى وقت كان البلجيكيون قد اتفقوا فيه مع البريطانيين ، لم يكن مترددا فى الافصـــاح عن رأيه بصراحة . فذكر المجهودات الفرنسية الضائعة للوصول الى تفاهم مع الملك ليوبولد واهتم بالاتفــاقات السابقة عن حــدود دولة الكونغو ، واخيرا دخل فى مناقشة طويلة عن حقوق تركيا ومصر ، التى كانت قد وضعت منذ وقت قريب فى سنة ١٨٩٢ فى فرمان تولية الخديو الجديد ، وهو فرمان كانت قد وافقت عليــه كل أوروبا ، وبين أن بريطانيا تتنازل عن مناطق لم يكن لها فيها اى حق . وإن فرنسا لا تستطيع أن تسمح بتمزيق المعاهدات المقدسة اربا اربا بهذه الكيفية (١) .

كانت كلمات الفرنسيين جريئة . وعلى الاقل يرجع موقفهم الصلب ، الى حد ما ، الى احتجاجات الحكومة الالمانية ضــد المعاهدة نفسها . وهنا تحدث قصة طريفة وغير عادية : كانت الحكومة البريطانية بطبيعة الحال تشعر عندما وقعت معــاهدة الكونغو أن الفرنسيين ســوف يغضبون . ولهــذا السبب بذلت مجهودات ، فى أثناء الاسابيع التى تلت توقيع الوثيقة ، للتفاهم مع الالمان بشكل ما . وتناسى الانجليز موضوع المعاهدة الفرنسية الالمانية التى وقعت فى ١٥ من مارس سنة ١٨٩٤ بشأن الكمرون. واقترح اللورد كمبرلى Kimberley امكان العمل المشترك لايقاف تقدم الفرنسيين . ولكن صيحاته لم تأت بنتيجة ما . ولو ان الانجليز كانوا مستعدين لتنفيذ رغبات الالمان بشأن ساموا لكان من المحتمل أن يتم شيء ولكن حدث أن كمبرلى لم يتقدم بشيء ما

---

1. Egypt No. 2 (1898), Appendix No. 1 (Memorandum communicated by M. Decrals, August 8, 1894).

فى هذا الاتجاه ، فان الالمان كانوا يعـزون أنفسهم بالتفكير فى أن الانجليز يقلقهم شبح اتفاق فرنسى ألمانى فى الشئون الافريقية (١).

ولم يتبع هذا أن الالمان ــ لهذه الحقيقة نفسها ــ سـوف يثيرون اعتراضات على معاهدة الكونغو . والذى أثارهم وأعطى لهم سببا منطقيا للاعتراض هو المادة الثالثة من المعاهدة ذاتها. تلك المادة التى بمقتضاها كان على دولة الكونغو أن تؤجـر الى بريطانيا العظمى منطقة من الارض اتساعها ١٦ ميلا وطولها ١٨٨ ميلا من الشاطىء الجنوبى لبحيرة ادوارد الى الحد الشـمالى لبحيرة تنجانيقا . ولا تزال الطريقة التى أدخلت بهـا هذه المادة فى المعاهدة سرا غامضا الى الآن . وكانت هذه المنطقة لازمةلانشاء خط تلغراف وربما لانشاء خط حديدى بعد ذلك ، وقـد تكون هذه المنطقـة حلقة اتصـال هامة فى المشروع المشـهور بالخط الحديدى من الكاب الى القاهرة . ولقد ظن الكثيرون أن رودس كان مسئولا عن كل ذلك ، ويبدو أن هذا هو الواقع . اذ كان راغبا فى الحصول على امتيازات من اجل خط التلغراف المذكور، وبين سنتى ١٨٩٢/١٨٩٥ تفاوض مع الحكومة الالمانية فىالموضوع. ولم ينتج شىء عن المحادثات ، لان الالمان كانوا يخشون أن يؤدى هذا الى أن يستأذنهم الانجليز فى تشييد مراكز محصنة أوالتنازل عن بعض المناطق . وأوحى رودس ، الذى كانت له اتصـالات ودية بروزبرى الى الحكومة لكى تحصل على المنطقة اللازمة من دولة الكونغو . وكان روزبرى ، الذى اضطر لان يؤجر بحر الغزال الى ليوبولد مسرورا لارضائه المتحمسين لمشروع الكاب القاهرة. وقد تكلم سير فردريك لجارد عن المشروع بأنه مجرد مسـألة عاطفية سخيفة ولكن شخصا كتشارلز ديلك Charles Dilke أعرب عنأسفه علانية ، بأنه فى سنة ١٨٩٠ لم يتمكن سولسبرىمن الحصول من الالمان على المنطقة اللازمة لهذا الخط . وعلى اى

1 Die Grosse Politik, VIII, nos. 2022 - 5.

حال لم يبد معقولا أو مصدقا أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن تعرف شيئا عن مجهودات سولسبرى الضائعة فى سنة ١٨٩٠ وعن المعارضة التى لا تلين من الالمان ولكن هكذا دارت المناقشة ·

ومهما كان الامر فان المادة الثالثة من الاتفاقية كانت خطيرة جدا بالنسبة للبريطانيين وكان الالمان بطيئين فى تدعيم مركزهم · فعندما نشرت الاتفاقية فى الصحف أرسلت تعليمات الى وزيرهم فى بروكسل ليحصل من حكومة الكونغو على تصريح بأن المنطقة المؤجرة سوف لا تقل عن عشرين كيلو مترا من حدود شرق افريقية الالمانى · ولم يعارض ليوبولد هذا الترتيب (١) · ولكن فى ٢٧ من مايو أرسلت الحكومة الالمانية احتجاجا شديد اللهجة ضد المادة الثالثة من الاتفاقية · وفى نفس اليوم أعلنت فرنسا اعتراضاتها · ولم يكن هناك اتفاق على العمل المشترك بين القوتين المعارضتين ، ولكن نعلم من رسالة الى هاتزفلدت Hatzfeldt فى ٢٨ من مايو أن الحكومة الالمانية فكرت فى استخدام معاهدة الكونغو كوسيلة مناسبة للتقارب من فرنسا ، أملا فى أن مثل هذا الاتفاق سوف يجعل انجلترا تمنح امتيازات فى ساموا Samoa (٢) ·

وكان تأثير الاعتراضات الالمانية فى وزارة الخارجية البريطانية ضئيلا اذ لم تكن هذه المعارضة متوقعة من جانبهم · وعندما أتت لم يهتم بها الانجليز · وفى هذه الظروف كان الانجليز يتوقعون وجهة نظر فرنسا ، ولذا قابلوها بهدوء · وكما بين مسيو هانوتو فى مجلس النواب الفرنسى فى ٧ من يونيو ، لم يظهر الانجليز فى بادىء الامر أية رغبة للدخول فى محادثات · وكانت وجهة نظرهم كما يأتى : بما أن المناطق المؤجرة الى ليوبولد أيا كان صاحبها لا تتبع فرنسا فان الحكومة الفرنسية ليس لها وجه حق · أما

1. Die Grosse Politik, VIII nos. 2032, 2033.
2. Ibid., VIII nos. 2034, 2035.

عن حقوق تركيا ومصر ، فان مذكرة ملحقة بالمعاهدة تذكر أن الطرفين المتعاقدين لا يتجاهلان هذه المطالب .(1) وعندما بذلت محاولة فى مجلس العموم لتوضيح تلك الحقوق التى لم يتجاهلوها تهرب وكيل وزارة الخارجية من الاجابة ولكنه أخيرا ذكر ان تلك المطالب محفوظة مهما كانت ، وقد أثارت هذه الملحوظة روح الفكاهة فى المجلس .

وعلى أى حال فان البريطانيين لم يكونوا مستعدين للاعتراف بأى حق لفرنسا فى التدخل وأصر البلجيكيون ايضا على أن بحر الغزال لا شأن له بمشكلة الاوبانجى — موبومو ، وهى مشكلة صادفوها فى محادثات سابقة . ولا نعرف شيئا عن تفاصيل المفاوضات الانجليزية الفرنسية فى هذه الايام ، حيث أن الكتاب الازرق الخاص بها لم يعرض مطلقا على البرلمان . ولكن كما يبدو كان يسودها جو من المرارة والشدة . وادعى مسيو هانوتو أن السفير البريطانى اللورد دوفرين ذهب الى حد أنه تكلم عن انذار قال انه يضعه فى جيب معطفه .

وقد أدت هذه الازمة فى العلاقات الانجليزية الفرنسية الى نقد فى مجلس الوزراء البريطانى لسياسة وزارة الخارجية . واعترض السير وليم هاركورت ، الذى كان معارضا منذ البداية للمعاهدة بشدة على أى اثارة لفرنسا . وقال روزبرى ان الفرنسيين كانوا مضطرين « لانهم فشلوا فى محاولتهم عمل نفس الشىء » . ولكن وجهة النظر هذه لم تكن مقنعة . ومما زاد الطين بلة أن الالمان كانوا فى ذلك الوقت لا يزالون مصرين على الغاء المادة الثالثة من الاتفاقية . وكانوا يستعملون الضغط الشديد فى بروكسل . وازدادت مذكراتهم شدة حتى أن روزبرى وصفهم الى السفير النمساوى بأنهم غير محتملين . وفى الوقت

1. Egypt No. 2 (1898), Appendix No. 2 (The Earl of Kimberley to the Marquess of Dufferin, August 14, 1894).

نفسه بين رئيس الوزراء « انه اذا كانت المانيا ستنحاز الى فرنسا أو تتظاهر بأخذ جانبها فى هذا الامر أو فى أية مسائل افريقية أخرى ، فيجب علينا أن نبحث موقفنا العام فى أوروبا وعلى الاخص فى منطقة البحر الابيض المتوسط وفى الشرق » . وختم قائلا ان المذكرة الالمانية تصلح للمفاوضات مع موناكو وليس مع انجلترا. وفكرت الملكة فعلا فى كتابة توجيه لوم الى الامبراطور . ولكن سفيرها فى برلين نصحها بعدم فعل ذلك . وقال ان شعور الالمان هذا طبيعى ، وان الامبراطور قد جرفه تيار الرأى العام . وأن المنطقة المتنازع عليها تكون ذات قيمة كبيرة اذا كانت جزءا لا يتجزأ من المنطقة البريطانية ، ولا تكون ذات قيمة اذا كانت تعترضها التزامات دولة الكونغو وحيادها . وأعرب عن قلقه الشديد من أن تقف المانيا ضد انجلترا فى المسألة المصرية « حيث يؤدى اتحاد فرنسا والمانيا بالامور الى أزمة » (١) . وفى نفس الوقت انزعج ليوبولد من المذكرات التى انهمرت عليه من برلين . وأخيرا خولت له وزارة الخارجية البريطانية أن يطلب عدم العمل بالمادة الثالثة المعترض عليها ، وتم ذلك بتصريح فى ٢٢ من يونيه ١٨٩٤ . وهذا نصه « نظرا للالتماس المقدم من صاحب الجلالة ملك البلجيك ، وملك دولة الكونغو الحرة بأن توافق حكومة جلالة ملكة بريطانيا على سحب المادة الثالثة من معاهدة ١٢ من مايو ١٨٩٤ ، يوافق الموقعان أدناه والموكلان من حكومتيهما على سحب هذه المادة » .

حرر فى بروكسل من نسختين فى ٢٢ من يونيه ١٨٩٤ .

امضاءات

2 F.R. Plunkett * Edmond Van Eatvelde

وكانت فكرة روزبرى أنه اذا أرضى الالمان فانهم سوف

1. Die Grosse Politik, vol. VIII, nos. 2034 - 62.
2. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 2, p. 584.

يكونون راغبين فى التعاون معهم لاحباط عمل فرنسا . وفى مذكرة بتاريخ ١٧ من يونيه أكد هذه الحقيقة :

« ان النيل هو مصر ومصر هى النيل ، وانها باعتبارها الدولة المحتلة فان همنا الاول هو الحصول على اعتراف من الدول العظمى بهذا المبدأ . واقترح وجوب عقد مؤتمر نحدد فيه منطقة نفوذنا بمساعدة المانيا . ويضاف بروتوكول ينص على انه عندما تكون مصر فى مركز يمكنها من اعادة احتلاله فيجب علينا بكل سرور ان نسلم لها هذا الجزء الذى تحت سيطرتنا فى الوقت الحاضر »

وهكذا سوف يحقق الفرض من معاهدة الكونغو الانجليزية. وكان هذا التقدير فيه شيء من البساطة أكثر من اللازم . فان التعاون بين فرنسا وألمانيا كان أهم مما يدرك روزبرى . فبعض المؤرخين تكلموا عنه كأنه تدخل مشترك ، واتهم آخرون الالمان بنقض الاتفاق وترك فرنسا عندما ألغيت المادة الثالثة من المعاهدة. ولم يكن هذا الاتهام عادلا اذ أن التعاون الفرنسى الالمانى كان منظما دقيقا وفعالا ، والذى حدث هو الآتى :

فى ١٣ من يونية تكلم وزير خارجية ألمانيا مع السفير الفرنسى عن مجهودات الانجليز فى اثارة الفتنة بين فرنسا وألمانيا وعما يجب عمله لاحباط ذلك . وبين أن المصالح الفرنسية والألمانية ليست متشابهة ولو أن للدولتين مصلحة مشتركة فى الموقف الخاص بوسط افريقية كما نظمته المعاهدات . وأخذت الحكومة الفرنسية بهذا الاقتراح وحاولت توسيع نطاق التعاون . واقترح أنه من الواجب أن ترتبط الدولتان بتسوية معينة حتى ينالا مايبغيانه . وبين مارتشال Marschall أن هذه السياسة ذهبت الى حد بعيد . واقترح أن يحاول كل فريق ابقاء الاخر فى مركزه وأنه قبل قبول تسوية ما يجب على كل أن يخبر الآخر بغرضه وعما يقبله فى المستقبل . واتبع هذا الاجراء بالفعل ، وليس هناك دليل فى الوثائق المعاصرة على أن الحكومة الفرنسية كانت تكره عمل المانيا فى قبول

الغاء المادة الثالثة • وعلى العكس فان مسيو هانوتو نفسه صرح بأنه راض عن ذلك ، وانه يأمل أن تتحسن العلاقات بين الدولتين •

وعلى الرغم من الغاء المادة الثالثة فان باب المطالب الفرنسية بقي مفتوحا وكان من الممكن أن تنال الحكرمة الفرنسية تقدما ما مع الانجليز ، ولكن ليوبولد كان في موقف أكثر تعارضا منهم • وكانت الحكومة الفرنسية مصرة على وقف التقدم البلجيكي مهما كلفها ذلك وتقرر ارسال مونتيل في الحال لطرد البلجيكيين من المنطقة شمال خط عرض ٥٤ وليسير نحو النيل • وكان على بعثة أخرى آتية من الحبشة أن تجلب المؤن من اتجاه السوباط • وفي ٩ من يونيه اعتمد مجلس النواب الفرنسي مبلغ مليون وثمانمائة ألف فرنك من أجـل الدفاع عن المصالح الفرنسية في أفريقية • وعين مونتيل مندوبا ساميا في منطقة أعالي الأوبانجي ووضع كل الوكلاء الآخرين تحت امرته • وفي ١٦ من يولية أبحر من مرسيليا • وبينما كانت هذه الاستعدادات على قدم وساق بذل كل مجهود لكي يسلم ليوبولد بالأمر • ولقد قال دبلوماسي بريطاني ان الحكومة الفرنسية تمادت حتى أنها أوعزت الى ليوبولد بأنه اذا أصر على سياسته هذه فان ذلك قد يكلفه عرشه • قد يكون ذلك مبالغا فيه •ولكن الحقيقة أن ليوبولد أرغم على الاتفاق الذي وقعه مع فرنسا في ١٤ من أغسطس • ولقد ذكرت هــــذه الكلمات في مذكرة بلجيكية كتبت بعد ذلك وتنحي باللائمة على الانجليز لتخليهم عن الملك ليوبولد في هذه‌الظروف •

وكانت الاتفاقية في الحقيقة حلا وسطا اذ أعطى ليوبولد حد الموبومو وخط تقسيم المياه بين النيل والكونغو حتى خط الطول ٣٠° شرقا • ومن ناحية أخرى عاهد نفسه « ألا يقوم بأي احتلال أو بأي نفوذ ســـياسي في المستقبل غرب أو شمال خط محدد هكذا : ٣٠° طولا شرق جرينتش ، بادئا من خط تقسيم المياه بين حوض الكونغو والنيل حتى نقطة يلتقي فيها بخط عرض ٣٠َ ٥° ،

وبعد ذلك يحازى خط العرض هذا حتى النيل (١) • وبعبارة أخرى تنازل عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال • وبقى الطريق مفتوحا أمام الفرنسيين الى النيل • ومن جهة أخرى تركت فرنسا الى دولة الكونغـــو استئجار منطقة اللادو ، واعترفت بأحقيتها في توسيع حدودها وهكذا تنازلت عن جزء من المفروض أنه أرض مصرية ، وكان كل هذا معارضا لموقف الفرنسيين قبل ذلك (٢) •

ولم يبد البريطانيون أى اعتراض على الاتفاق بين فرنســـا وليوبولد وشعر روزبرى أن انجلترا لا يمكنها أن ترغم ليوبولد على احتلال المنطقة المؤجرة له • وبالاضافة الى ذلك فان الملك قد حصل على حد لم يكن يأمل فيه • وعندما بحث رئيس الوزارة البريطانية الأمر من الناحية المالية ، واعترف بأن تاريخ معاهدة الكونغو لم يكن سعيد الحظ ولكن بريطـانيا حصلت على الاقل ـ على اعتراف بمنطقة نفوذها من ليوبولد وتخلصت من معاهدة ماكينون •

وكان هذا حقا ، ولكنها من ناحية أخرى فشلت فى الحصول على المنطقة التى تكمل بها خط حديد الكاب ـ القاهرة ، كمافشلت فى ايقـــاف تقـدم الفرنسيين • ولقـــد أنتقد سير توماس باركلى Thomas Barclay وكتاب آخرون هذه الاتفاقية قائلين انهـــا « احدى الخدع الدبلوماسـية » • ولم يكف المحـــــافظون من نقد روزبرى • وكان من السهل عقد موازنة بين هذه الاتفاقية والاتفاقية التى كانت مع البرتغال فى سنة ١٨٨٤ وكان مصـــيرها الفشل أيضا • ففى الحالتين لم يؤد اهمال الأحرار الا الى تعاون أوثق بين فرنسا وألمانيا • ولم يكن من المعقول أن الحكومة كانت تجهل فى سنة ١٨٩٤ ما تم فى سنة ١٨٩٠ • وعلى أى حال كان من الواجب

---

1. Documents Diplomatiques Français, (1871 - 1914) 1er série ; (1871 - 1900) Tom e XI, p. 318 - 319.
2. Cocheris, Jules : La Situation Internationale de l'Egypte et du Sudan. Paris 1903, p. 411.

أخذ رأى ألمانيا قبل عمل الاتفاق • وعدم فعل ذلك أقنع الامبراطور الالماني ومستشاريه بأن روزبرى لا يريد خيرا للألمان ، وأنه سوف لا يمنح أية امتيازات فى المسائل الاستعمارية ، وسوف ينزعج اذا انضم الالمان الى الفرنسيين ضد البريطانيين ، ولم يكن الالمان فى قرارة نفوسهم يريدون قطع العلاقات مع بريطانيا ، ولكن الحادث كله زاد من شعور عدم الثقة والريبة • واهتمت الحكومتان الايطالية والنمساوية بهذه التطورات ولكنهما لم تفعلا شيئا لتحسين الأمور ، اذ أن الامبراطور كان غير شديد الرغبة فى ذلك كما أن الانجليز كانوا غير ميالين واقتنعوا بأن الألمـــان قد زادوا من قوة الفرنسيين وأنهم يتعاونون مع أعداء بريطانيا فى القاهرة ، وفى القسطنطينية ، وفى مدريد ، وأينما يوجد نزاع على السلطة بين فرنسا وانجلترا (١)•

وهكذا انتهى الدور الأول من ملحمة المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، ولكنه ترك آثارا بعيدة الغور والعمق فى التحالف الأوروبى •

---

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism 1890-1902. New-York 1951, pp. 125 - 141.

الفصل السابع

العلاقات الانجليزية الفرنسية في عام ١٨٩٥

ذكرت سابقا أن فرنسا وألمانيا حطمتا المعاهدة التى أبرمت بين الانجليز والملك ليوبولد في مايو ١٨٩٤ · وقد سبب هذا التعاون بين الدولتين حـــركة فى انجلترا وأدى الى محاولات للوصول الى تفاهم مع فرنسا أو روسيا · ولقد أعترض بعض الوزراء البريطانيين من أول الأمر على سياسة روزبرى وكمبرلى · وعارضوا بشدة أى مسلك قد يؤدى الى احتكاك آخر مع فرنسا ، ويحتمل أنهم ألحوا على اجراء المباحثات الودية مع باريس · واجراء المباحثات التى من هذا النوع كان أمرا حتميـــا فى الواقع ، لأن مشروع ايجاد دولة بلجيكية حاجزة Belgian Buffer State على الشاطىء الأيسر لأعالى النيل قد فشل ، فلا بد من ايجاد وسيلة أخرى لمنع تقدم الفرنسيين من الغرب ·

والظاهر أن المناقشات فتح بابها باقتراح من اللورد دوفرين السفير البريطانى فى باريس فى ذلك الوقت ، وأن الخطة كانت تهدف الى عقد تسوية عامة للمشكلات الاستعمارية كلها دون استثناء مصر نفسها · وقبل هانوتو هذا الاقتراح بارتياح وشارك مشاركة جدية فى المحادثات فكان هو وهوسمان Haussmann وزير المستعمرات يمثلان فرنسا ، وكان يمثل الجانب البريطانى فى هذه المحادثات السير كونستانتين فبس Sir Constantine Phipps وزير بريطانيا

فى باريس (1). ويبدو أن البريطانيين طالبوا صراحة بالاعتراف بمناطق النفوذ البريطانى كما هى محددة فى اتفاقهم مع ألمانيا فى سنة ١٨٩٠ . وهنا وجه هانوتو السؤال الآتى : ما هى مناطق النفوذ البريطانى ؟ كانت لها حدود جنوبية وشرقية وغربية فماحدها الشمالى ؟ وأين ينتهى حد مصر ويبدأ حد منطقة النفوذ البريطانى؟. وردا على كل هذه الاسئلة أجاب فبس ـ والظاهر أن اجابته كانت بدون تعليمات من حكومته ـ بأن الخط الذى يحدد النفوذ البريطانى هو ذلك الخط الذى رسم فى الايجارة البريطانية البلجيكة وهو خط العرض ١٠° شمالا وفى مقابل اعتراف فرنسا بهذا النفوذ على انجلترا أن تستعد لتجمل تعويض عن ذلك ، ربما بالتنازل عن بعض الجزر فى المحيط الهادى أو عن منطقة فى اقليم غمبيا . وعلى أى حال هذا ماكان يجب حدوثه ، ويظهر أنه وضع فى يناير ١٨٩٥ مشروع اتفاق حددت فيه الممتلكات المصرية بالخرطوم جنوبا . وبعبارة أخرى كان الانجليز مستعدين لان يتركوا للمصريين المنطقة التى تمتد من حدود مصر جنوبا حتى نقطة اتصال النيلين الابيض والازرق فقط . وكانوا يرغبون فى أن يحتفظوا لانفسهم لا بأوغندة فحسب بل بكل المناطق التى تقع فى شمالها على طول نهر النيل حتى فاشوده على خط عرض ١٠° شمالا . ومعنى هذا أن المنطقة التى تقع بين فاشودة والخرطوم . سوف تترك ميدانا حرا لتنافس الدولتين .

وتبدو شروط هذه التسوية لاول وهلة أنها غريبة ، لانها تبين أن الانجليز فى وقت ما كانوا مستعدين لان يأخذوا شيئا أقل من السودان كله لمصر التى تقع تحت حكمهم . ومع ذلك فالكتابات المعاصرة ذهبت هذا المذهب . فناقش ملنر ـ فى كتابه المشهور « انجلترا فى مصر » موضوع استرداد السودان حتى فاشودة على النيل الابيض وسنار على النيل الازرق فقط قائلا « هذا ، بالاضافة

1. Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau : Histoire des Colonies Françaises : Tome IV., p. 515.

الى كسلا ، هو كل ما نحتاج لان نفكر فيه في الوقت الحاضر وربما يكون هذا هو كل ما تحتاجه مصر على الدوام » (١) ٠

وشك ملنر في أنه من الحكمة لمصر أن تحاول استرداد كردفان ، أو تقول شيئا عن دارفور أو بحر الغزال أو منطقة خط الاستواء فيقول « حتى ولو كانت مصر أقوى بكثير مما هي عليه الآن ، فاننا نشك في أنه من الحكمة أن تحاول اعادة تدعيم امبراطورية شاسعة تشمل مناطق كردفان البعيدة ، ولا نقول شيئا عن دارفور وبحر الغزال ومنطقة خط الاستواء ٠ انى أعلم أنه قد تكون هناك معارضة قويةلاستردادأى جزء من السودان . قديقال انه اذا كان هذا البلد في الازمان القديمة لا يعوض نفقات حكمه ، فان مصر بكل تأكيد لم تعد تستطيع الانفاق على بلد تابع لها ويكلفها كثيرا٠ ولكن السبب في أن السودان كان خرابا على مصر فيما مضى هو أولا أنها حاولت أن تمتلك جزءا كبيرا منه ، وثانيا أنها ملأته بأعداد وفيرة غير لازمة من الموظفين المدنيين والعسكريين ، وثالثا لان هؤلاء الموظفين كانوا مثال السوء والفساد » (٢) ٠

توجد اذن بعض الأسس للفكرة القائلة ان الانجليز عندما فكروا أو تحدثوا عن استرداد مصر للسودان ، تصوروا حملة تصل الى الخرطوم فقط ٠ ومما لا شك فيه مهما قال الانجليز بعد ذلك أنهم شعروا بحرية مطلقة،على الاقل حتى سنة١٨٩٦،في الاجهاز على المنطقة المصرية التي لم تكن تحت حكم الدراويش ٠ ويتضح ذلك من اتفاقات الانجليز مع ألمانيا ومع سياستهم في أوغندة وأنيورو ومن اجارتهم لليوبولد ٠ فقد ادعوا أن أفريقية الشرقية البريطانية تمتد من المحيط الهندي الى بحيرة فكتوريا ، ومن ثم الى أوغنده ، وأونيورو على طول النيل حتى فاشودة ٠

1. Alfred Milner : Engalnd in Egypt (London, 1926) p. 164.
2' Alfred Milner : Engalnd in Egypt (London, 1926) p. 164.

ولهذه المسألة أهميتها لصلتها الوثيقة بادعاءات البريطانيين فى أوقات مختلفة ولكن لم تكن لها عــلاقة بمجرى الحوادث فى سنة ١٨٩٥/٩٤ لان مشروع معاهدة يناير ١٨٩٥ لم يؤد الى نتيجة ما • فقد رفضته الحكومتان الانجليزية والفرنسية لاسباب غير معروفة ، فمن ناحية الفرنسيين ربما لانه لم يمس موضوع الجلاء عن مصر ولان الوزارة الفرنسية لم تكن مهتمة كثيرا بمشكلة النيل فى ذلك الوقت ، ومن ناحية الانجليز ربما لان روزبرى كان لايريد مواجهة مسألة الجلاء عن مصر • وظن هاركورت أن المباحثات كانت حكاية مضحكة منذ البداية مهما كان للحكومة البريطانية دخل فيها ، ولكننا لانستطيع القول بأن ظنه بلغ مبلغ الحقيقة • وفى خطابات الملكة فكتوريا وجدت اشارات مقنعة عن مفاوضات مع السلطان العثمانى فى خريف سنة١٨٩٤ويبدو أن الاتراك اقترحوا عقد مؤتمر لا نعرف شروط عقده ولكننا نعلم أن روزبرى لم يتحمس لهذا الامر . واذا كان روزبرى قد اهتم بالمسألة عموما ووافق على اجراء مفاوضات مع فرنسا ، فذلك لالحاح هاركورت من جهة ، وللقلق الذى أثير من جراء تعاون ألمانيا وفرنسا من جهة أخرى • ولكن هذا الخطر الاخير قد زال فى الشــهور الاولى من سنة ١٨٩٥ اذ عاد الالمان لســياستهم التقليدية فى تأييد السياسة البريطانية فى مصر (١) •

ذكرت فى الباب السابق أن الحملة التى كانت بقيادة مونتيل Monteil قد فشلت فبعد عقد الاتفاق بين فرنســا ومملكة الكونغو فى أغسطس ١٨٩٤ ، أمر الكاشف الشهير بأن يوجه نشاطه لقمع الثورة التى شبت فى ساحل العاج • وعلى أى حال خيل للبعض أن رغبات الفرنسيين وأطماعهم قد نسيت فى ذلك الوقت • ولكن الحالة كانت بخلاف ذلك• والظاهر أن هانوتو كان مهتما باخلاص لايجاد تسوية • وفشل مشروع الاتفاق بين فرنسا وانجلترا ، ذلك المشروع

1, Die Grosse Politik, VIII, nos. 1859 - 61.

الذى اشرنا اليه ـ مهما كانت أسباب هذا الفشل ـ أدى الى تحمس كبير من جانب الامبرياليين الفرنسيين • وأصبح كثير من الفرنسيين يحلمون ـ أكثر من أى وقت مضى ـ ببلوغ النيل عن طريق بحر الغزال • ولمعارضة المشروع البريطانى الذى يهدف الى وصل الكاب بالقاهرة فى خط غير منفصم من الاراضى البريطانية قام مشروع وصل الاطلنطى بالبحر الاحمر فى خط من المراكز الفرنسية • وقد شبه ذلك بقطع الكمثرى الافريقية بالعرض قبل أن تقطعها انجلترا بالطول (١) •

وفى ١٢ من فبراير ١٨٩٥ صرح مسيو دى برازا De Brazza حاكم الكونغو الفرنسية بأن اتفاق فرنسا ودولة الكونغو بتاريخ ١٤ من أغسطس سنة ١٨٩٤ ضمن لفرنسا دخول وادى النيل وأن على فرنسا أن تتقدم من هذه الناحية • « والوصول الى وادى النيل من الجنوب هو الوسيلة الوحيدة التى ستمكننا فى يوم ما من حل المسألة المصرية وفق مصالحنا » • وبعد ذلك بمدة قصيرة فى ٢٨ من فبراير صرح مسيو دى لونكل M. Deloncle فى مجلس النواب الفرنسى بأن السياسة الفرنسية فى التقدم نحو بحيرة تشاد وأعالى الاوبانجى وأعالى النيل لم تكن مبنية على فرض انشاء مستعمرات دائمة فى هذه المناطق غير الصحية • وانما هدف السياسة الفرنسية هو الضغط على الانجليز لجعلهم يحترمون وعودهم بشأن الجلاء عن مصر وأن فرنسا وقد ضمنت الآن الوصول الى أعالى النيل تستطيع مهاجمة انجلترا من الخلف • وان السياسة الفرنسية زودت فى ذلك الوقت ببراهين وحجج جديدة لاستعمالها فى المفاوضات • وأن فرنسا حصلت على كثير من الضمانات •

هذه الثرثرة أحدثت دويا فى بريطانيا ، وخصوصا أن الاخبار التى تسربت الى انجلترا تفيد بأن لفرنسا نشاطا كبيرا فى أعالى

1. Velay, et. : Les Rivalités Franco-Anglaise en Egypte, 1876 - 1904. Nimes, 1904, p. 169.

الاوبانجي · حقا أرسل مونتيل الى ساحل العاج ولكن ديكازس Decazes كان قد أخذ نصف القوات التي خصصت لحملته · وفي سبتمبر عين ليوتارد الذى وصفه السير فردريك لجارد بأنه ضابط مشهور مقدام ، حاكما عاما على أعالى الاوبانجي وأعطى تعليمات بأن يوسع النفوذ الفرنسي حتى النيل · وبالفعل شرع فى ترتيب احتلال المنطقة في اتجاه خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو ·

وفى ٥ من مارس ١٨٩٥ نبهت جريدة التيمز الى الخطر ، اذ قالت هذه الجريدة الواسعة الانتشار وذات النفوذ « يظهر تماما من تصريح دى لونكل أن الأمبرياليين الفرنسيين سوف لا يستريحون حتى يروا العلم الفرنسى مرفوعا على أعالى النيل · وماذا ستعمل الحكومة البريطانية ؟ لقد سارت قوة فرنسية بتكتم منذ ثمانية شهور ولا بد أن تكون الآن فى ترحيب من النيل · ويبدو أن فرنسا والملك ليوبولد على وفاق تام ، فان دولة الكونغو أمرت بانشاء معسكرات تدريب لاربعين ألف رجل من أجل العمليات فى أعالى النيل · حتى فى الحبشة كان الفرنسيون والروس على جانب كبير من النشاط · فمركز بريطانيا مهدد من كل الجهات ·

ولقد أدت هذه المقالة فى جريدة التيمز الى التصريح الشهير الهام الذى قاله السير ادوارد جراى Sir Edward Gray وكيل الخارجية البريطانية فى ٢٨ من مارس سنة ١٨٩٥ · ففى ١١ من مارس استجوب السير أليس أشميد بارتلت Sir Ellis Ashmead Bartlett الحكومة فى البرلمان عن أقوال دى برازا ودى لونكل فسأل « هل تستطيع الحكومة أن تذكر الآن بوضوح أن كل الطريق المائى لنهر النيل داخل تحت النفوذ البريطانى وأن بريطانيا سوف لاتسمح بأى احتلال أجنبى للنيل ؟ وهل تأكيدات مسيو دى برازا التى زعم فيها أن معاهدة فرنسا والكونغو بتاريخ ١٤ من أغسطس ١٨٩٤ تضمن لفرنسا الدخول الى وادى النيل والوسائل التى تجعل المسألة المصرية فى وضع جديد صحيحة ؟ وهل صحيح أيضا تفسير مسيو دى لونكل

النائب الفرنسى لتلك المعاهدة التى اعتبر بموجبها أن الطريق من الكاب الى القاهرة أصبح مقطوعا ؟ »(١) • فأجاب السير ادوارد جراى وكيل وزارة الخارجية البريطانية بأن اتساع النفوذ البريطانى فى وادى النيل محدد بالاتفاقات التى أبرمت مع ألمانيا وايطاليا فى سنة ١٨٩٠ وأنه لا يستطيع الاضافة الى البيان الذى قيل وقت ذاك • وعندما ألح بارتلت فى أن يصرح عما اذا كان هذا التحديد يتضمن كل الطريق المائى لنهر النيل داخل تحت النفوذ البريطانى أجاب جراى « لا ، ولكن مناطق النفوذ المصرى والبريطانى معا تشمل كل الطريق المائى للنيل » •

كان هذا الاستفهام بادرة حملة على الحكومة • ففى ٢٨ من مارس ألقى السير أليس بارتلت فى مجلس العموم بيانا مفصلا عن الموقف وأكد أن تأمين أعالى النيل كان احدى المسائل الرئيسية فى السياسة الخارجية • كما أكد التهديد الناتج عن طموح الفرنسيين لان يمدوا نفوذهم من غرب أفريقية الى البحر الاحمر • واذا تحقق ذلك فان كل شمال افريقية بما فيه مصر سيصبح ممتلكات فرنسية وسيصير البحر المتوسط بحيرة فرنسية • وسوف تكون المسالة خطيرة جدا اذا أقامت فرنسا نفسها فى أعالى النيل • فقد قال السير ساميويل بيكر أن أية قوة أوروبية تقبض على أعالى النيل سوف تجعل مصر تحت رحمتها • وقال أحد العسكريين أنه لو كان هو المهدى لجعل مصر تدفع ثمن كل ربع جالون من الماء يجرى اليها فى النيل • وقبل ذلك بقليل ذكر السير كولن سكوت مونكريف Sir Colin Scott Moncrieff الخبير فى المسائل المائية الخاصة بمصر « ان المالك المتمدن لاعالى النيل يقبض على مصر فى قبضته •• ان أمة متحضرة فى أعالى النيل سوف تبنى آكيدا قناطر منتظمة عند مخرج بحيرة فكتوريا نيانزا وستكون هذه عملية سهلة • وآذا عملت فان تغذية

---

1. Cocheris, Jules : La Situation Internationale de l'Egypte et du Sudan. Paris, 1903, p. 415.

النيل ستكون في أيديهم ، واذا كان حظ مصر الصغيرة المسكينة سيئة واشتبكت في حرب مع هؤلاء القوم الذين في أعالي النيل فانهم يستطيعون اغراقها أو قطع مدد المياه عنها وفق ارادتهم » . توجد الآن اشاعات عن تقدم الفرنسيين في هذه المنطقة وسوف تجد الحكومة البريطانية نفسها أمام الامر الواقع . ان تصريحات دى برازا ودى لونكل لا تدع مجالا للشك في أهداف المستعمرين الفرنسيين .

وكانت اجابة السير ادوارد جراى على جانب كبير من الاهمية والشهرة فناقش أولا الوضع بصفة عامة وبخاصة التهمة التي وجهت الى الحكومة بأنها أظهرت الجبن في موضوع معاهدة الكونغو ثم قال « ان الاتفاقات التي عقدناها في سنة ١٨٩٠ مع ألمانيا وفي سنة ١٨٩١ مع ايطاليا للحصول من هاتين الدولتين الكبيرتين على الاعتراف بمنطقة النفوذ البريطاني لا يجهلها أحد ، ومع أن هذا النفوذ لم تعترف به رسميا غير الدولتين المتعاقدتين فقد علمت به دول أخرى منذ خمس سنوات . وأصل الى مسألة مطالبنا فيما يتعلق بمصر . ان انجلترا تحتل مركزا خاصا كوصية على الدفاع عن مصالح مصر . ولم نقبل مطالب مصر وحدنا بل قبلتها وأكدتها حكومة فرنسا (١) . لقد قلت من قبل على أثر مطالب مصر أن منطقة النفوذ البريطاني تمتد على طول مجرى النيل (٢) . وهذه النظرية ترجع الى منطق الحوادث

---

(١) يقول فيلبى ايتيين في ص ١٧٢ من كتابه السابق الذكر « في جلسة مجلس النواب الفرنسي بتاريخ ٧ من يونية ١٨٩٤ بعد أن احتج مسيو هانوتو وزير الخارجية على اتفاقية انجلترا والكونغو بتاريخ ١٢ من مايو ١٨٩٤ مستندا الى احترام سيادة الامبراطورية العثمانية أضاف بأن فرنسا تعتبرها مخالفة للقانون ولا قيمة لها في نظره » .

(٢) يعلق فيلبى ايتيين على هذه العبارة بقوله « لقد خان كلام السير ادوارد جراى تفكيره لانه في رسالة صحح فيها هذا الكلام وارسلها الى مدير التيمز كان قد اكد ان النفوذ الانجليزى والنفوذ المصرى يمتدان معا على طول مجرى النيل » . التايمز في أول ابريل سنة ١٨٩٥ ، ولكن التصحيح قلما يفيد =

في السنوات الاخيرة ولا سيما الحوادث التى عرفها العالم جميعه منذ سنتين • وأسأل عما اذا كانت هناك بعثة فرنسية ستتوجه من غرب افريقية الى وادى النيل للتوغل حتى ضفة هذا النهر اليسرى • وأنا بدورى أطلب من المجلس ألا يعير هذه الاشاعات اهتماما •• ليس لدى وزارة الخارجية سبب يحملنا على الاعتقاد بأن بعثة فرنسية تلقت الاوامر بأن تدخل ، أو لديها نية دخول وادى النيل • وانى لأذهب الى ابعد من ذلك فأقول انه استنادا الى مطالبنا القائمة على الاتفاقيات التى وقعناها وعلى مطالب مصر فى وادى النيل ، وان هذه المطالب وآراء الحكومة فى هذا الموضوع معروفة من الحكومة الفرنسية معرفة كاملة وواضحة ، فلا أعتقد أن هذه الاشاعات تستحق التصديق ، **لان تقدم تجريدة فرنسية بناء على أوامر سرية من جانب افريقية الآخر الى أراض مسلم بحقوقنا فيها منذ زمن طويل ، لايمكن أن يعتبر عملا متناقضا وغير منتظر فقط بل يجب أن تعرف الحكومة الفرنسية حق المعرفة أن هذا عمل غير ودى ، وهكذا ستعتبره انجلترا** » (١) •

هذا التصريح ، مع استعمال التعبير القوى « عمل غير ودى » ، خلق هياجا شديدا فقد وصفه هنرى لابوشير Henry Labouchere وهو عدو لدود للاستعمار ـ بأنه كانذار حرب ضد فرنسا • ووجد المؤرخون أنه من الصعب معرفة الفائدة من مثل هذه اللهجة القوية حيث لا توجد ضرورة واضحة لها •

= لان الكلام الرسمى هو الذى يعتمد عليه » ، فيلبى ايتيبن • المرجع السابق ص ١٧٢ •

ولكن السير ادوارد جراى يقول فيمذكراته في هذا الشأن ان لفظة «مصر» سقطت بالصدفة عند نقل أقواله في محضر مجلس العموم •

(١) Egypt No. 2 (1898), Appendix No. 3 وكوشرى : المرجع السابق ص ٤١٦ و ٤١٧ ـ وولف المرجع السابق ص ١٨٨ ـ لانجر المرجع السابق ص٢٦٥ وفيلبى ايتيبن المرجع السابق ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ وهانوتو ومارتينو : تاريخ المستعمرات الفرنسية المجلد الرابع ص ٥١٦ •

وبخلاف المناقشة التى أثيرت نتيجة تصريح جراى فى الدوائر البريطانية ، كان هنـاك بطبيعة الحـال ، فزع جلى فى باريس . وليتصور الانسان مبلغ دهشة هانوتو وحكومة فرنسا عندما سمعوا فجأة بهذه القنبلة فى منتصف المفاوضات التى كانت لا تزال معلقة فى لندن . واحتج البارون دى كورسيل السفير الفرنسى فى لندن . وأشار الى أن تصريح جراى معناه ان الآنجليز سوف لا يقبلون أى سؤال عن حقوقهم فى نفس المنطقة التى كانت موضوع المفاوضات مع فرنسا وأنه فى الواقع «وضع يد لامتلاك Prise de Possession كل حوض أعالى النيل . وأجاب كمبرلى وزير الخارجية البريطانية على ذلك بأن ترديد مطلب لا يمكن أن ينظر اليـه كأنه « وضع يد لامتلاك » . وذكر فى خطاب أرسله بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٩٥ الى دوفرين السفير البريطـانى فى باريس ، بشـأن محادثاته مع دى كورسيل السـفير الفرنسى فى لندن ما يأتى : « قال البارون دى كورسيل أنه لا يمكنه الا أن يعتبر التصريح الذى قيل فى مجلس العموم كأنه (وضع يد لامتلاك) على الجزء الخاص بنا فى حوض النيل الأعلى وأجبت بأنى لا أرى أن ترديد مطلب خاص بمنطقة نفوذ فى حوض النيل ، قد أحطنا به سابقا الحكومة الفرنسية علما ، فى الامكان اعتباره (وضع يد لامتلاك) ، وسوف أذكره أيضـا بأننا ذكرنا بعبـارة واضحة أننا لا نتجاهل مطالب مصر ، وأكدنا للحكومة الفرنسية أنه « اذا حاولت مصر فى المستقبل استرداد المناطق التى كانت تحتلها سلفا ، فاننا سوف نعترف بحقها فى امتلاكها (١) » وحسب الرواية الفرنسية ذهب كمبرلى الى أبعد من ذلك واعترف بأن مسألة أعالى النيل لاتزال باقية للمناقشة والبحث (٢) .

وكان لهذه الرواية المخففة عن وجهة النظر البريطانية أثرها

1. Egypt, No. 2 (1898), Appendix No. 4.
2. Gabriel Hanotaux et Alfred Martineau : Histoire des Colonies Françaises : Tome IV. p. 517 - 518.

فى باريس فى ترضية الخواطر لحد ما ، ولكن معنى هذه الحادثة فى الواقع نهاية المفاوضات الطويلة العقيمة التى كانت جارية وترك الموقف أكثر غموضا مما سبق ٠ لقد بدأ الفرنسيون المباحثات فى خريف ١٨٩٤ بالاستعلام عن مناطق النفوذ البريطانى ، وفى مشروع اتفاقية يناير ١٨٩٥ كما هو مبين فى خرائط ذلك الوقت ، طالب البريطانيون لأنفسهم بشواطىء النيل حتى فاشوده شمالا ولمصر بالمنطقة الممتدة من حدودها حتى الخرطوم جنـــوبا ، على أن تترك المنطقة ما بين الخرطوم وفاشوده مفتوحة لمن يستولى عليها أولا ٠ ولم توقع المعاهدة ولكن يظهر أن الفرنسيين قد شـــعروا بأنهم كونوا رأيا ثابتا عن حدود المطالب البريطانية المصرية ٠ غير أن جراى قال فجأة بيانه التهديدى مصرحا فى نفس الوقت بأن مناطق النفوذ المصرى والبريطانى تغطى معا كل الطريق المائى لنهر النيل ٠ فما معنى هذا ؟ لا يستطيع الانسان تفسيره ٠ كان هناك قول عن وادى النيل والآن عن الطريق المـــائى للنيل وفى وقت آخر عن حوض النيل ٠ وعندما سئل جراى عن المقصود بالطريق المائى أجـــاب بأنه استعمل هذه الكلمة بقصد « نهر النيل عموما The River Nile Generally » ولكنه أضاف بأنه لا يمكن أن يقصد بها بطبيعة الحال « تحديدا معينا للمنطقة » ٠ ويستطيع الانســــان أن يبنى استنتاجه ، ولكن يصعب عليه اخفاء الحقيقة بأن البريطانيين قـد تحولوا فجأة عن موقفهم السابق وأنهم وضعوا الآن جانبا كل حوض نهر النيل على أنه منطقة نفوذ مصر وانجلترا دون تحديد أى جزء يخص كلا منهما ٠ كل هذا اشار اليه هانوتو فى بيانه الذى ألقـاه بتاريخ ٥ أبريل سنة ١٨٩٥ (١) ، والذى اختتمه معبرا عن أمله فى أنه عندما يتضح مصير تلك الاقاليم النائية تستطيع الدولتان ــ مع تأكيد احترام حقوق السلطان والخديو ومع احتفاظ كل دولة بالقسم التابع لها بحق الاستيلاء ــ الوصول الى تسـوية مرضية

1. Egypt No. 2 (1898), Appendix No. 5.

بشأن الأقاليم الباقية . ويجب أن يؤخذ هذا على أنه رجوع مقنع إلى الموقف قبل تصريح جراى ولم تستطع الحكومة الفرنسية اصدار بيان رسمى عما قيل فى البرلمان . واقترح هانوتو أنه عندما تحين الفرصة يجب أن تأخذ مصر نصيبها وتأخذ انجلترا نصيبها كذلك (حتى فاشودة شمالا) وأن يأخذ الآخرون (مثل فرنسا) القسم الذى يستحقونه بحق الكشف والاحتلال (ربما من فاشودة الى الخرطوم) .

ويتحدث فيلبى ايتيبن عن الناحية القانونية لتصريح السير ادوارد جراى فيقول « أما عن الناحيـــة القانونية فلا شك فى أن تصريح السير ادوارد جراى لا قيمة له . لقد عقدت اتفاقيات بين بريطانيا العظمى وبعض الدول حددت بموجبها مناطق نفوذ . ولم تشترك فرنسا فى احداها ولم تعترف بها حتى انها تجاهلتهـــا رسميا . فبوسع فرنسا العمل وكأن هذه الاتفاقيات لم توجد . ولقد أجمعت الآراء على ذلك اذ قال الاســـتاذ جـــون وستلاكى M. John Westlake أستاذ القانون الدولى فى جامعة كمبردج فى هذا الصدد « اتفقت انجلترا وألمانيا على ألا تعارض احداهما توسع الأخرى فى بعض الحدود الجغرافية فاذا وجدت احداهما ـ فى المنطقة التى احتفظت بها ـ متعارضة مع دولة ثالثة فان صفتها الدولية فى البقاء فى تلك المنطقة واستبعاد الدولة الثالثة لا يكون له أى مفعول فى الاتفاقية المعقودة بين انجلترا وألمانيـــا ، فعليها أن تبحث عن أساس حقها فى مبادىء القانون الدولى..وقصارى القول أن مناطق النفوذ لا تتفق مع القانون الدولى » . وذهب هذا المذهب الاســاتذة مـــكوت M.M. Scott وكلتى دسبانييه Keltie - Despagnet وبول فوشـــل Paul Fauchille فالاتفاقيتان الانجليزية الالمـــانية والانجليزية الايطالية لا قيمة لهما بالنسبة لفرنسا . أضف الى ذلك أن تصريح وكيل الوزارة الانجليزى مبهم وأن مسيو هانوتو عندما رد عليه أخذ عليه الجمع فى جملة واحدة بين منطقتى النفوذ المصرى

والنفوذ الانجليزى دون أن يعـــين حدود مصر وبدء منطقة النفوذ الانجليزى • أما من الناحية القانونية فلا قيمة لذلك • وتصريح السير ادوارد جراى كان خطيرا من الناحيـــة السياسية اذ وضـع فرنسا أمام أمرين ـ التسليم أمام الفيتو البريطانى والتخلى عن كل توغل فى النيل أو تحقيق مشروعها والاستعداد للحرب » (١) •

وعلى كل حال أخذ كل من الفريقين ، فرنسا وانجلترا ، بعد تصريح جراى فى الاستعداد للعمل الجدى • ففى ١٠ من ابريل اتخذت الغرفة التجارية فى لندن قرارا طالبت فيه باتخاذ اجراءات « تؤكد السيطرة على وادى النيل من أوغندة حتى فاشودة » وبعمل سريع فى انشـــــاء خط حديد ممبسة • وفى الوقت نفسه أبلغ الكولونيل كولفيل Colonel Colvile المندوب السامى فى أوغندة ، بأن يقـول أنه لا يوجد شىء يستطيع ايقاف التقدم البريطانى فى وادى النيل • وكانت هذه أوامر حكوميــــة فقط • واذا كانت انجلترا تريد الوادى فكل ماتعمله هو أن تأخذه • فالمعـــاهدات لا أهمية لها مهما كانت كثيرة • وفى الوقت نفسه كتب اللورد روزبرى رأسا الى القـــاهرة يسأل كرومر عما اذا كانت الحكومة المصرية قلقة لتقدم الفرنسيين وهل أبدت أخيرا رغبة فى التقدم حتى دنقلة ؟ وهل من الصعب على الفرنسيين أن يتوغلوا فى بحر الغزال ؟ وأجاب كرومر بأن حكومة القاهرة قلقة جدا لنشـــاط الفرنسيين ، وأن خبراء الحكومة العسكريين يعتقدون أن فرنســـا سوف لا تجد عناء كبيرا فى الاستيلاء على بحر الغزال وأن الرأى العام المصرى يؤيد استرداد السودان بوجه عام (٢) • أما كرومر نفسه فقد كان يعـــارض دائما مثل هذه السياسة ظنا منه أن

---

1. Velay, Et. : Les Rivalités Franco-Anglaise en Egypte, 1876-1904. Nimes, 1904, pp. 173 - 174.

2. Mekki Shibeika : British Policy in the Sudan (1882-1902), London 1952, p. 345.

السودان لا يعادل النفقات الطائلة التى تنفقها مصر فى سبيله • ولكنه اعترف بأن نشاط فرنسا غير الموقف ، واعتقد أن الحرب « ليست حلا بعيد الاحتمال للمشكلة كلها » • « ومن الواضح أن أية قوة متمدينة تسيطر على مياه أعالى النيل تكون فى النهاية فى مركز يمكنها من فرض سيادتها على مستقبل مصر » • واستعدادا لكل الطوارىء اتخذت الترتيبات لمد الخط الحديدى جنوبا الى السودان والخط التلغرافى عبر الصحراء من كورسكو الى أبو حمد•

وكان انشاء الخط الحديدى من ممبسة الى بحيرة فكتوريا جزءا هاما من برنامج البريطانيين • وكان السير جيرالد بورتال Gerald Portal قد حث على اتخاذ عمل سريع فى هذه المسألة ، ولكن معارضة هاركورت كانت قد أجبرت روزبرى على أن يحدد الحماية البريطانية على أوغندة ، ومنعت اتخاذ أية خطوات أخرى بشأن الخط الحديدى . ولكنه أنشىء بشكل ما طريق ضيق من ممبسة الى بحيرة فكتوريا ، وأخيرا فى ٢٧ من مايو سنة ١٨٩٥ أخبر روزبرى الملكة أن مجلس الوزراء عزم على انشاء خط حديد أوغندة سريعا • ولكن وزارة روزبرى استقالت فى يونية قبل عمل أى شيء • وأتى بعده لورد سولسبرى وكان متحمسا لهذا الخط ومن أنصار انشائه فلم يهمل المشروع • وفى ٣٠ من أغسطس اعتمد البرلمان مبلغ عشرين ألف جنيه لانشاء الخط الحديدى من ممبسة الى بحيرة فكتوريا •

وكان هناك من جانب الفرنسيين نشاط أيضا • فقد عرفنا أن الحكومة الفرنسية اعتمدت مبلغ مليون وثمانمائة ألف فرنك فى يونية ١٨٩٤ لتمويل بعثة مونتيل وللانفاق على حملة أخرى تتقدم الى النيل عن طريق الحبشة ، وأن مونتيل قد ذهب الى ساحل العاج بعد توقيع الاتفاق الفرنسى مع الكونغو فى أغسطس

١٨٩٤ وأن ليوتارد قد حـــل محله ولكن فكرة التقدم السريع الى النيل قد أهملت مؤقتا فى أثناء المفاوضات مع انجلترا • كما أن الحملة القادمة عن طريق الحبشة ألغيت أيضا (١) • ولكن الآن فى ربيـــع ١٨٩٥ كانت فرص التفاهم مع انجلترا فى طريق الزوال تدريجيا • وفى مايو ظهر مونتيل وبعض ضـــباطه فى باريس • وكان أحدهم وهو الكابتن مارشان ، قد تأثر لدرجة كبيرة بالأفكار والخطط التى أوحى اليه بهـــا رئيسه مونتيل فأخذ يقوم بدعاية واسعة بين السياسيين ويستحث الحكومة بالمذكرات • ولشخصيته القوية وقدرته على الاقنـــاع استطاع أن يكسب بسرعة مسيو هانوتو وزير الخارجية • ولكن يبدو أن هذا المشروع الجرىء ، مشروع التقدم السريع الى أعـــالى النيل ، الذى أعـد مرات ومرات قد رفض (٢) •

وهنا يتبادر الى الذهن السؤال الآتى • هل كانت فرنســا مخطئة فى عدم اقدامها على تنفيذ مشروعها فى ذلك الوقت ؟ وبمعنى آخر هل كانت الفرصة سانحة لها لارســـال حملاتها الى أعالى النيل ؟ والجواب على ذلك أن فرصة نجاح خطة فرنسا كانت كبيرة فى ذلك الوقت وخصوصا بعد أن كشف امبراطور الحبشة نيات بريطانيا وايطاليا وارتكن الى مساعدة فرنسا فمدته بالذخيرة كما أعطى امتياز خط حديد الحبشة الى شركة فرنسية ، وقام ضباط فرنسيون بتدريب الجيش الحبشى ، ولم تكن حمـــلات الفرنسيين الكشفية تثير شكوك الامبراطور • كما أن ايطاليا كانت فى نزاع مع الحبشة فى ذلك الوقت ، وبريطانيا لاتزال بعيدة نسبيا عن أعالى النيل لأن السودان لم يكن قد أعيد فتحه بعد • فترددت فرنسا نتيجة لتصريح الســـير ادوارد جراى وعدم اقدامهـا على تنفيذ

---

1. Cocheris, Jules : La Situation Internationale de l'Egypt et du Soudan. Paris, 1903 ; p. 430 - 431.
2. Ibid, pp. 488 - 489.

مشروعها أفقدها فرصة لا تعوض ، ولا شك أنها كانت مخطئة في ذلك ونلاحظ هنا بعض التناقض الذى يشاهد عادة لدى الدول الاستعمارية لأن الوقت الذى كان يتطلب الحركة والتنفيذ أهمل ، ولما تغيرت الظروف وكان التريث مرغوبا فيه اندفعت فرنسا وأرسلت حملة مارشان ولم يأت اندفاعها بنتيجة كما سيتضح ذلك فيما بعد .

الفصل الثامن

الموقف في الكونغو

وعلى العموم ظهر على المسرح فى هذه الأثنــاء عامل جديد ، فليوبولد الثاني ، وقد فشلت خططه فى التقدم فى السودان ، لم يكن بالرجل الذى يسمح للقضية بأن تهدأ • ولذا ترك من جانب البريطانيين ، وأخذ فى ايجاد علاقة بالفرنسيين الذين بين أنهم قوة يعتمد عليهــا • وفى يناير ١٨٩٥ تولى رياسة الوزارة الفرنسية فلكس فور Felix Faure عقب كازمير بيرييه Casimir - Perier الذى كانت خبرته قليلة بالمغامرات الامبريالية وكان فور صديقــا قديما لليوبولد ، وما كاد يستقر فى منصــبه حتى وصل ملك البلجيك الى باريس وفى سبتمبر ١٨٩٥ قضى أحد عشر يوما فى زيارة المسارح والمتاحف ، ولكنه أيضــا تداول باسهاب وتبادل الرأى مع فور وهانوتو وريبو Ribot وليبون Lebon وبعض السياسيين الفرنسيين الآخرين • ولم تتضح نتيجة هذه المباحثات؛ ولكن من الواضح أنه قد وضعت خطة عمل مشــترك • اذ ابتدأ ليوبولد على الفور استعداداته لحملة كبيرة بقيادة البارون دانس Baron Dhanis وكان على هذه الحملة أن تسير الى النيل وتحتل ما يسمى حاجز لادو Lado Enclave وهو الجزء الوحيد فى الايجارة البريطانية الذى لم يستبعد فى اتفاق فرنسا والكونغو بتــاريخ أغسطس ١٨٩٤ • وكان واضحا أن تتعاون الحملة بقدر الامكان مع بعثة مارشان التى ستتقدم أبعد من ذلك نحو الشمال • ولم يذكر شيء فى التعليمات التى أعطيت الى دانس عن الحد الذى وضع فى أغسطس ١٨٩٤ وقيل له أن يذهب بعيداً الى الشمال بقــدر

ما يستطيع · وأعطى تعليمات مختومة لا يفتحها الا عندما يصل فاشودة ، ومن الصعب أن نقول متى صمم بالضبط على ارسال بعثة مارشان · أرخت الأوامر فى ٢٤ من فبراير سنة ١٨٩٦ ولكن من الواضح تماما أنه منذ أوائل نوفمبر ١٨٩٥ كانت البعثة مسألة مقررة فى كل الأصول ·

ويبدو أن بعثة مارشان اعتبرت فى باريس كوسيلة أخيرة ، وكان لايزال هناك تيار قوى فى الدوائر الحكومية نحو الشعور بالرغبة فى اتفاق مع انجلترا · وعلى أية حال تخيل ليوبولد أن يأخذ على عاتقه القيام بدور وسيط الصلح · وفى أكتوبر سنة ١٨٩٥ ظهر فى لندن وتداول مع سولسبرى · واجتهد فى اقناع رئيس الوزراء بأن يحمل خديو مصر على أن « يمنحه بصفة ايجار كل وادى النيل من الخرطوم حتى بحيرة فكتوريا ، حتى النقطة التى تبدأ منها حقوقنا نحن »

وبطبيعة الحال لم يشجع سولسبرى هذا الاقتراح الغريب ، خوفا من أن يثير أى عمل فى هذا الشأن فرنسا ، وربما يثير أيضا الدول الأخرى ويجعلها تجتهد فى توطيد أنفسها فى وادى النيل · ولكن ليوبولد عاد ثانيا الى العاصمة البريطانية فى الأيام الأولى من ديسمبر ١٨٩٥ · وفى هذه المرة ضرب على وتر علاقته الوثيقة بالفرنسيين الذين زعم أنهم تعاملوا معه دون تحفظ · وبعبارات غامضة أشار الى أن هذه أزمة فريدة لا نظير لها ، والى أن هذه الفرصة لا تعوض مطلقا · وأراد أن تلقى انجلترا بنفسها بين ذراعى فرنسا ، وأن تجدد تاريخا للجلاء عن مصر وأن تطالب الخديو بمنح السودان ـ ما فوق الخرطوم جنوبا ـ « الى شخص خبير بشئون أفريقيا » · وفى مقابل ذلك كله سوف تكون لانجلترا الحرية فى ضم ماتشاء فى الصين · واذا قسمت الامبراطورية العثمانية الى أجزاء فيجب أن تسترجع انجلترا مصر ثانية ، استمع سولسبرى الى هذه المشروعات الخيالية ، ولم يصدق مطلقا

أن المقصود أخذها بجد أو الاهتمام بها • وشعر على أى حال بأن ليوبولد كان مشتاقا لاثارة بعض المناقشات عن وادى النيل وأن يكون لفرنسا ضلع فى هذه المناقشـــات • وشعر رئيس الوزراء أكثر من أى وقت مضى بالحاجة الى جعل الحالة هادئة حتى تستعد انجلترا كما يجب • وكتب الى الملكة يقول « فرصتنا الوحيـدة هى جعل الحالة هادئة حتى يمد خطنا الحديدى الى أوغندة مسافة كافية تمكننا من ارسال الفرق العسكرية بواسطته » (١) •

والمشكلة الكبرى هى هل سيترك منافسو الانجليز بريطانيا وقتا طويلا ؟ وكان فى الجو شىء محتمل الحدوث • وفى منتصف يناير ظهر ليوبولد للمرة الثالثة فى لندن وألح مرة أخرى على اقتراحه بشأن تأجيره السودان جنوبى الخرطوم • وقال انه عندما يتغلب على السودانيين سوف يضعهم تحت أمر وتصرف بريطانيا • ومن الممكن استخدامهم فى غزو واحتلال أرمينيا وكان هذا شيئا كثيرا على اللورد سولسبرى ، فكتب الى الملك يقول ان الفكرة غريبة وأذهلته لدرجة كبيرة حتى أنه « أسرع وحول مجرى الحديث خشية أن ينزلق لسانه الى تعبير شائن » ، ووافقت الملكة على أن تقدير زيارة الملك كان « بعيدا عن الصواب تماما » وأن مقترحاته سخيفة وسقيمة وغير معقولة ، وأضافت « ويظهر حقا أنه قد فقد توازنه العقلى » •

ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن أوروبا كانت تعرف كثيرا عن مناورات ليوبولد الماكرة ولذلك كانت تنظر الى نشاطه باستخفاف• وكان الوقت حرجا بالنسبة لانجلترا وخصوصا بعد برقية الامبراطور الالمانى الى كروجر Kruger رئيس جمهورية الترنسفال فى جنوبى افريقية تلك البرقية التى أثارت انجلترا حكومة وشعبا ضد ألمانيا لمعاضدة الامبراطور لكروجر ضد بريطانيا •

William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902. New-York, 1951, pp. 269 - 270.

وفى أوائل يناير سنة ١٨٩٦ تقدمت الحكومة البريطانية ببعض العروض الى فرنسا ولسوء الحظ أن خبر هذه العروض كتم تماما حتى أصبحت سرا خفيا كالمفاوضات التى كانت فى عهد روزبرى • وقال الفرنسيون انه فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٥ أخبر سولسبرى البارون دى كورسيل بأن المصريين يدبرون حملة تتقدم الى دنقلة • وذكر أن هذه الحملة سوف لا تذهب أبعد من هذه النقطة بدون اجراء تسويات مقدما مع فرنسا • وكان دى كورسيل يعمل طول الوقت على عقد اتفاق مع انجلترا ، ولكن الرواية الفرنسية تقول ان مجلس الوزراء الفرنسى عارض ذلك بحجة أن أى اتفاق سوف يتضمن الاعتراف بمركز بريطانيا فى مصر •

وهذه الرواية تبدو بعيدة الاحتمال تماما . فمن ناحية اذا كان موضوع ارسال حملة الى دنقلة قد نوقش فى ذلك الوقت فلم يكن قد بت فيه ، ولذلك لا يمكن أن يكون كورسيل قد أخبر به زد على ذلك أنه من الصعب على الانسان أن يفهم كيف يستطيع سولسبرى ان يربط نفسه بأن يحدد تقدم الحملة الى دنقلة فقط ويلزم نفسه بأنه يكفل الاتفاق مع فرنسا قبل أن تستأنف الحملة سيرها جنوبا بعد دنقلة . والحقيقة المحتملة هى أن كورسيل كان مهتما جدا ، وأن سولسبرى الذى كان ميالا الى ارضاء شعور فرنسا فى ذلك الوقت ، ناقش المسألة المصرية السودانية بصفة عامة . وأن كورسيل صرح لسولسبرى فى أوائل يناير ١٨٩٦ بأن فرنسا لا ترغب فى أن ترى حكومة خارجية أو حكما مشتركا فى مصر . والواقع أن كورسيل شك فى أن الحكومة الفرنسية رغبت حقا فى أن تترك انجلترا مصر وذلك للاستثمار الفرنسى الهائل فيها ، وبطريق مبهم اقترح أن كل ما ترغبه فرنسا هو المحافظة على كرامتها ، بأن تسحب انجلترا جيش الإحتلال من مصر ، وتوظف عددا أكثر من الفرنسيين فى المراكز الحكومية وأن تستشير فرنسا دائما فى كل الشئون المصرية .

وهانوتو ايضا ولو انه كان خارج الحكم فى ذلك الوقت أخبر سولسبرى عن طريق صديق له بأن ما تطلبه فرنسا قليل جدا • وكان سولسبرى مسرورا ولكنه مرتاب ، أما كرومر فقد كان مرتابا أكثر وعارض موضوع الجلاء • » وخشى كل فكرة ترمى الى اعطاء فرنسا امتيازات جديدة أو استشارتها الا اذا وافقت قبلا على أن تعطى انجلترا تمام الحرية فى ادارة الشئون المالية المصرية » (١)•وكتب بذلك الى سولسبرى فى خطاب بتاريخ ٢٩ من فبراير سنة ١٨٩٦ •

ولايستطيع الانسان تقدير مدى أهمية هذه المحادثات ، ولكن الامر المحتمل هو أن سولسبرى كان مسرورا بتمطيط المفاوضات ومد أجلها طوال الاسابيع العصيبة فى يناير وفبراير ١٨٩٦ وذلك بقصد تثبيط همة الفرنسيين من الانضمام الى أى عمل عدائى ضد انجلترا . ولم يكن مستعدا أبدا لاعطاء فرنسا امتيازات حقيقية فى المسألة المصرية • بل كان هدفه تأجيل المسألة المصرية السودانية حتى يتم استعداد انجلترا لها فتعمل فيها بقوة .

ولكن لم تتح للانجليز فرصة اختيار الوقت المناسب لهم ، فلقد انقلب الموقف السياسى وزاده تعقيدا تأزم الامور فى الحبشة، وعندما انفجرت فقاعة المشروع الاستعمارى الايطالى وانهزم الايطاليون فى عدوة كان على حكومة لندن أن تتخذ قرارا حاسما •

---

(١) الدكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، ط ١٩٥٢ ، ص ٩٩ .

الفصل التاسع

التوسع الاستعمارى الايطالى فى الحبشة

ذكرت فى فصل سابق أن ايطاليا كانت قد عقدت مع منليك امبراطور الحبشة معاهدة اتشيالى الشهيرة فى سنة ١٨٨٩ وذكرت الاختلاف بين النصين الايطالى والأمهرى حول المادة ١٧ من هذه المعاهدة ، وهى المادة المختصة بعلاقات الحبشة الخارجية والتى تنص ، وفق النص الايطالى ، على اقرار « ملك الملوك » بأن تقوم ايطاليا بدلا منه بتيسير علاقات الحبشة بسائر الدول . وقلت ان ايطاليا صممت على اتباع النص الايطالى وكانت موافقة بريطانيا فى نظرها أهم من موافقة امبراطور الحبشة ، ولهذا وقعت ايطاليا مع بريطانيا اتفاقيتين فى سنة ١٨٩١ واتفاقية ثالثة فى سنة ١٨٩٤ . ونصت هذه الاتفاقيات على اعتراف بريطانيا بدائرة نفوذ ايطالية تمتد من ساحل أريتريا وتشمل جميع الحبشة وتنتهى على ساحل المحيط الهندى بالصومال الايطالى . وقد روعى فى رسم حدود هذه المنطقة أن تكون بعيدة نوعا ما عن وادى النيل ، وفى الوقت نفسه تقف سدا منيعا ضد أى محاولة للفرنسيين للتوغل غربا من الصومال الفرنسى . وبينت احتجاج فرنسا الشديد على هذه المعاهدات ورد الحكومة البريطانية المراوغ على احتجاج فرنسا .

والمهم أن هذا الوضع وانتباه امبراطور الحبشة له جعله

يصمم على مقاومة الايطاليين فلا يمكنهم من تكوين امبراطورية على أساس الخطأ فى ترجمة معاهدة أوتشيالى . وبناء على ذلك نبذ الامبراطور هذه المعاهدة ، وأخذيستعد للحرب ويعدالطرق ويبنى مخازن الذخيرة فى المواقع الاستراتيجية الهامة ، ويجمع حوله الرءوس والزعماء ، ويفرض الاتاوات على القرى والدساكر لدرء خطر الايطاليين فانضم اليه القادة الذين كانوا من قبل قد أعلنوا العصيان وكانت النتيجة أن التهبت الروح الوطنية وتأججت النار فى القلوب ، وأصبح الاحباش كتلة متراصة فى وجه الايطاليين . ووجد الامبراطور تشجيعا كبيرا من الفرنسيين اذ فتح ميناء جيبوتى وكذلك ثغر أوبك Obock لاستيراد الاسلحة الفرنسية وتوصيلها اليه وبعض هذه الاسلحة كان بشكل هدايا والبعض الآخر كان عن طريق التجارة (١) .

وعلى العموم بدأت ايطاليا تنفذ فكرتها الاستعمارية بالقوة، ففى أواخر ١٨٩٥ أعدت حملة لاخضاع الحبشة . ولكن نظرا للخلاف الذى دب بين أريموندى Arimondi القائد الايطالى الاعلى وباراتيرى Baratieri حاكم أريتريا ، اذ كان كل منهما يريد املاء ارادته على الآخر فاضطر كريسبى رئيس الوزراء للتدخل بينهما حسما للنزاع وركز السلطتين المدنية والعسكرية فى يد باراتيرى مما أثار ثائرة أريموندى . ونظرا لذلك وللحالة المادية والمعنوية السيئة التى كان فيها الجنود الايطاليون ، وللاستعدادات العسكرية التى قام بها الاحباش على نطاق واسع ، فقد حلت الكارثة بايطاليا ، وهزم جيشها أمام الاحباش فى عدوة فى مارس عام ١٨٩٦ .

وكان لهزيمة الايطاليين فى روما وقع الصاعقة ، وأصبح مركز كريسبى السياسى فى أشد الحرج وأخذ الايطاليون يطالبون بالتخلى

---

1. Woolf, Leonard : Empire and Commerce in Africa. New-York, 1920, pp. 172 - 173.

عن أفريقيا ، ويعلنون في صراحة أن هزيمة النجاشي مستحيلة في اراضي بلده الوعرة . أما القادة العسكريون فكان من رأيهم أنه لابد من تجريد حملة قوامها ١٥٠ ألف جندي وفتح اعتماد لا يقل عن ستين مليون جنيه .

فسقط كريسبي تحت ضربات خصـــومه الســـياسيين المناهضين لفكرة التوسع الاستعماري وخلفه دي روديني الذي اسند وزارة الحربية للجنرال ريكوتي بعد كارثة عدوة بخمسة عشر يوما (١) وعلى العموم استلم مجلس الوزراء الجديد ، الذي الفه الماركيز دي روديني Marchese di Rudini في ١٠ من مارس زمام مفاوضات الصلح مع منليك • تلك المفاوضات التي كانت قد ابتدأت بايعاز من كريسبي . وكان روديني دائما معارضا للمشروع الحبشي فاذا نظرنا الى الوراء نجد أنه اعترف في السنوات الاخيرة بأن الايطاليين ، في رأيه ، قد ذهبوا الى مصوع من غير هدف خطير يدفعهم الى ذلك وبدون ادراك للمشاكل والمعضلات• وانهم ذهبوا بكل بساطة مسايرة لتوسع الدول الاخرى ، بروح التقليد ، وبرغبـــة التسلية ولأجل التعاظم فقط •

وشك روديني فيما اذا كانت الحكومة نفسها في ذلك الوقت تعرف الهدف من كل هذا ، وحسب رأيه الشخصي في ١٨٩٦ ربما كان قد انسحب حتى من اريتريا . وحقيقة كان هناك بعض الايطاليين المتحمسين ضد الاستعمار الا انه كانت هناك مجموعة قوية ، تتألف غالبيتها من العسكريين ، لا توافق مطلقا على مثل هذا الاقتراح . اما عن الملك نفسه فكان مشتاقا لارسال حملة جديدة ، ضد منليك لكي يغطي هزيمة الايطاليين . هذا ما كان عن الموقف ولكن الحكومة عزمت على أن تأخذ اريتريا وتعرض على منليك التنازل عن جميع حقوقها حتى اقليم تيجري وأن تلغي معاهدة اتشيالي كلها • وسارت

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism,1890-1902. New-York 1951, pp. 280 - 281.

المفاوضات لهذه الغاية طول الربيع والصيف وأدت فى النهاية الى عقد الصلح فى أكتوبر ١٨٩٦ (١) .

ولقد كانت فجيعة عدوة صدمة عنيفة لدول التحالف الثلاثى وهى ألمانيا والنمسا وايطاليا وكان التباعد الانجليزى الالمانى بسبب برقية كروجر التى أشرت اليها سابقا ، قد أثر على حلفاء ألمانيا . اذ لم يكتم الايطاليون استهجانهم ، كما أن وزير خارجية النمسا الكونت جولتشويسكى Count Goluchowski ثار عندما ثبت أن محاولاته لتجنيد المعونة الانجليزية فى الشرق الادنى عقيمة تماما . وكان أجل معاهدة التحالف الثلاثى ينتهى فى الربيع اذا لم تجدد فترة أخرى من السنين كما احتيط لذلك فى سنة ١٨٩١ . وطلب الايطاليون أن تتسع حقوق النمسا فى شرقى البحر المتوسط وأن توافق ألمانيا على أن تقدم لايطاليا معاونة أكثر فى الجزء الغربى من هذا البحر . وفى الوقت نفسه غضب النمساويون من ميل ألمانيا الواضح للتقارب مع روسيا ، وكان هناك نقاش حاد حول التحالف الالمانى النمساوى والاشارات المقنعة المتفرقة الى عقم كل هذه الاتفاقات (٢) .

ولم يظهر أن رئيس وزراء ألمانيا أو وزير خارجيتها أبدى تبرمه تماما . وكان لهما تعليلهما الخاص عن الخلاف الانجليزى الالمانى وشعرا بفرور زائد فى علاقتهما الودية مع روسيا . ولكن من ناحية أخرى كان الامبراطور غير مسرور تماما . ويبدو أنه ندم على برقية كروجر وأدرك أن تقدمه فى أزمة مثل أزمة يناير سنة ١٨٩٦ ، نحو روسيا وفرنسا لا قيمة له كثيرا . وعندما وصلته أخبار عدوة المفزعة من أفريقيا فى ٣ من مارس ، انتهز فرصة وصول الملحق العسكرى الانجليزى الجديد الكلونيل جريرسون Colonel Gerierson لينقل الى لندن آراءه الخاصة عن الموقف .

---

1. E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 2, pp. 458-459.
2. Die Grosse Politik, XI, Chaps. IXV and IXVI, Passim.

ناقش الامبراطور موقف بريطانيا كمعارضة لتوحيد قوى القارة الاوروبية ، وأنكر فكرة أن الاتحاد الثلاثي خصم لها بأى حال من الاحوال . وأكد مرارا أن روسيا كانت هي العدو اللدود لانجلترا ، وأن فرنسا « ألقت بنفسها بين ذراعى روسيا وأن الجيش الفرنسى آلة فقط للاغراض الروسية وتستخدمه روسيا كما يستخدم الانسان كلب الصيد المسلسل ، يحرضه ليعض شخصا ما » . وكانت سياسة ألمانيا أن تكون علاقاتها طيبة مع الجهتين . ولكنها لا تستطيع رؤية أوروبا وقد اكتسحها السلاف . ومن ثم رغب الامبراطور في تعضيد الصلات الودية مع بريطانيا ، بحجة أنها هي وألمانيا كانتا . القوتين البروتستانتيتين اللتين تقفان فى صدر المدنية وترتبطان بروابط الدم والعقيدة والمنفعة المتبادلة . ثم حاول شرح مشكلة جنوب افريقيا ، وانتقل الى مناقشة الموقف فى البحر الابيض المتوسط والنكبة فى الحبشة . وعندما ترك جريرسون حضرة الامبراطور كان مقتنعا « بأنه على الرغم من المظاهر كان الامبراطور غير متردد فى صداقته لبريطانيا العظمى ورغبته فى التحالف معها ، وأن رغبته الاكيدة فى ذلك الوقت هى ارجاع الامور الى أصولها السلمية التى كانت ترتكز عليها قبل أن يحل النفور الحالى الذى يؤسف له » (١) . ولم يكتف الامبراطور بحديثه مع جريرسون . فبعد مفاوضة مع السفير الايطالى عزم على أن يعمل عملا قويا يستحق الذكر . ففى وقت متأخر من مساء ٣ من مارس ذهب الى السفارة البريطانية ، ولم يغادرها قبل الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . وفى أثناء وجوده بها تداول مع السير فرانك لاسكلز Sir Frank Lascelles مدة لا تقل عن ساعتين . ومدار مناقشته أن الموقف الدولى كان حرجا، ففرنسا فى الواقع شنت الحرب ضد ايطاليا فى الحبشة . وفرنسا

---

1. D.S. Macdiarmid : The Life of Lieutenant. General Sir James Moncrieff Grierson ; London, 1923, pp. 117 - 119.

وروسيا كانتا متحدتين على الاقل بتحالف عسكرى . والقوات الفرنسية كانت تحت تصرف روسيا . ومن ناحية أخرى ، كانت روسيا مصممة على ابادة عدويها انجلترا والنمسا . وكان هدف انفيصرية هو ضم بلغاريا والولايات البلقانية مثلما ضمت المقاطعات السلافية فى النمسا ، وأن تمنح ألمانيا كتعويض المقاطعات الالمانية فى امبراطورية هابسبورج . وبعد ابعاد الايطاليين سوف يوطد الروس أقدامهم فى مصوع واماكن اخرى ويستحوزون على سلطة فى الطريق البحرى الى الهند . وسوف تثار المسألة المصرية مرة أخرى ، ولجعل الاحوال سيئة ، اجتهدت فرنسا في أن تشترى جزر كنارى من اسبانيا ، واذا وقعت هذه فى يد فرنسا فحتى طريق الكاب الى الهند سوف يتعرض للخطر . وهاجمت الصحافة الانجليزية الامبراطور ، وكذلك هاجمه بعض السياسيين الانجليز لشكهم فيه ، ولكنه هو اعتبر أن واجبه يقضى بتحذير الانجليز . وكان مسرورا من زيادتهم لقوتهم البحرية وتوقع « أن انجلترا سوف تنخرط فى سلك التحالف الثلاثى أو على أى حال تأتى لمساعدة الايطاليين فى مركزهم الصعب (١) .

وكانت الصورة التى لدى الامبراطور عن الموقف الدولى أنه مكفهر جدا ومنذر بالخطر وليس بغريب أن السفيرين الايطالى والبريطاني كانا يجتهدان تماما فى معرفة مقصده • ولم تكن وزارة الخارجية الالمانية مسرورة مطلقا من عمل جلالته المستقل • فلميكن مارشال Marschall وزير الخارجية ولا هولشتين Holstein مستعدا لان يزحف على ركبتيه للحصول على مساعدة بريطانيا • وقالا ان هذه الاستغاثة غير لائقة بالكرامة وسوف تفهم في بريطانيا على غير حقيقتها وعلى أنها علامة الضعف • وحرض هوهنلو Hohenlohe على أن يحتج لدى الامبراطور على محادثاته المستقلة مع السفراء •

1. Die Grosse Politik, XI, nos. 2770, 2771.

ورفض رئيس الوزراء أن يتدخل • ويبدو أنه شعر بوجوب لوم وزارة الخارجية على تباعد بريطانيا نتيجة للسياسة الالمانية التى اتبعت فى جنوب افريقيا ، وأنه كان يستعد تماما لإصلاح الامور بقدر الامكان •

وفى أثناء ذلك سارت وزارة الخارجية فى طريقها الخاص • فما زال مارشال فى الاسابيع الاخيرة يحاول آقناع السفير الفرنسى بأن لفرنسا وألمانيا منفعة متماثلة فى الابقاء على الحالة الراهنة فى جنوب افريقيا ، وشدد فى أنه يجب على فرنسا وألمانيا ، طوعا أو كرها ، الاتفاق فى كل الامور ـ ماعدا الشئون المصرية ـ ضد انجلترا المغتصبة فى كل مكان .

ولابد من أنه عرف شيئا فى لندن عن أغراض الالمان المتشعبة• وعلى أى حال ليس من المحتمل أن تأثر لورد سولسبرى بأقوال الامبراطور • ومن رأيه أن الامبراطور أخطأ فى محادثته مع لاسكلز لاقناع الحكومة البريطانية باتخاذ اجراء ما، حتى ولو أن الامبراطور نفسه اعتمد على هذه المحادثة • واضطر الكونت هاتسفلت Count Hatzfeldt سفير ألمانيا فى لندن أن يكتب تقريرا بأن الطريق ليس واضحا أمام اللورد سولسبرى ليقدم المساعدة للايطاليين • وأخيرا فى ٨ من مارس اعترف السفير الايطالى فى لندن بأنه لم ينل شيئا . ورفض سولسبرى العرض المتكرر حتى الخاص بكسلا التى كان الايطاليون يخشون الجلاء عنها • واعتقد مارشال أن انجلترا سوف لا تنضم الى أية دولة أخرى ، ولكنها تعمل جاهدة على أن يكون هناك قتال فى القارة لتخلص نفسها من مشاكل عدة •

الفصل العاشر

استرداد السودان

مع كل ما أوضحته في ختام الفصل السابق استطاع سولسبرى أن يقول للكونت هاتسفلت سفير ألمانيا فى لندن فى ١٢ من مارس ١٨٩٦ ان مجلس الوزراء البريطانى عزم على ان يسمح للحكومة المصرية بالقيام بحملة عسكرية تتقدم حتى دنقلة • أى مسافة مائتى ميل تقريبا من الحدود عند وادى حلفا • ماذا حدث في هذه الفترة ؟ هذا سؤال من الصعب الاجابة عليه بالدقة التامة فبعض الكتاب من رجال السياسة فيما بعد مثل ونستون تشرشل Winston Churchill يجعلنا نعتقد أن الحكومة تحت تأثير الرأى العام رأت وجوب الاخذ بثأر جوردون . والروايات المؤثرة عن حكم الدراويش التى أحضرها الاب اهروالدر Father Ohrwalder وسلاطين باشا قد أفزعت الامة . لان بؤس السودان أثار «ذلك الشعور الانسانى الكريم الهائل الذى يتسلط على أمتنا المتمدينة(١)» ويعتقد الكتاب الآخرون ان اللورد سولسبرى أكره على ذلك بوساطة تشمبرلين Chamberlain الذى استنكر محاولات رئيس الوزراء للوصول الى اتفاق مع فرنسا بشأن المسائل المتعلقة بمصر والنيل • وعندما استغاث الايطاليون وطالبوا بالمساعدة ارتأى تشمبرلين أن ينال فوزا فى مجلس الوزراء بالاقتراح « دعنا نذهب الى دنقلة » •

ولايضاح القرار البريطانى الذى كانت له نتائج خطيرة كثيرة،

---

1. Winston Churchill : The River War (London 1899) pp. 167-9.

يجب بحثه بقدر الامكان من النواحي الاخرى • فقــد اقتنع اللورد سولسبرى بأن وادى النيل يجب استرداده في النهاية • ولكنه كان يأمل ارجاء هذا العمل حتى الانتهــاء من خط حديد أوغندا ليمكن اتمام التقدم من مصر بتقدم آخر من الجنوب • كمـــا ان اللورد كرومر أيد أيضا استرداد السودان ، ولكنه كان يرغب فى أرجاء ذلك حتى تستعد مصر ماليا وحربيـــا ، واعتقد ان هذا الاستعداد سوف لا يتحقق الا بعد مضى سنوات عدة • وكان هنـــاك حماس شديد فى بريطانيا للبدء فى العمـــل • وهذا الحماس ناتج عن الخطط الواضحة لفرنسا ودولة الكنغو • وكان الاشخاص الذين لهم نفوذ مثل السير صموئيل بيكر والسير فريدرك لجارد يعلقون دائما أهمية كبـــيرة على الاخطار الناجمة عن التأخير فى استرداد السودان فيقول الثانى « من المحتم التقدم من أوغنده واحتلال وادى النيل حتى فاشوده ، بما فى ذلك منطقة بحر الغزال كلها •• فى الوقت الذى يكون فيه التقدم من الجنوب ، ومن الأوفق عمل حركة تقدم من مصر(١) »

ومع ذلك لم تفعــل الحكومة شــيئا • يقول كرومر « ابتدأ البحث فى استرداد السودان قبـــل سنة ١٨٩٥ كمشروع يمكن تحقيقه فى زمن قريب • وفى اكتوبر ســنة ١٨٩٥ أثيرت المسألة بالشكل التالى • ولمدة قصيرة كان مشروع حجز مياه النيـــل فى خزان كبير موضع البحث وقبل خريف ١٨٩٥ تقــدمت المناقشات الخاصة بالنواحى الفنية للمشروع لدرجة تبرر بأنه ســوف يبدأ العمل فيه قريبـــا • ورئى فى ذلك الوقت ان الخزانة المصرية لا تستطيع معالجة مسألة الخزان والسودان فى وقت واحد • وبدون مساعدة مالية من انجلترا فان أفضـــل طريقة هى تشييد الخزان وتأجيل مسألة استرداد السودان • وتبعا لذلك فان زيادة الدخل

---

1. Sir Frederick Lugard : «England and France in the Nile Valley.» (National Review, July, 1895, pp. 609 - 22).

الناتج من تشييد الخزان ـ وقد اعتقد ذلك ـ ســـوف يمد مصر بالاموال التى تمكنها من استرداد الســـودان ولذلك طلبت رأى الحكومة البريطانية فى هذا الموضوع • وأجيبت فى ١٥ من نوفمبر ١٨٩٥ بأن الحكومة البريطانية لا تفكر الآن فى الموافقة على ارسال حملة عسكرية الى الســـودان وأن توضع ميزانية الحكومة المصرية بدون الاشارة الى تكاليف هذه الحملة (١) » • والشيء الوحيد الذى أجبر على اعادة بحث القرار فى ينـــاير ١٨٩٦ هو حالة الايطاليين العصيبة فى الحبشة ولم يكن الانجليز مســـتعدين لان يسمحوا للايطاليين باحتـــلال زيلع وعمل هجوم على هرر ، وربما لم يقلقوا كثيرا نتيجة للموقف الحبشى الايطالى مهما كان حال هذا الموقف • والذى أزعجهم حقا هو النشاط الذى استأنفه الدراويش • وفى ٥ من يناير قرر السفير الايطالى فى بطرسبرج ان هناك اتفاقا بين منليك والخليفة على عمـــل هجوم مزدوج على مركز الايطاليين فى وقت واحد • ولقد نوه الفرد الج Alfred Ilg مستشار منليك فى مناسبة ما بعد ذلك ، أنه فى الواقع كان هناك تفاهم من هذا النوع • ولكنى أميل الى الاعتقاد بأنه لم يكن هناك اتفاق مبرم بين منليك والخليفة ، ويستنتج ذلك من المكاتبات المتبـــادلة بينهما بصدد الصلح والمنشورة فى كتاب الاستاذ نعوم شقير (٢) • وعلى أى حال ابتدأ الدراويش يحتشدون فى أعداد كبيرة بالقرب من كسلا وهى أبعد نقطة أمامية لايطاليا فى الســـودان وأهم مركز تجـــارى واستراتيجى يقع فى منتصف الطريق بين الخرطوم ومصـــوع ، وكانت قد احتلها الايطاليون فى يوليه ١٨٩٤ طبقا للاتفـــاقات الانجليزية الايطالية فى سنة ١٨٩١ •

وسقوط كسلا سوف يكون مسألة خطيرة بالنسبة للبريطانيين

---

(١) Comer : Modern Egypt (London, 1908) vol. II, p. 81-82.

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ط ١٩٠٣ ج ٣ ص ٦٣٠ – ٦٣٢

وللحكومة الايطالية · وحدث ان كان اللورد كرومر في لندن وبحثت المسألة باسهاب · ويظهر ان رجال الحرب البريطانيين وافقوا على التقدم على طول مجرى النيـــل ، بينما ذكر كرومر أن الحملة من سواكن تكون أقل تكاليفا . ومنها يمكن الوثوب على كسلا نفسها. وأخيرا صمم على الانتظار وترقب بدء الدراويش فعلا فى عملياتهم وظل الايطاليون يطلبون المساعدة حتى أنهم عرضوا اعادة كسلا الى الانجليز ، ولكن سولسبرى طرح كل هذه العروض والمســـائل لتجرى مجراها (١) · وحتى الايام الاخيرة من فبراير سنة ١٨٩٦ لم يصل نبأ يوثق به فيمـــا يختص بتجمع قوات الدراويش أمام كســـلا · ووقعت كارثة عدوة عقب ذلك مبـــاشرة · وأصبحت استغاثات الايطاليين من أجل المساعدة أكثر اصرارا وأهمية .ولكن كما رأينا لم يلتفت اللورد سولسبرى اليهم كثيرا · وفى أثناء ذلك كانت المباحثات جارية فى القـــاهرة بين كرومر وكتشنر والملحق العسكرى البريطانى فى روما الذى كان قد أرســـل الى مصر فى مهمة خاصة · ووافق هؤلاء الرجال على عمل شىء ما ، وصمموا على ارســـال قوة من طوكر الى كسلا لتضطلع بالدفاع عنها بدلا من الايطاليين وأرسل هذا القرار برقيا الى اللورد سولسبرى دون أمل كبير فى موافقة حكومة لندن عليه · ولم يسمع شىء أكثر من ذلك حتى كانت الساعة الثـــالثة من صباح ١٣ من مارس ، اذ تلقى كتشنر برقية تنبئه بقرار التقدم من وادى حلفا الى عكاشة ودنقلة ·

ومن الصـــعب معرفة كيف وصلت الوزارة البريطانية الى قرارها هذا · وكل ما هو معروف ان مجلس الوزراء اجتمع عدة مرات وان اللورد ولسلى Wolseley والجنرال جرانفل Grenfell حضرا بعض هـــذه الاجتمـــاعات · واقتنع كل من ســـولسبرى وتشمبرلين بأن تقدما من هذا النوع أصبح ضروريا · ولكنهما وافقا على برنامج معتدل ، وكانا ضد أى عمليات تكلف الحكومة المصرية أكثر من طاقتهـــا · ولم يثق كل من تشمبرلين وسولسبرى فى

I. Comer : Modern Egypt (London, 1908) vol. II, p. 83.

كتشنر وفى الموظفين الرسميين البريطانيين فى القاهرة ، وكتب سولسبرى فى١٢من مارس يقول « لقد كنت متحمسا عندما ضغطت على لانزدون Lansdowne بأن يكون مستعدا لزجر مستشاريه الحربيين وزجر كتشنر • ولكن قرارا بلغ عنـــدما أفادت برقية ايطالية فى ١٠ من مارس بأن هناك عشرة آلاف من الدراويش أمام كسلا وانهم قاموا بهجوم فى صباح ٨ من مارس وان المواصلات قد قطعت وكان السؤال هو ما يأتى : هل يكون التقدم من سواكن أوطوكر ، كما كان يريد كرومر وكتشنر ، أم يكون من وادى حلفا؟ وعلى الارجح يبدو ان كلا من وولسلى وجرانفل فضل طريق النيل، مع ان طريق سواكن سوف يمد كسلا بالمعاونة على الفور • والشىء الرئيسى هو أن سولسبرى نفســه ساعد على التقدم نحو دنقلة • ولقد شرح ذلك فى خطاب أرسله الى كرومر فى١٣من مارس ، وصرح فيه بأن عمــــل مجلس الوزراء « كان موعزا به رغبة فى مساعدة الايطاليين فى كسلا ، وفى منع الدراويش من كسب نجاح ظاهر تكون له نتائج بعيدة المدى وبالاضافة الى ذلك رغبنا فى اصطياد عصفورين بحجر واحد ، وأن نستخدم الجهد الحربى نفسه لتثبيت قدم مصر أبعد من ذلك على النيل • ولهذا السبب فضلنـــاه (أى التقدم نحو دنقله) عن أى حركة من سواكن أو فى اتجاه كسلا لأنه سوف لا تكون هناك منفعة أخيرة فى هذه الحركات(1) » •

ولقد أوضح خطاب سولسبرى أنه فى الحقيقة كان هناك قلق من أجل السودان • ولا نعرف اذا كان قد علم بحملة مارشان أم لا، ولكن فى تلك الاثنـــاء أصبحت خطط الفرنسيين ــ مهمـــا كانت مشروعاتهم ــ معروفة الى حد كبير •• وقصارى القول ، كان رئيس الوزراء حينئذ عازما على استعمار النهر العظيم • ولقد عرض أحد الكتاب المطلعين على الشئون المصرية وهو الاستاذ تريل H.D. Traill

1. William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1902. New-York 1951, p. 286.

هذا الجانب من الموضوع في عبارة مختصرة لها دلالتها عندما ذكر في مقال له معاصر لتلك الاحداث ما يأتي : « قوام مصر ذاته مستمد من المنابع التي هي الآن لاول مرة في عصور تاريخهـــا الطويلة أصبحت في متنـــــاول يد الدول الاوروبية القوية ويجب أن تمر تحت سيطرة دولة عظمي تستطيـــع وضع اصبع قابض على نبضها كما تريد • وسوف لا يبذل مجهود كبـــير من قبل علم الهندسة الحديث ، اذا كان في يد عدو ، لنشر القحط والموت في كل وادى النيل • ومصر لا تستطيع أن تســـتغنى عن حماية دولة عظمى في الشمال عندما تدنو منها في يـــوم ما من جهة الجنوب دولة عظمى أخرى وتتسلط على مقر حياتها ذاته(١) » •

وجدت الحكومة البريطانية بعض الصعوبة في تفسير أسباب التقدم المفاجيء على النيل أمام البرلمان ، ولكن بالمصادفة نشر في ١٣ من مارس — وهو نفس اليوم الذى أذيعت فيه أنباء التقدم — تقرير كرومر السنوى عن عام ١٨٩٥ ، وقد ورد فيه ما يأتي : « لا يوجد شيء ذو أهمية يستحق التسجيل بصدد الادارة الحربية في غضون السنة الماضية • وفيما عدا غارة بسيطة على قرية في منطقة وادى حلفا ، وهجوم لا يعتد به في دلتا طوكر ، فان قوات الدراويش التى قرب المراكز المصرية الامامية مباشرة لا يستهان بها • وقد احتفظت بموقف دفاعي دقيق • وأتوقع من وقت لآخر أن تتكرر مثل هذه الغارات التى حدثت في العام الماضي وأنوه بأنه قد أنشيء اتصال تلغرافي بين كورسكو وآبار مراد الواقعة في منتصف الطريق الى أبو حمد(٢) » • وهذا جعل من الصعب على الحكومة بحث القضية ، خصوصا عندما اقترح ازالة تهديد الدراويش عند كسلا بالتقدم من

1. H.D. Traill : «The Burden of Egypt» (Nineteenth Century, April, 1896; pp. 544-56) p. 556; see also his book : England, Egypt and the Sudan (London, 1900), p. 149.
2. Comer : Report on the finances, administration, and condition of Egypt, and the prograss of reformes. March 1896. pp. 19 - 20.

وادى حلفا . وبناء على ذلك تكلم كيرزون Curzon باشفاق على الايطاليين وانهم « أمة جنودها شهمة وحلفاء أوفياء » ، وأكد أن « قضية الحضارة في افريقيـــا كانت على كف عفريت » ومع ذلك فلم يقتنع حزب المعارضة ، فهزأ لابوشير Labouchere بحكاية تهديد الدراويش وقال للحكومة في مواجهتها ان السبب الحقيقى لهذا العمل هو الرغبة فى الاستحواذ على السودان . وهكذا يكون لديها عذر آخر فى البقاء فى مصر . وأشـــار السير تشـــارلز ذلك Sir Charles Dilke الى ان التقدم الى دنقله لا أمل منه فى مساعدة الايطاليين فى كسلا التى كانت تبعد خمسمائة ميل .

ولقد شك الايطاليون أيضا فى مفعول المساعدة البريطانية ، ولكنهم كانوا معترفين بالجميل حتى لمجرد مظهر الصداقة . فقد كانت محالفة البريطانيين ذات قيمة كبيرة لهم ، ولهذا السبب ، عندما نجحت الحامية الايطالية فى كسلا فى صد هجوم للدراويش فى ١٢ من ابريل صمم على الاحتفـــاظ بالمكان حتى الخريف على الاقل ، رغم معارضة وزير الخارجية والحاكم الجديد لاريتريا(١) .

واستخدم الامبراطور وليم كل نفوذه لتحقيق اقرار التقدم من وادى حلفا . وكان راضيا للغاية عن التطورات الجديدة التى عزاها الى وحى المحادثة مع لاسكلز Lascelles ولم يشك مطلقا فى ان الجيش المصرى سيدحر تماما أمام الدراويش وان الانجليز أنفسهم سوف يتدخلون ويصطدمون وعلق على ذلك بقوله «لقد حقق غرضى، فانجلترا تقدمت للحرب وعرضت نفسها للخطر وانتهت المداعبة مع روسيا وفرنسا ، وهذا هو كل ما أردته » وقال أيضا « ومع كل ذلك سيحضر الينـــا الانجليز زاحفين على ركبهم اذا نحن تركناهم فقط يناضلون طويلا(٢) » وبينما كانت الحالة واضحة من تلقـاء

1. Die Grosse Politik, XI, nos. 2780 - 2785.
2. Ibid, nos. 2713.

نفسهـــا في منتصف مارس ، أعلن السير سيسل سبرنج رايس Sir Cecil Spring Rice الملحق بسفارة برلين في ذلك الوقت الملاحظة المكدرة الآتية « لقد أخذت ألمانيا ، بواسطة مصر ، ذيلنا بين أسنانها وتستطيع أن تعضه عندما لا نفعل نحن ما تريده هي Germany, has, though Egypt, our tail between her teeth and can give it a bite when ever we don't do what she wants.»

وهذا القول على جانب كبير من الصدق اذ ان بسمارك كان كثيرا مايقوم بمظاهرة في كل مناسبة • وعلى العموم أيد الامبراطور الالماني وزارة سولسبري في مسألة استرداد الســـودان لانه كان يعمل على ازالة الاثر السيء الذي أحدثته برقية كروجر في انجلترا ، هذه البرقية التي أثارت الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى ضد ألمانيا ، ولذا فقد كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الالمانية انجلترا في مسألة السودان ، ربمـا دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير في تغيير سياستها نحو ألمانيا وتعضيد الفريق الانجليزى القائل بضرورة اصلاح العلاقات الفرنسية الانجليزية والانضمام الى الوفاق الثنائي الفرنسي الروسي ، ولا سيما ان الامبراطور الالماني كان يعلم تماما ان لورد سولسبري ولو أنه يميل الى مجاملة ألمانيا والى تأييد سياستها الاوروبية والاستعمارية ، الا أنه لا يميل الى تجديد اتفاقية البحر الابيض مع صديقة ألمانيا وهي ايطاليا التي عقدت في سنة ١٨٨٧ • هذه الاتفـــاقية التي كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثي في البحر المتوسط • كما كان يعلم ان سولسبري يود لو استطاع تحسين علاقات انجلترا بفرنســـا والاتفاق معها على المسائل المختلف عليها بينهما • ومن ناحية أخرى كان تأييد ألمانيا لانجلترا في نظر الامبراطور الالماني أمرا ضروريا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا انهزاما منكرا أمام الاحباش في موقعة عدوة • فقد كان الامبراطور دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعهـــا بضرورة اغاثة الايطاليين

حلفائه • ولذا حاولت وزارة سولسبرى تبرير الحملة المصرية الى السودان أمام دول التحالف الثلاثى ألمانيا والنمسا وايطاليا ، برغبة انجلترا فى نصرة الايطاليين المدحورين(١) •

وكان تأييد ألمانيا أمرا لا غنى عنه مطلقا بالنسبة لبريطانيا ، لان النية كانت متجهة الى أن تدفع نفقات حملة دنقله من سندات ديون الحكومة المصرية • وكانت السندات التى يمكن الدفع منهـا هى التى تحت ادارة صندوق الدين ، وهذه الســـــندات لا يمكن استخدامها الا بموافقة الدول الكبرى • وظهر ان ايطاليا ســـوف تؤيد طلب بريطانيا وأن فرنسا وروسيا سيعارضانه ، وعلى الارجح كانت وجهة نظر النمسا تتـــوقف لحد ما على وجهة نظر ألمانيا • ولذلك كان تأييد ألمانيا ضروريا لضمان أغلبية الاصوات • ورتب رئيس الوزراء البريطانى القروض الضرورية • وفى ١٣ من مارس أجاب على المسائل التى أثارها الامبراطور فى محادثاته مع لاسكلز وقال « أرغب فى استمرار الصداقة مع ألمانيا كما كانت فى الماضى• وسوف تميل انجلترا الى الاتحاد الثلاثى ، ولكن بدون أن تتعهد أو تربط نفســـها على الدوام بعمـــل حـــرب فى بعض الطوارىء المستقبله(٢) •

وبعد ذلك بيومين التجأت الحكومة البريطانية الى الدول الكبرى كى تحصل على موافقتها على تخصيص مبلغ ٥٠٠ر٠٠٠ جنيه من المال الاحتياطى لصندوق الدين • وبعد أيام قليلة وبعـد رجاء خاص من الحكومة الايطالية ، أبدت الحكومة الالمانية موافقتها بينما رفضت الحكومة الروسية فى الوقت نفسه الموافقة . وكان الامير لوبانوف Lobanov وزير الخارجية ، وقد زال وهمه بالاتفاق

---

(١) الدكتـور محمد مصطفى صفوت : الاحتـلال الانجليزى لمصر وموقف الدول ازاءه ط ١٩٥٢ ص ١٥١ — ١٥٢ •

2. Die Grosse Politik, XI, nos. 2779.

الارمني وأصبح الآن يرتاب لدرجة كبيرة في الخطط البريطانية ضد الامبراطورية التركية ، مصمما بصراحة على احباط السياسة البريطانية فى مصر . اما فرنسا فكانت الامور اكثر تعقيدا بالنسبة لها لحد ما . وبطبيعة الحال كان الاعلان عن حملة دنقلة صدمة هائلة لها ، خصوصا للبارون كورسيل Baron Courcel الذى كان مستمرا في مباحثات مع سولسبرى ومهتما ايجاد تسوية للمسألة المصرية كلها . وفي بادىء الامر أعلن انه سيقوم باجازة عادية طويلة ، ولكنه فى أيام قليلة كان ثانيا فى لندن . والظاهر أن كورسيل كان مدافعا بحماسة واقتناع عن الاتفاق مع انجلترا ، وان وزير الخارجية برتلو Berthelot ارتد الى وجهة النظر هذه . ولكن على ما يظهر كان الرئيس فور Faure والمسيو بورجوا Bourgeois رئيس الوزراء فى شك من أمرهما . وكان الاخير بالاتفاق مع السفير الالمانى ، هو الذى أعد خبرا ليدرج فى صحيفة الطان Temps فى ١٨ من مارس مؤداه أن برتلو في محادثة مع اللورد دوفرين Dufferin قد لفت نظر السفير الى « خطورة نتائج حملة دنقلة » . وأنكر برتلو سرا أنه لم يستخدم مثل هذه اللغة التهديدية . ويظهر أنه كان عاجزا عن الرد على الخبر ولقد اراد بورجو ان يثير الشعور العام ليحصل على تأييد لسياسته فى مدغشقر ولبرنامجه الداخلى وبصراحة كان السفير الروسى هو الذى يضغط على بورجوا ، ومن ثم كان هو الذى يضغط على برتلو ، وفى ١٩ من مارس تحدث وزير الخارجية البريطانية فى مجلس النواب عن مشروع دنقله على انه هجوم ضرورى ، واشار الى ان فرنسا ربما ترفض التصديق على تمويله من احتياطى صندوق الدين ، وقال بوجوب استهلاك كل ما يمكن الحصول عليه من المال ومد اجل الاحتلال البريطانى لمصر على أى حال . ومع ذلك يظهر كورسيل ليقوم بمحادثة اخرى مع سولسبرى وليحاول استخلاص تصريحات فى موضوع الجلاء عن مصر مقابل مصادقة فرنسا على استخدام رأس المال الاحتياطى ولم ينجح فى شيء من هذا . وفى ٣١ من مارس أجبر برتلو على

الاستقالة وقيل انها كانت بسبب الحاح من السفير الروسى .

وحتى ٢٩ من مارس كانت الحكومة الفرنسية رافضة نهائيا التصديق على استخدام رأس المال الاحتياطى فى تمويل حملة دنقلة . وبطبيعة الحال ، بتأييد ممثلى المانيا والنمسا وايطاليا حصل الانجليز على أغلبية فى الاصوات كانت كافية لهم . ولكن حسب رأى فرنسا وروسيا ، لم يكن هذا كافيا فمن الضرورى اجماع الآراء . ونظر الموضوع أمام المحاكم المختلطة ، التى حكمت فى ٨ من يونية لصالح الفرنسيين والروس . فاستأنف البريطانيون الحكم ، ولكن فى ديسمبر ١٨٩٦ فصل القضاء ثانيا ضدهم . وعلى اى حال كانت الحكومة البريطانية مستعدة فى ذلك الوقت ، فأقرضت الاموال اللازمة للحكومة المصرية (١) .

وفى أثناء المقاضاة لم يقف الفرنسيون والروس ، وبخاصة الفرنسيين . مكتوفى الأيدى . ففى آخر ابريل ١٨٩٦ سقطت وزارة بورجوا وأعقبتها وزارة ثانية برياسة ميلين Meline وكان فيها هانوتو مرة أخرى وزيرا للخارجية . وكان ينظر اليه عادة على أنه بطل التحالف مع روسيا . ولكن الشواهد تشير الى أنه وضع حدودا معينة للاتفاق ولالتزامات فرنسا تحت شروطها . ويبدو أنه بذلت بعض المساعى فى ابريل ومايو لحمل الحكومة التركية على اعادة فتح موضوع الجلاء عن مصر ولاتخاذ اجراءأكثر تأثيرا بارسال فرق عسكرية تركية الى سواكن . ولكن لم ينتج شئ عن هذه الجهود ليربك البريطانيين .

وكانت السياسة التى اتبعها البرنس لوبانوف Prince Lobanov وزير خارجية روسيا ، أكثر قوة وخطورة . وكان لوبانوف مؤمنا كل الايمان بمهمة روسيا فى الشرق الاقصى ومشغولا تماما بفكرة التوسع فى الصين . وكان غرضه ، كما أظهرت الأزمة

1. Cromer : Modern Egypt (London 1908) vol. 2, p. 85, ff.

الارمنية ، الا يفعل شيئا فى الشرق الادنى أكثر من المراقبة والتيقظ لخطط البريطانيين ضد السلطان • ومشكلة التوسع الروسى فى الشرق الاقصى كانت غالبا فى ذلك الوقت مشكلة مواصلات • وكان الخط الحديدى عبر سيبيريا لا يزال فى طريق الانشاء ولكنه سوف يستغرق سنوات حتى قبل تسيير خط منفرد • وحتى وقتئذ سوف يتوقف كل شيء على الطريق البحرى الطويل ، بواسطة بحر البلطيق وبحر الشمال ، فالبحر المتوسط ، فقناة السويس والبحر الاحمر الى داخل المحيط الهندى • رحلة طويلة جدا حقا ، يمكن اختصارها وبخاصة اذا استطاعت روسـيا فتح بوغازى البسـفور والدردنيل لمراكبها الحربية وناقلات جندها وضمنت ممراحرا عبر قناة السويس فى كل الاوقات •

هـذا يوضح أساس سياسـة لوبانوف فى سـنة ١٨٩٦ • فبالنسبة الى البوغازات كان هناك أمل كبير فى ادراك رغبات الروس طالما كانت علاقات روسيا وتركيا طيبة ، ودائمـا بشرط موافقة الدول الأخرى على برنامج روسيا • وكان القلق دائما من أن الروس أرادوا أن تكون البوغازات مفتوحة لمراكبهم الحربية فقط ، بينما تظل مغلقة أمام مراكب أعداء روسيا • ويستدل من الوثائق المعاصرة على أن لوبانوف تخيل قبل وفاته فقط فى أغسطس ١٨٩٦ أنه يجب عقد اتفاق لا مع ألمانيا فقط ولكن مع انجلترا أيضا ، على أساس فتح البوغازات للمراكب الحربية لكل الدول فى أوقات السلم • ولكن مثل هذا المشروع فى نظر معظم رجال السياسة الروس يتضمن التنازل عن المبدأ القائل أن البحر الاسود بحر مغلق Mare clausum ولا يعنى الا تعويض روسيا الى المهاجمة • والهدف الحقيقى هو وجوب فتح البوغازات لروسيا وحدها ، ولكن هذا فى الغالب يلقى معارضة تامة من قبل الدول الأخرى ، حتى من فرنسا حليفة روسيا • وناقش لوبانوف الموضوع مرات كثيرة مع مسيو هانوتو ولكن كان يجده دائما ميالا الى المعارضة عند اثارة هذه القضية المكدرة • ولم

تكن فرنسا راغبة فى أن يصل الروس الى البحر المتوسط الذى أرادت أن تفكر فيه كبحيرة فرنسية ·

أما بالنسبة لقناة السويس فكان الموقف يختلف بعض الشيء· فكثيرا ما نوقش مركز القناة من ناحية القانون الدولى ، وكانت للدول مصالح فى ضمان حرية الملاحة فى القناة لجميع السفن فى مختلف الظروف والاوقات · وكانت لبريطانيا مصلحة أكثر من أية دولة أخرى فى تنفيذ مثل هذه المبادىء ، وذلك بالنظر الى أهمية قناة السويس لمواصلاتها مع آسيا ، وفى الحقيقة كانت مصلحتها كبيرة حتى انها نادرا ما استأمنت أية دولة أخرى على تنفيذ مثل هذه التنظيمات ولا شك فى أن احتلال مصر سنة ١٨٨٢ كان لحد ما بسبب القلق من تحكم أية قوة فى القناة · وعلى أية حال اعتبرت الحكومات الاخرى الاشراف البريطانى على الممر تدبيرا غير مرض وغير مباح · وحثت دائما على أن تكون الرقابة على القناة دولية لضمان حريتها وفى سنة ١٨٨٥ عقد مؤتمر لبحث الموضوع فى باريس ، ووضح على الفور الاختلاف الجوهرى فى الرأى · ووضع مشروع اتفاق · ولكن المندوب البريطانى السير جوليان برنسفوت Sir Julian Pauncefote أبطل فى الواقع قيمته بالنسبة للدول الأخرى وذلك باضافة تحفظ بهذا الخصوص مؤداه ان الاتفاق لايحد حرية انجلترا فى العمل طالما تكون محتلة مصر · وفى ٢١ من أكتوبر سنة ١٨٨٧ أرسل اللورد سولسبرى مشروع اتفاق جديد الى السفير البريطانى فى باريس ليسلمه الى الحكومة الفرنسية · وقد تضمن هذا المشروع تحفظ بريطانيا بشأن حريتها فى العمل بمصر أثناء فترة الاحتلال الذى سمته مؤقتا . وفى ٤ من نوفمبر أرسل مشروع الاتفاق رسميا الى الدول · فطلبت الحكومة الهولندية تفسير التحفظ البريطانى واجابت انجلترا بأن المقصود بذلك هو الا تتعارض المعاهدة المقترحة مع الحالة الواقعية المترتبة على الاحتلال· وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة القسطنطينية فى ٢٩ من أكتوبر سنة

١٨٨٨ (١) • وقعتها بريطانيا وألمانيا والنمسا والمجر وأسبانيا وفرنسا وهولندة وروسيا وايطاليا وتركيا وفي هذه الاتفاقية نفذت انجلترا فكرتها فيما يختص بحرية المرور ، فكان أول شيء اتفق عليه مندوبو الدول جميعا هو حرية المرور في القناة لسفن جميع الدول التجارية والحربية في وقت السلم والحرب • كذلك أكدت انجلترا حقوق الحكومة المصرية في الدفاع عن القناة فهي جزء من الأراضي المصرية • وأكدت انجلترا حقوق الحكومة المصرية لما وجدت من محاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ السلطان العثماني • وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد قررت مبدأ المساواة بين الدول وأكدته ، كما أقرت عدم انفراد أية دولة بنفوذ متفوق في منطقة القناة ، الا أن انجلترا بحكم احتلالها العسكري للبلاد ومركزها الممتاز فيها ، قد أصبح لها بالفعل من الناحية الفعلية نفوذ متفوق في القناة (٢) واستمر هذا النفوذ حتى تم جلاؤها نهائيا في عام ١٩٥٦ •

وعلى العموم بما أن لوبانوف كان عازما على تأمين المواصلات مع الشرق الاقصى ، فقد صمم على وضع نهاية لهذه الحالة الشاذة من الأمور • واستغل الباعث الديني الارثوذكسي في الحبشة للغاية • وظن الكثيرون انه تصور انشاء قاعدة روسية على البحر الاحمر • وبخصوص قناة السويس فكر في الدعوة الى عقد مؤتمر دولي سوف يستبدل بالكفيل البريطاني للممر الحر اشراف من كل الدول التي يهمها الأمر • واستطاع أن يعتمد على تأييد فرنسا ، ولا سيما وأنها كانت الى الآن الدولة التي لها مصلحة • ولكن تأييد فرنسا وحدها كان ذا قيمة قليلة وكان من الضروري استمالة

1. British Documents on the Origins of the War (1898-1914), vol. 1, London 1927 : Document No. 380 «Memorandum by Mr. Oakes, on the 28th June, 1898».

(٢) الدكتور محمد مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ – ١٩٥١) ط ١٩٥٢ ص ١٠٠ – ١٠٣ •

ألمانيا لتحقيق النجاح • وبذلت أعظم المجهودات في هـذا الاتجاه طوال ربيع وصيف سنة ١٨٩٦ • وللتغلب على شكوك ألمانيا في فرنسا أعطى الروس معظم التأكيدات القاطعة • وفي أحيان كثيرة أخرى أظهر للألمان أنهم أيضا لهم مصلحة كبرى في قناة السويس وأنه يجب عليهم أن يكونوا مستعدين لأن يتعاونوا ضد انجلترا في الشئون المصرية • وكذلك سار الفرنسيون خطوات في هـذا السبيل • فكان البارون كورسيل باستمرار يضغط على هاتسفلت برغبة الاتفاق على مسائل خاصة ، وظهر أن هانوتو نفسه يدير مفاوضات جدية بواسطة الصحفيين الفرنسيين والالمان البارزين • ولكن لم يكن ثمة أمل في موقف ألمانيا وكان رد وزارة الخارجية البريطانية عما يقوله الروس والفرنسيون نفس الجواب : ولقد تبين من حـادثة ترانسـفال Transvaal ان فرنسا ما زالت تسيطر عليها فكرة الانتقام وكانت لذلك غير جديرة بالثقة • ولم يكن الموقف يبرر تغييرا أساسيا في سياسة ألمانيا

وقد استفاد الامبراطور وليم من المشروعات الروسـية في اتصالاته مع الممثلين البريطانيين في برلين ، وتدل الظواهر على أن لندن كانت تنظر لهذه الأمور بعين القلق • وكان سولسبرى يأمل في أن الروس سوف لا يتمادون الى حد عقد مؤتمر ، ولكنه قال للسفير الالماني انه واثق من أن النمسا وايطاليا في جانب بريطانيا ، ويأمل أن تكون ألمانيا أيضا في صفها ومع ذلك فانه بذل مجهودات منظمة للتفاهم مع الفرنسيين والروس • ففي يونيه أرسل الامير باتنبرج Battenberg الى بطرسـبرج بدافع ظـاهري هو لفت نظر القيصر الى سياسة لوبانوف والاخطار التي تنطوي عليها هذه السياسة • ولكنه لم يفعل شيئا ، بل أخبره لوبانوف نفسه أن مصالح روسيا تستدعي حرية الملاحة في قناة السويس والبحـر الأحمر • عند ذلك اتصل سولسبرى بالسفير الفرنسي ، مشيرا الى أنه من الممكن تعديل أو سحب التحفظ البريطاني الخاص باتفاق

قناة السويس الذى عقد فى سنة ١٨٨٨ « لم يكن فى الأصل فى نيتنا أو بالأحرى لا نريد الآن استخدام هذا الاتفاق من أجل تعريض حياد القناة للخطر » . ولكن كانت هذه الاقتراحات وهذه الاتصالات من غير جدوى . وكان من حسن حظ البريطانيين أن لوبانوف ، زعيم الجبهة المعادية لبريطانيا مات فجأة فى أواخر أغسطس . وكان من المقرر أن يزور القيصر الملكة زيارة عائلية فى قصر بالمورال Balmoral فى اسكتلندة فى أواخر سبتمبر . وبذلت كل المجهودات الممكنة لتفخيم أمر هذه الزيارة وذلك لتحسين العلاقات الانجليزية الروسية . وذهب لورد سولسبرى بنفسه الى بالمورال وتحادث طويلا مع القيصر الشاب . ولكن نيقولا Nicholas رفض أن يذهب بعيدا أكثر من تعبيره عن النية الحسنة . وبذلت الملكة فكتوريا محاولات لاغرائه ببعض الامتيازات فى مسألة المضايق ، ولكن القيصر كان يتجنب مناقشة حتى هذا الموضوع الهام . وفى أثناء ذلك بدأ سولسبرى محادثاته مع مسيو دستال De Staal السفير الروسى . وظن أنه فى مقدوره أن يستنتج من محادثاته مع القيصر ، كما يقول أن مصلحة روسيا تتركز فى مشكلة المضايق . وبدون شك أن أى حل للمشكلة طبقا لرغبات روسيا سيلقى معارضة من أوروبا ولكن سوف لا تعارضه بريطانيا . لأن الحكومة البريطانية ستكون مستعدة للتفاوض . وبعد شهر فى منتصف نوفمبر ، عاد سولسبرى الى المهاجمة وصرح بأن بريطانيا مستعدة لالغاء التحفظ فى اتفاقية قناة السويس ولبحث رغبة الروس فى ضمانات لحرية المرور فى القناة فى كل الأوقات ، على شرط ألا تناقش مسألة الجلاء عن مصر (١) .

ولم يحدث شيء نتيجة محاولات سولسبرى للتقارب من روسيا . ويبدو أن تعليل ذلك هو ان الروس كانوا يخشون

---

1. British Documents on the Origins of the War, I, No. 380.

مشروعات البريطانيين في الشرق الأدنى ويشكون في مجهوداتهم وزيادة على ذلك فكان عليهم ان يتذكروا تحالفهم مع فرنسا والنتائج التي يمكن حدوثها نتيجة اتفاق بشأن مصر • وبجانب ذلك فان مصلحة الحكومة الروسية كانت قد اتجهت الى الشرق الاقصى ، وكان الرأى الاساسى في بطرسبرج هو الابقاء على الوضع القائم في الامبراطورية العثمانية • ولكن كل هذا لا يقلل من أهمية هذه المفاوضات التي لم يعرف عنها الكثير • اذ انها تبين بدون شك ان سولسبرى لو تمكن لعقد اتفاقا مع روسيا حتى في سنة ١٨٩٦ •

ولقد كانت كارثة عدوة والاعلان السريع عن حملة دنقلة صدمة كبيرة لاوروبا وأثرت تأثيرا عميقا على الوضع الدولى • فبريطانيا لمصلحتها الخاصة وجدت أنها مضطرة لمساعدة ايطاليا وكان هذا العمل ينطوى على قطع المحادثات مع فرنسا ، وأعطى الروس فرصة عظيمة للضغط على الحكومة الفرنسية لتنتهج سياسة أكثر عداوة لبريطانيا مما كان يرغب هانوتو أو كورسيل • وكان واضحا الى حد ما أن الفرنسيين كانوا يشعرون بخيبة أمل نتيجة للتحالف الروسى الفرنسى ، الذى لم ينتظروا منه فائدة كبيرة وعرض فرنسا لخطر جرها للحرب ضد بريطانيا • ومع ذلك فانهم كانوا معتمدين أكثر من ذى قبل على الاتفاق مع روسيا بخاصة وان الأمل في التسوية مع بريطانيا قد ضعف • ولقد احتفلت باريس احتفالا كبيرا بتتويج القيصر الذى أقيمت حفلات تتويجه في موسكو في مايو ١٨٩٦ • وبلغت روعة احتفال باريس حدا كبيرا حتى أن السفير الالمانى أبدى ملاحظة في أن الفرنسيين احتفلوا بالتتويج كما لو كانت فرنسا منضمة لروسيا فى اتحاد تحت حكم امبراطور واحد(١) وقوبلت زيارة القيصر الأولى لباريس فى أكتوبر من نفس السنة بمقابلة حماسية وصرحت مدام آدم احدى المتحمسات للتحالف « بأنه

---

1. Die Grosse Politik, XI, nos. 2853.

ارتباط سماوى يعلو على الارتباطات البشرية العادية » • وبالطبع انتهز المتطرفون الفرصـــة ليذكروا القيصر بأن فرنســا تأمل فى مساعدتها للحصول على مناطقها المفقودة • ولقد شكا كليمنصو بأن « سلام الأمر الواقع الذى بنى عليه التحالف هو سلام بالنسبة لنا يتضمن نزع أجزاء منا ـ بل انه سلم ألمانى » ولكن الروس لم يكن لديهم نية تشجيع فرنسا بأن تقوم بحرب انتقامية • وكانت المقالات الموحى بها الى الصحف تحث على الاعتدال والحيطة ، وكان الكتاب الأكثر اتزانا يصرحون بأن التحالف زيادة على أنه بعيد عن ان يعنى الحرب ، فانه يضطر فرنسا الى أن تحسن علاقاتها مع ألمانيا • وكما يقول مسيو ليروى بيليو M. Leroy-Beaulieu ان زيارة القيصر كانت وعداً بالسلام المبنى على الاستسلام للمعاهدات، سواء رغبت فرنسا هذا أو لم ترغب • ولا فائدة من ترديد القول بأن فرنسا قد انضمت لخدمة القيصر ، وبأنه مطلوب منها أن تضع جانبا كل أفكار انتقامية وبأنها منعت من الاستفادة التامة بغرض الاتفاق مع انجلترا ، وبأنها أرغمت على الأقل على أن تظهر بعض الجهود لتحسين العلاقات مع ألمانيا •

وبينما دفعت تطورات مارس فرنسا أكثر فأكثر فى أحضان روسيا الا أنها ساعدت على تقوية الحلف الثلاثى الآيل للسقوط • وقد أدت حادثة تلغراف كروجر الى تبادل اتهامات حادة بين عواصم الدول الكبرى • وكان المؤكد أن التحالف لا يمكن أن يتحمل أكثر من هذا قطيعة دائمة بين ألمانيا وانجلترا • واعلان حملة دنقلة كان على الأقل مصدر عزاء • حتى لو اعتبر مجرد مســاعدة شكلية للايطاليين • ولقد أسرع الامبراطور وليم الى ايطاليا وأقنع الملــك همبرت Humbert بأن يقلع عن أى أفكار للانتقام لكارثة عدوة • وحضر الكونت جلوتشوسكى Goluchowski الى برلين وأعلن عن رضاه عن تقارب انجلترا وألمانيا ثانيا • ولم يعد هناك خطر كبير على الحلف الثلاثى • وصرح رودينى Rudini عن عزمه على

الاستمرار فى هذا التحالف • ولقد بذل جهدا ليجدد الفقرة التى تنص على أن الاتفاق غير موجه ضد بريطانيا • ولكن الالمان رفضوا بحث هذا بحجة أن هذه الفقرة ليست ضرورية وغير مرغوب فيها وان الحالة الوحيدة التى تنص عليها الاتفاقية للعمل فيها ضد انجلترا تنشأ عندما تهجم بريطانيا بالاشتراك مع قوة أخرى ، كما أن تحالفا فرنسيا انجليزيا أو تحالفا انجليزيا روسيا كان بعيد الاحتمال • علاوة على ذلك فان النص على هذه الفقرة يعطى التحالف مظهرا عدائيا لفرنسا وروسيا • ولقد قبل رودينى أخيرا هذا المنطق ولكنه اهتم بالتصريح على الملأ أن الاتفاق مع بريطانيا هو «حجر الزاوية لكل اتفاقات أخرى تعقدها ايطاليا » وان «العلاقات الودية مع انجلترا هى التكملة الطبيعية للتحالف الثلاثى » •

وبالرغم من أن التحالف الثلاثى استمر ست سنوات أخرى فان هذا لا يعنى أنه كان كحالته الأولى فى أيام بسمرك وكريسبى• ووزارة الخارجية الألمانية ، ان لم يكن الامبراطور ، كان يملؤها الشك من بريطانيا ، وكانت لهذا راغبة فى تقوية علاقتها مع روسيا • والحقيقة أن الألمان لم يوافقوا على اقتراحات روسيا للعمل ضد انجلترا فى قناة السويس والمسألة المصرية ولكن مع هذا كانت العلاقات ودية • وفى سبتمبر قبل الذهاب الى بالمورال وباريس تفاوض القيصر نيقولا ووزراؤه مع الامبراطور وليم وهوهنلوه Hohenlohe فى سيليزيا وذهب لوبانوف الى فيينا • وكانت نتيجة هذه المباحثات مرضية • ولقد ذهب القيصر بعيدا حتى أنه وعد بالموافقة على رأى الحكومة الفرنسية بشأن عمل اتحاد قارى لمقاومة غزو الأطعمة الامريكية وعند رجوعه من باريس توقف فى طريقه عند أقاربه فى دارمستاد Darmstadt حيث زاره الامبراطور وليم ثانيا • ولقد أوضح القيصر بأنه كان من الممكن الاستغناء عن هذه المقابلة ، ولكن المناقشة التى لم تتعد العموميات البريئة تبين العلاقات الودية بين الحاكمين وحكومتيهما • بينما كان الالمان

يتجنبون أية تعهدات أو التزامات ومستمرين فى مساعدتهم لبريطانيا فى المسألة المصرية ، الا أنهم كانوا محافظين على سلامة اتصالهم ببطرسبرج (١) ٠

ولم يكن الايطاليون أكثر استعدادا من الألمان لأن يعتمدوا اعتمادا كليا على الحلف الثلاثى ٠ وكان ضغط الفرنسيين والروس فى المسألة الحبشية واضحا ومؤلما ٠ وكانت نية بريطانيا غير واضحة ، وتعتمد الى حد كبير على العلاقات مابين ألمانيا وانجلترا التى لا يمكن تفسيرها ٠ ورأى رودينى بوضوح كما فعل فى سنة ١٨٩١ ، بأن ايطاليا لا يمكنها أن تستمر فى عدائها ضـــد فرنسا وان المشاحنات الجمركية التى استمرت منذ سنين كانت تسبب خرابا كبيرا ولقد أخبر السفير الألمانى فى يوم١٧ مارس بأن التسوية الجمركية مسألة حياة أو موت ٠ وكانت المسألة الحبشية فى هذا الوقت تستغرق كل وقت الوزير ، ولكن عند مخاطبته مجلس النواب فى ٢٥ مايو أوضح بجلاء أن التحالف الثلاثى لا يمنع تدعيم العلاقات الودية مع فرنسا وروسيا وأنه ينوى تكريس نفسه لهذا الغرض للنهاية (٢) ٠

وكان تصريح رودينى هذا فاتحة مفاوضات فى باريس فى أوائل يونية ٠ وكانت الحكومة الفرنسية ، التى سبق فى سـنة ١٨٩١ أن رفضت عروض رودينى حتى تترك ايطاليا الحلف الثلاثى قد فكرت طويلا فى الموضوع وأصبحت مستعدة لبحث المقترحات بروح أكثر ودية ٠ ولقد أخبر السفير الايطالى الكونت تورنيللى Tornielli بصراحة ان الوقت لم يحن بعد لتسوية جمركية ٠ وجعلت موجة التحفظ والحذر ، التى أتت بوزارة ميلين Meline للحكم أية تسوية شيئا غير عملى فى ذلك الوقت ٠ ولكن الفرنسيين

---

1. Die Grosse Politik, XI, nos. 2861.
2. Ibid., nos. 2819.

كانوا راغبين فى تسوية بشأن الحقوق الايطالية فى تونس وأن تشمل هذه التسوية بعض الامتيازات بخصوص الملاحة . وكان الايطاليون قد عقدوا معاهدة تجارية مع باى تونس فى سنة ١٨٦٨ أعطتهم مركزا ممتازا هناك . وتمتد هذه المعاهدة لفترة ٢٤ سنة وتستمر الا اذا ألغيت قبل الانتهاء بسنة واحدة . وكان تاريخ الغائها هو ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ وتاريخ انتهائها سنة بعد ذلك . وفى أغسطس سنة ١٨٩٥ أعطت الحكومة الفرنسية انذارا فى الوقت المناسب بصفتها ممثلة للحكومة التونسية . وكان من رأى كريسبى أن هذا العمل غير صحيح فى حد ذاته وأنه بأية حال من الأحوال اذا انتهت مدة المعاهدة فان ايطاليا سوف تحيى حقوقها وفق اتفاقيات سابقة .

وكانت قانونية هذا الرأى عرضة للمناقشة . فمن الوجهة السياسية كان من العبث اقتراحه لأن ايطاليا لا تأمل فى أن تجد مساعدة من الدول الأخرى . فانجلترا التى كان بينها وبين تونس معاهدة أبدية والتى كانت فى مركز أقوى ، أوضحت فى يناير سنة ١٨٩٦ استعدادها لعقد تسويات جديدة مع فرنسا . وكانت ألمانيا لا تهتم كثيرا بهذا الموضوع ولذلك رفضت أن تنحاز الى المنطق الايطالى . أما النمساويون الذين كانوا دائما راغبين فى الابقاء على العلاقات الودية مع فرنسا بدءوا يتفاوضون سرا ، وفى أغسطس سنة ١٨٩٦ عقدوا اتفاقا تعترف النمسا بمقتضاه بتونس كمحمية لفرنسا . وفى هذه الظروف كان روديني حكيما فى أن طرح جانبا الرأى المتطرف لكرسبى وأن يعمل جهده للاستفادة قدر الامكان من مركز الايطاليين الضعيف . وفتحت المفاوضات كما ذكرنا سابقا فى أوائل يونية . وأحرزت هذه المفاوضات قليلا من التقدم حتى عندما خلف فى يولية الماركيز فسكنتى فينستا Visconti-Venosta وهو معروف بصداقته لفرنسا ، الدوق دى سيرمونيتا Duke Di Sermoneta فى وزارة الخارجية الايطالية .

وليس من الضرورى فتبع هـذه المباحثات بالتفصـيل وبخاصة لأن الاوراق الرسمية عن الموضوع لم تنشر بعد . ويكفى القول أنه فى آخر لحظة ، قبل انتهاء المعاهدة فى ٢٩ سبتمبر وصل الى اتفاق اعترفت ايطاليا بمقتضاه بتونس كمحمية لفرنسا وقبلت لنفسها مركز الدولة المفضلة فى تونس . وخففت الاتفاقية الجديدة بشأن الملاحة بعض القيود التى كانت قد وضعتها الدولتان على التجارة بين ثغورهما ، ونظر الايطاليون الى المعاهدة كفاتحة لتسوية أكبر للشئون الجمركية .

وبينما كانت ايطاليا وفرنسا تتناسيان تدريجيا أحقادهما القديمة بذلت مجهودات للتقريب بين روسيا وايطاليـا أيضا • وتفصيل هذا غير معروف• ومما يمكن استنتاجه برغم ضآلة مالدينا من المادة ، يبدو أنه بعد فشل المحاولات الايطالية الأولى لعقد صلح مع منليك ، أرسـل امبراطور الحبشـة الوكيل الروسى الخطير ليونتيف Leontiev الى بطرسـبرج ملتمسـا توسـط روسـيا • ولا نعرف شيئا عن الرد الايطالى • ولكن ليونتيف نفسه أتى الى ايطاليا فى الصيف وقابله رودينى • ورافق لوبانوف عندما زار الأخير فينا فى أغسطس ، وتحادث كثيرا مع السفير الايطالى الكونت نيجرا Nigra. ويبدو أن فسكنتى فينستا وزير الخارجية الايطالية كان يأمل ويرغب فى زيارة القيصر نيقولا لايطاليا ، أسوة بعواصم الدول الأوروبية فى رحلته فى الخريف ، وحتى عندما فشل هذا كان يأمل فى زيارة القيصر لايطاليا فى الربيع • والاتصال الجديد بين روسيا وايطاليا لم يكن بعيد المدى ولكنه جدير بالذكر •

ولقـد تكلم البروفسـور سـليفيمينى Salvemini المـؤرخ الايطالى البارز عن هذه الفترة مشيرا الى « تشـابك المحالفات Interpenetration of alliances والعبارة دقيقة التعبير • فالمصالح الجديدة للدول الأوروبية قد أدت الى تداعى نظام التحالف القديم الذى وضعه بسمرك • وأقلق حتى الارتباط الفرنسى الروسى •

ولم يعد التقارب الاوروبى كافيا لحاجات السياسة العالمية الكبرى. ولقد حاول أعضاء كل مجموعة تجنب المنازعات الخطيرة فى أوروبا والحصول على مساعدة فى مشروعاتهم الافريقية • وفى مثل هذه الظروف كان من الطبيعى أن تشعر انجلترا بحدة الموقف أكثر من غيرها لأن مصالحها العالمية تعادل مصالح الدول الأخرى بأجمعها • ولهذا فان المرحلة الثانية للنزاع على أعالى النيل وهى مرحلة استرداد السودان ، زادت فى اتساع الشقة بين انجلترا من جانب وفرنسا وروسيا من جانب آخر • وبالرغم من حادثة كروجر الا أن بريطانيا اضطرت الى زيادة تقاربها من الحلف الثلاثى • ولكن الود القديم قد ضاع • وفى كل النواحى أصبح مفهوما أنه لن يكون هناك أى تعاطف • اذ أصبحت الحالة تدعو بأن تلتفت كل دولة لمصلحتها الخاصة وتترك الباقى للشيطان • وفى ضباب هذا الشك كان الالمان أحسنهم مركزا • ولم يكن هذا نتيجة عمل جليل من جانبهم ، ولكن نتيجة الحظ ، لأنهم تمكنوا من أن يتبعوا سياسة الود مع الجانبين فكانت انجلترا فى حاجة الى ألمانيا لاحباط عمل التحالف الفرنسى الروسى بشأن مصر ومسألة قناة السويس • وكانت روسيا فى حاجة الى الالمان ليرجحوا كفتها ضد انجلترا • وساعد موقف ألمانيا مع بريطانيا فى آن يظل الايطاليون والنمساويون مخلصين بعضهم لبعض وجلب ود روسيا معه علاقات أحسن مع فرنسا • وتحت كل هذا شك ، حتى فى العلاقات الانجليزية الألمانية ولكن فى الظاهر كانت ألمانيا لاتزال كما كانت فى أيام بسمارك وقبل عقد التحالف الفرنسى الروسى الحكم فى مشاكل أوروبا •

قررت الحكومة البريطانية استرداد السودان فأوعزت الى الحكومة المصرية تجريد حملة بقيادة اللورد سردار الجيش المصرى، ولم تكن الحكومة المصرية الا منفذة لارادة الحكومة البريطانية • وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام ان رئيس الوزارة لم يعلم شيئا عن أمر هذه الحملة الا فى اليوم الذى ذهب فى مسائه الى الخديو

وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى اليه بأن الحكومة الانجليزية قررت ارسال حملة الى السودان ، فلم يكن من الحكومة المصرية الا أن قررت في اليوم التالى تجريد هذه الحملة ·

أقرت الحكومة المصرية في يوم ١٢ من مارس سنة ١٨٩٦ الحملة على دنقلة ، وكانت حملة جدية منظمة ، اذ حشدت على الحدود جيشا يبلغ ١٦٦٨٠ مقاتلا منهم سبعمائة ضابط وهو مجموع الجيش المصرى اذ ذاك ، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل ، ولكنها حصرت الأعمال الرئيسية في القواد والضباط الانجليز · فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر) ورئيس أركان الحرب ، ومدير قلم المخابرات ، وحكيمباشى التجريدة ، والحكيمباشى البيطرى ومدير المهمات ومدير حملة النقل ، وأركان حرب التلغراف وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة وقواد اللواءات جميعا ·

وقد أبدى الجيش المصرى فى وقائع استرداد السودان من الشجاعة والكفاية والصبر الشيء الكثير ، وأخذ يواصل الزحف حتى تم له القضاء على الدراويش في موقعة أم درمان فى ٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ ·

وقد فر التعايشى جنوبا بعد الواقعة واستقر فى جبل أبى قدير ، فسارت اليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار وانتهت بقتله فى واقعة (جديد) فى ٢٤ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وبموته سلم البقية من أتباعه وانتهت الثورة المهدية في السودان ·

وفى يوم الأحد ٤ من سبتمبر ، بعد واقعة أم درمان بيومين ، عبر السردار النيل الى الخرطوم ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على اطلال سراى الحاكم العام ، فقوبل رفع الراية الانجليزية على

الخرطوم بالدهشة والسخط فى مصر ومن الضباط المصريين فى السودان ، اذ كان المفهوم ان استرداد السودان كان لحساب مصر وبجنودها وأموالها وجهودها ، ولكن ولاء وزارة مصطفى باشا فهمى للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يمعنون فى الاعتداء على حقوق مصر ، فان رفع الراية الانجليزية على الخرطوم كان ايذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية ولم تحرك الوزارة ساكنا أمام هذا الحادث الجلل ، بل مر كأنه حادث عادى(١) !!

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٦٣٣ — ٦٤٦ ، وعبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ٣٣١ — ٣٣٢ .

الفصل الحادى عشر

أزمة فاشودة

١٨٩٨

يعتبر المؤرخون الاحتلال البريطانى لمصر ، والثورة المهدية ، وفشل جوردون ونهايته ، واخلاء السودان فى سنة ١٨٨٥ حوادث مهمة جدا بالنسبة لشيئين : أولهما بالنسبة للعلاقات السياسية الكبرى فى أوروبا نفسها ، وثانيهما بالنسبة لحركة الاستعمار بعامة وفى افريقية بصفة خاصة ٠

ولأضرب مثلا على تأثيرها فى السياسة الأوروبية : ان أهم حقيقة فى تاريخ العلاقات السياسية الكبرى قبل الحرب العالمية الأولى كانت الحقيقة التى تولدت عنها المحالفات الكبرى ، وهى حرب فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ واستيلاء ألمانيا على الألزاس واللورين ، وتصميم فرنسا على استرداد ذلك الجزء فى يوم من الأيام ٠ ترتب على ذلك تحرك الدول نحو تنظيم المحالفات ، فابتدأ بين فرنسا وروسيا التقارب الذى انتهى بالمحالفة الروسية الفرنسية ٠ على اعتبار أن ألمانيا عدو مشترك للدولتين فى وسط أوروبا ، أما ألمانيا فجمعت اليها الامبراطورية النمساوية وايطاليا ٠ وكانت الامبراطورية النمساوية تعتمد على ألمانيا ، لأنها كانت لها آمال ومطامع فى البلقان ، وتخشى امتداد النفوذ الروسى فى هذه المنطقة ٠ أما ايطاليا فكانت حليفا ثالثا غير موثوق به كل الوثوق لأنها كانت لها مصالح

فى أوروبا الوسطى من جهة ، ومن جهة أخرى كانت تحب مصالحة الدول البحرية كانجلترا وفرنسا ٠

والذى يهمنا من هذا هو أثر احتلال مصر ومشروعات تقسيم افريقية فى علاقات الدول الأوروبية بعضها ببعض ، من حيث أن هذه المسائل من ناحية تبعد بين الدول ، ومن ناحية أخرى تستخدم فى سبيل الغايات الأوروبية نفسها ٠ فكانت أول نتيجة لاحتلال انجلترا لمصر أن فرنسا ساءتها تلك النهاية ، وأن هذا أوجد جفوة بين الدولتين الغربيتين ، وأن بسمرك استخدم هذا ليحول دون أى تقارب بين الكتلة الروسية الفرنسية وانجلترا ، وعمل طوال مدته على تأييد الاحتلال الانجليزى لمصر ٠ وأفاد بذلك انجلترا كثيرا ، لأن فرنسا كلما أثارت صعوبات أمام الاحتلال الانجليزى ، يأتى التأييد الألمانى ويفسد كل تلك الصعوبات ٠ ثم تستخدم السياسة الألمانية تأييدها لانجلترا كوسيلة لتحقيق أهداف معينة ، كجعل انجلترا تبتعد عن فرنسا ، وكحمل الانجليز على التسليم بمشروعات استعمارية ألمانية فى افريقية ٠

أما عن تأثير تلك الحوادث التى ذكرتها ، وهى الاحتلال البريطانى لمصر والثورة المهدية وفشل جوردون ونهايته واخلاء السودان ، فى تقسيم افريقية ، فالكلام فيه له وجهان : الوجه العام ، وهو المتعلق بمسائل الدول المختلفة لاقتطاع أجزاء من افريقية ، ويمكننى أن أقرر أنه تم فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر وضع الخطوط الرئيسية للخريطة الافريقية ، وأن هذه المدة تعتبر عصر تقسيم أفريقية ، الذى التهمت فيه أراضى القارة الالتهام المعروف ، وكان هذا بموجب عمليات دبلوماسية دقيقة ، متصلة أكبر الاتصال بالدبلوماسية الأوروبية العالمية فى ذلك الوقت ٠ والدول التى اشتركت فى التقسيم كانت ايطاليا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وانجلترا ٠ أما عن الوجه الخاص وهو المتعلق بمنطقة أعالى النيل نفسها ، فقد همت تلك الدول ،

بالاضافة الى الحبشة ، بأن تصل اليها ، أى أن كل مسعى لهذه الدول فى التقدم من سواحل افريقية كان للوصول الى أعالى النيل. وعلى هذا الاســـاس عندما أعلن اخلاء السودان ، وترك لعوامله الداخلية بعد سقوط الخرطوم ، إعتبرته هذه الدول كلها ـ ماعدا انجلترا طبعـا ـ أرضا بلا صاحب ، وحاولت الزحف نحـو تلك الأرض . وانجلترا كان أملها أن تمنع ذلك الزحف ، لأنها كانت تريد أن تكون هى الوريثة عندما تحين لها الفرصة لتحقيق ذلك ، فكانت سياستها مقاومة كل من يعترض سبيلها فى اتمام مشروع تأسيس امبراطورية من البحر المتوسط الى رأس الرجاء الصالح ، وأن تحول دون أية دولة والاستيلاء على منطقة أعالى النيل ، فهى حجر الزاوية للقبو العظيم الذى تستند عليه الامبراطورية الافريقية. كما أنها كانت تريد منع وقوع أعالى النيل فى أيدى دولة أوروبية فتهدد مصر وهى صاحبة الشأن فيها . لذلك أصبحت حماية أعالى النيل أحد مفاتيح السياسة البريطانية فى افريقية .

من الممكن الهجوم على أعالى النيل من اتجاهات مختلفة : من البحر الأحمر ، ومن ساحل افريقيا الشرقى ، ومن الكنغو ، وقد سهلت انجلترا لدولة لا تخشى بأسها ، وهى ايطاليا ، الاستقرار فى بعض أقاليم غربى البحر الأحمر فأعطتها مصوع ، وشجعتها على تأسيس مستعمرة اريتريا وارسال حملات علمية وتجارية الى اقليم هرر ، كما سمحت لها باحتلال كسلا مؤقتا . ثم عقدت معها فى سنتى ١٨٩١ ، ١٨٩٤ اتفاقات نصت على اعتراف بريطانيا بدائرة نفوذ ايطالية تمتد من ساحل اريتريا ، وتشمل جميع الحبشة ، وتنتهى على ساحل المحيط الهندى بما فيها الصومال الايطالى . والمهم أنه روعى فى رسم حدود هـذه المنطقة أن تكون بعيدة عن وادى النيل ، وفى الوقت نفسه تقف سدا ضد أية محاولة للفرنسيين للتوغل غربا من الصومال الفرنسى . وهكذا اتبعت بريطانيا فى

منطقة غربي البحر الأحمر سياسة تحول دون هجوم فرنسا وايطاليا والحبشة على أعالي النيل من هذه الناحية .

وفي ساحل افريقيا الشرقي اتبعت انجلترا سياسة انتهت بتقسيم هذه المنطقة مع ألمانيا بمقتضى معاهدة بين الطرفين في سنة ١٨٩٠ ، وباحتلال انجلترا لأوغندة واعلان حمايتها عليها في سنة ١٨٩٤ .

وفي الغرب ، كما في الشرق ، أرادت الحكومة البريطانية اتخاذ احتياطات لحماية أعالي النيل من الاعتداء ، فعقدت مع ألمانيا معاهدة في نوفمبر سنة ١٨٩٣ تسمح للممتلكات الألمانية في الكمرون بأن تمتد شمالا حتى بحيرة تشاد ، وشرقا في حدود دولة الكونغو ، بحيث تكون بعيدة عن أعالي النيل ، وكانت انجلترا ترمي من وراء ذلك الى قطع الطريق على امتداد المناطق الفرنسية الى النيل . ولكن فرنسا استطاعت أن تتفق مع ألمانيا في مارس سنة ١٨٩٤ على تحديد الحد الشرقي للكمرون ، بحيث تركت لفرنسا الحرية في التوسع شمالا حتى بحيرة تشاد وشرقا كما تريد . وبذلك أعطت ألمانيا لفرنسا ما أخذته من انجلترا قبل ذلك بثلاثة أشهر ، فاتجهت انجلترا الى ليوبولد ملك بلجيكا ، وعقدت معه اتفاقا في مايو سنة ١٨٩٤ ، تنص المادة الثانية منه على تأجير منطقة بحر الغزال الى ليوبولد ، وذلك لمنع الفرنسيين من التقدم الى أعالي النيل من ناحية الغرب ، وتنص المادة الثالثة على أن يؤجر ليوبولد الى بريطانيا ممرا عرضه ١٦ ميلا وطوله ١٨٨ ميلا ، ويمتد من بحيرة تنجانيقا الى بحيرة ألبرت ادوارد . وهذا الممر كانت تريده انجلترا ، لأنه كان حلقة اتصال هامة في المشروع المشهور بالخط الحديدي من الكاب الى القاهرة . احتجت فرنسا وألمانيا على هذا الاتفاق ، فاضطرت بريطانيا وبلجيكا الى التراجع وأعلنتا بطلان هاتين المادتين . كما اضطر ليوبولد لأن يوقع اتفاقا مع فرنسا في أغسطس سنة ١٨٩٤ ، تنازل بمقتضاه عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال ،

فبقى الطريق مفتوحا أمام الفرنسيين للوصول الى أعالى النيل من ناحية الغرب ٠

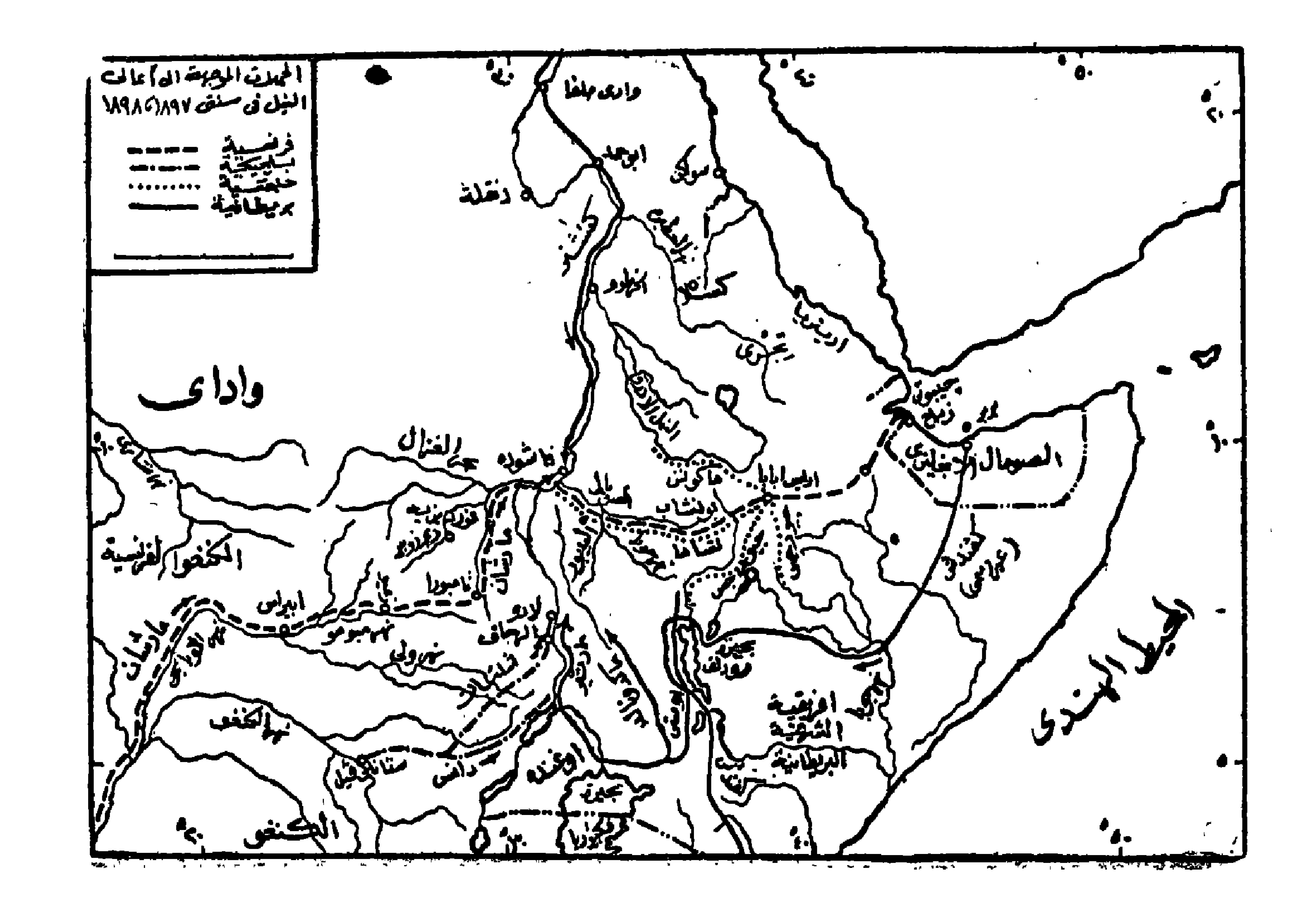
ثم جرت مباحثات بين انجلترا وفرنسا فى أوائل سنة ١٨٩٥ كانت نتيجتها الفشل ، فأدى هـذا الى تحمس كبير من جانب الامبرياليين الفرنسيين ، وأصبحوا يحلمون ـ أكثر من أى وقت مضى ـ ببلوغ النيل عن طريق بحر الغزال ٠ ولمعارضة المشروع البريطانى ، الذى يهدف الى وصل الكاب بالقاهرة فى خط غير منفصم من الاراضى البريطانية ، ظهر مشروع وصل الاطلنطى بالبحر الأحمر فى خط من المراكز الفرنسية ٠ وقد شبه ذلك بقطع الكمثرى الافريقية بالعرض قبل أن تقطعها انجلترا بالطول ٠ كما أن ليوبولد قام أيضا فى تلك السنة بمباحثات فى لندن وباريس ، يهدف من ورائها اعطاءه كل وادى النيل من الخرطوم حتى بحيرة فكتوريا بصفة ايجار ٠ ولكنه لم ينجح فى هذه المباحثات ونظر الى نشاطه باستخفاف ٠

وعلى العموم كانت بريطانيا فى أوائل عام ١٨٩٦ غير مستعدة لاعطاء فرنسا أو بلجيكا أو غيرهما أية امتيازات حقيقية فى أعالى النيل ٠ وكان هدفها تأجيل المسألة المصرية السودانية حتى يتم استعدادها فتعمل فيها بقوة ٠ ولكن لم تتح للانجليز فرصة اختيار الوقت المناسب لهم ٠ فلقد انقلب الموقف السياسى ، وزاده تعقيدا انهزام الايطاليين أمام الأحباش فى عدوة فى مارس سنة ١٨٩٦ ٠

وعلى أثر هذه الهزيمة اتخذت انجلترا فورا قرارها بالتقدم لاسترداد السودان عن طريق وادى حلفا والنيل ٠ ويعلل بعض الكتاب مثل ونستون تشرشل اتخاذ هذا القرار بأن الرأى العام البريطانى ضغط على الحكومة لشعوره بوجوب الأخذ بثأر جوردون ٠ ويقول البعض الآخر ان الذى أزعج الانجليز حقا هو النشاط الذى استأنفه الدراويش فى شرق السودان ، وأنه كان هناك تفاهم بينهم

وبين امبراطور الحبشة • والحقيقة أنه بهزيمة الايطاليين - أصدقاء الانجليز - في عدوة ، تحطم السد الذى حاول الانجليز اقامته فى وجه فرنسا فى الناحية الشرقية حتى لا تصل الى أعالى النيل من هذه الناحيـــــة • ولما أدرك البريطانيون خطورة موقفهم بهزيمة أصدقائهم وانكشاف جناحهم الشرقى ، أسرعوا فى تنفيذ استرداد السودان لكى يصلوا بقواتهم الى أعالىالنيل قبل وصول الفرنسيين• وكانت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر ، وانتهت بهزيمة عبد الله التعايشى فى أم درمان فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ •

وكانت فرنسا لسنين عـدة تريد جلاء الانجليز عن مصر • وعندما فشلت فى هذا الأمر قررت الاندفاع الى أعالى النيل ، لترغم الحكومة البريطانية على الاتفاق بخصوص المسألة المصرية ، ولتضع حدا لحلم البريطانيين بربط مصر برأس الرجاء الصالح ، فقررت فى سنة١٨٩٦ ارسال حملة الى أعالىالنيل بقيادة الضابط مارشان• ووصل مارشان الى فاشودة على النيلالابيض - عن طريقالكنغو- فى مساء ١٠ من يوليو سنة ١٨٩٨ مصحوبا بستة ضباط أوروبيين ونحو مائة وعشرين من السنغاليين، ورفع العلم الفرنسى على أنقاض القلعة المصرية القديمة هناك • كما أن ليوبولد نظم بعثتين عظيمتين فى الكونغو للتقدم تجاه النيل الى لادو ، وذلك لمساعدة مارشان ، ان أمكن ، ضد أى هجوم من الدراويش ولحماية مؤخرته • وفى الوقت نفسه اتفقت فرنسا مع امبراطور الحبشة على ارسال حملات فرنسية من الصومال الفرنسى وأخرى حبشية لتتجه غربا الى النيل الأبيض لمقابلة مارشان ومساعدته • ونلاحظ أن الحبشـــة كانت تطمع فى امتداد أراضيها فى النيل ، ولذلك اشتركت مع فرنسا فى هذه الحملات • وعلى العموم وصل مارشان الى فاشودة ولم تفد هذه الحملات لفشلها فى الوصول ، لأنها لم تعمل حساب المستنقعات والنهيرات الكثيرة التى واجهتها فى طريقها ، خصوصا وأن وقت تقدمها كان يتفق مع بدء سقوط الأمطار فى هذه المنطقة •



الحملات الموجهة الى أعالي النيل في سنتي ١٨٩٧، ١٨٩٨
فرنسية
بلجيكية
حبشية
بريطانية
وادي حلفا
ابو حمد
دنقلة
سواكن
كسلا
اريتريا
وادای
الغزال
فاشوده
اديس ابابا
الصومال
المحيط الهندي
افريقية الشرقية البريطانية
الكنغو الفرنسية
الكنغو
اوغنده
بحيرة

ومما يجدر ذكره أنه قبل استئناف القتال ضد الخليفة عبد الله التعايشي ، كان هناك اجتماع هام لمجلس الوزراء في لندن ، حضره اللورد كرومر ، المعتمد البريطاني في مصر • وقرر في هذا الاجتماع انه عند استرداد الخرطوم ، يجب أن يخفق العلمان المصرى والانجليزى جنبا الى جنب في السودان ، وأن على الحكومة المصرية أن تتبع مشورة بريطانيا في كل ما يتعلق بأمور السودان• وزيادة على ذلك تقرر ارسال أوامر لكتشنر بأن يرسل بعض القوارب الحربية في النيل الأزرق ، ويتقدم هو بقوة صغيرة في النيل الأبيض حتى فاشودة ، أو أبعد من ذلك اذا أمكن • كما أن عليه ألا يعترف بأية مطالب فرنسية أو حبشية في أى جزء من وادى النيل ، وأن يتجنب الاصطدام بقوات فيليك ، امبراطور الحبشة ، مهما كان الأمر •

ورأى كتشنر أنه من الضرورى تنفيذ هذه الأوامر في الحال بعد هزيمة الخليفة ، لأنه في ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كانت هناك باخرة نيلية تابعة للمهديين ، آتية من أعالى النيل ، وأوقفت بالقرب من الخرطوم • وعند استجواب بحارتها قرروا أن باخرتهم كانت قد أرسلت الى النيل الأبيض منذ مدة ، ولكن أطلق عليهم بعض البيض النار عند فاشودة واضطروهم للرجوع ودعم فحص الرصاص الذى استقر في خشب الباخرة ، الحقيقة القائلة ان هناك أوروبيين في فاشودة • ولم تبذل السلطات في الخرطوم أى جهد لمعرفة من هم هؤلاء • اذ بعد ذلك بثلاثة أيام رحل كتشنر بخمس بواخر وقوة من السودانيين قوامها ١٨٠٠ جندى ، يساعدها عدد قليل من الجنود البريطانيين وعند اقترابه من فاشودة في ١٨ من سبتمبر أرسل خطابا الى مارشان ، وأجاب عليه القائد الفرنسى قائلا انه احتل المنطقة منذ ١٠ من يولية ، ولا يمكنه تركها بدون

تعليمات من حكومته • وفى اليوم التالى تقابل الرجلان ، ورفض مارشان أن ينسحب ، بالرغم من احتجاجات كتشنر •

ويصف كتشنر مقابلته مع مارشان فى رسالة أرسلها من الخرطوم فى أواخر سبتمبر الى السفارة البريطانية بالقاهرة قال فيها :« رجعت الآن من فاشودة ، وقد لقيت فيها المسيو مارشان وثمانية ضباط و ١٢٠ جنديا ، وكانوا قد رفعوا الراية الفرنسية على دار الحكومة القديمة وسكنوا فيها ؛ فكتبت اليه كتابا قبل وصولى بيوم أخبره فيه أنى قادم الى فاشودة . وفى الصباح التالى ، أى فى ١٩ من سبتمبر جاءنى زورق صغير رافعا الراية الفرنسية بجواب من مارشان يقول فيه انه وصل الى فاشودة فى ١٠ من يولية بعد أن أمرته حكومته باحتلال بحر الغزال حتى ملتقاه ببحر الجبل ، وأيضا بلاد الشلك على الضفة اليسرى فى النيل الابيض حتى فاشودة . وأنه عقد معاهدة مع مشايخ الشلك مقتضاها بسط حماية فرنسا على بلادهم ، وأرسل المعاهدة الى حكومته لتصدق عليها عن طريق الحبشة وطريق بحر الغزال أيضا . ثم وصف القتال الذى جرى بينه وبين الدراويش فى ٢٥ من أغسطس • وقال انه كان ينتظر هجومهم عليه هجمة أعظم من الأولى • فتداركا لذلك أرسل باخرته فى طلب المدد ، ولكن وصولنا منعهم من اعادة الكرة عليه ، فلما وصلنا الى فاشودة جاء المسيو مارشان والمسيو جرمان الى باخرتنا ، فأخبرتهما على الفور أن وجود قوم من الفرنسيين فى فاشودة ووادى النيل يعد تعديا على حقوق مصر والحكومة الانجليزية • واعترضت على احتلالهم لفاشودة ، ورفعهم الراية الفرنسية على أملاك سمو الخديو أشد الاعتراض • فأجابنى المسيو مارشان أن الأوامر صدرت اليه صريحة باحتلال البلاد ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة فى فاشودة • وأنه يستحيل عليه الخروج من ذلك المكان الا بأوامر حكومته ، وهو ينتظر ألا تبطىء أوامرها • فسألته عما اذا كان

يقاومنا في رفع الراية المصرية على فاشودة ، وهو يعلم أن معى قوة أعظم من قوته • فتردد ثم قال أنه لا يستطيع المقاومة ، فرفعت الراية المصرية حينئذ جنـــوبي الراية الفرنسية بنحو خمسمائة ياردة على ركن منهدم من أركان الحصون المصرية القديمة المشرفة على الطريق الوحيد بين مكان الفرنسيين وبين داخلية البـــلاد ، لأن المستنقعات تحيط بمكان الفرنسيين من الشمال • وقبل سفرى من فاشودة جنوبا سلمت الى المسيو مارشان كتابا اعترضت فيه اعتراضا رسميا بالنيابة عن الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية على احتلال فرنسا لجزء من وادى النيل • لأن ذلك يكون تعديا على حقوق الحكومتين • وقلت انى لا أعترف باحتلال فرنسا لجزء من وادى النيل • وتركت فى فاشودة حامية ، وهى عبارة عن أورطة سودانية ، وأربعة مدافع ، وباخرة ، تحت أمر الماجور جاكسون ، وعينته قومندانا لمركز فاشودة • ثم سرت الى سبت ورفعت الراية عليها ، وأقمت نقطة فيها فى ٢٠ من سبتمبر • ولم أر للأحباش أثرا على نهر السوباط • ولكن أنبئت أن أقرب نقطة لهم تبعد ٣٥٠ ميلا عن ذلك النهر • ووجدت بحر الجبل غاصا بالطحالب والأعشاب ، فأمرت مدفعية أن تسير فى بحر الغزال للاستطلاع متوجهة ناحية مشرع الرق • وعدت ، فلما مررت بفاشودة فى رجوعى شمالا ؛ أرسلت الى المسيو مارشان ، كتابا أقول فيه ان نقل المواد الحربية ممنوع ، لأن البلاد موضوعة تحت الأحكام العرفية • وجاء شيخ قبيلة الشلك وكثيرون من رجاله الى معسكر الماجور جاكسون ، وأنكر أنه عقد معاهدة مع الفرنسيين • وقد أبدت القبيلة كلها مزيد السرور بالرجوع الى طاعتنا • هذا والمسيو مارشان تعوزه الذخيرة والمئونة ، وكل مايرسل اليه لا يصله الا بعد أشهر • ثم انه منقطع عن داخلية البلاد • ووسائل النقل فى الماء عنده لا تفى بالمراد ، وليس له أتباع فى هذه البلاد • ولو تأخرنا أسبوعين عن هزيمة الخليفة لأفنى الدراويش حملته ولم

ينجها أحد من أيديهم • وأدرك الكابتن مارشان بنفسه تماما عبث مجهوداته ، ويبدو أن رغبته في العـــودة كانت تعادل رغبتنا فى تسهيل رحيله • ففى موقفه الراهن كان لا حول له ولا قوة ، ولكن أرجو أن تتخذ حكومة جلالة الملكة التدابير اللازمة لابعاده بأسرع وقت ممكن ، لأن وجود قوة فرنسية وعلم فرنسى فى النيل غير مرغوب فيه للغاية » •

ولقــد أثار النصر فى أم درمــان على قوات الخليفة عبدالله التعايشي سرورا عظيمــا فى انجلترا ، واســتولى هذا السرور على الانجليز كما قال تشرشل لدرجة أن الناس حمدوا الله وحكومتهم وجنرالهم ، أى كتشنر ، واذ حكمنا على شعورهم بما يكتب فى الصحف ، نجد أن الناس قد جنوا بفرحة النصر ، ثم فى مـــدى أسبوع أتت اشاعات بظهور الفرنسيين فى أعالى النيل • وبالرغم من مجهودات كتشنر فى اخفاء تحركاته ، الا أن مراسلى الصحف فى الخرطوم ، أرســلوا أخبار مقابلته لمارشـــان • وقبل نهاية سبتمبر أصبحت المسألة شائعة فى انجلترا • وهنا أيضا يصــف تشرشل رد الفعل فى انجلترا فيقول : « ان حادثة فاشودة عكرت صفو الابتهاج العام ، فالشعب الانجليزى فوجىء بأن دولة صديقة ــ بدون أية اشارة لها ــ قد حاولت أن تسلبه ثمرة انتصاراته • وأدرك الآن أنه بينما هو يكرس نفسه لأعمال حربية عظيمة فى وضح النهار وأمام العالم كله ، ويجهز مشروعا قد وطد العزم عليه، كانت هناك عمليات مضللة ــ تجرى فى الخفاء ــ فى وسط افريقية لغرض دنىء هو حرمانه من نتيجة أعماله • ولقد صمم على أن يقف ضد هذا السلوك » •

وشنت الصحف البريطانية بأجمعها حملة على الفرنسيين • ومن حـــين لآخر كانت تنتقد الفرنسيين باعتدال ، جريدة حرة كالمانشستر جارديان ، ولكن هنـــاك صحف كثيرة لهجتها حادة

وعبارتها قاسية ، فتصف فريق مارشان بأنه «عصابة من المغيرين» . وكانت الجرائد لا تطيق المفاوضة أو أى مناقشات معقدة . واعتبر البريطانيون بعثة مارشان مظهرا عدائيـــا لانجلترا . واعتبروا مارشان دخيلا ، ويجب طرده ، حتى ولو أدى الأمر الى انذار ، ثم تجهيز حملة وحرب مع فرنسا .

وكان اجماع الساسة يعادل اجماع الصحف . ووضع الأحرار والاتحاديون والمحافظون أنفسهم تحت تصرف الحكومة . وطالبوا مجلس الوزراء باتخاذ موقف حاسم .

وقد يســأل سائل ، هــل كان اللورد سولسبرى ، رئيس الوزراء ، فى حاجة الى هذا التشجيع من الساسة ومن الصحف ؟ ومهما كان رأيه بالنسبة للمسألة ، فانه منذ وقت طويل كان يرى أن الرأى العام الانجليزى لا يرضى بسياسة منح امتيازات ما فى مسألة النيل . ولقد أنذر الفرنسيون مرارا بأن وزارة الخارجية البريطانية لن تبحث أية مطالب فى أى جزء من وادى النيل . وبعد موقعة أم درمان أرسلت تعليمات للسير ادموند مونش ، سـفير بريطانيا فى باريس ، بأن يخبر وزارة الخارجية الفرنسية بأن «كل المناطق التى كانت تابعـــة للخليفة ، قد انتقلت الى الحكومتين الانجليزية والمصرية » ، وأن بريطانيا غير مستعدة للمناقشة فى ذلك . وفى أثناء المجادلة التى أتت بعد أخبار مقابلة كتشنر بمارشان أصر سولسبرى على رأيه ، ورفض التحدث عن المطالب الفرنسية حتى يستدعى مارشان .

وعلينا أن نبحث الآن الموقف كما ظهر فى باريس . وقبل كل شىء يجب أن نتذكر أن خريف وشتاء ١٨٩٨ - ١٨٩٩ كان من أحرج الأوقات فى التاريخ الداخلى للجمهورية الثالثة قبل الحرب العالمية الأولى . فقد دخلت قضية دريفوس ، هذه القضية المشهورة التى يرجع تاريخها الى ســنة ١٨٩٤ ، فى مرحلتها الحاســمة .

وكانت مسألة دريفوس مأساة ظلت مدة عشر سنوات تقيم الفرنسيين وتقعدهم • وتتلخص فى أن « ألفرد دريفوس » أحد ضباط الجيش، اتهم سنة ١٨٩٤ بالخيانة العظمى ، اذ وجهت اليه تهمة بيع وثائق حربية لحكومة أجنبية • وعقد المجلس العسكرى ، الذى كلف النظر فى قضية الضابط المشار اليه ، عدة جلسات سرية ، انتهت بادانته والحكم عليه بالطرد من الجيش وبالسجن المؤبد • وفى سنة ١٨٩٦ ، حيث كادت هذه القضية تتوارى عن الأنظار ، ظهر على المسرح الضابط بيكار ، وكان قد عين مديرا لادارة المخابرات ، ومن اختصاصها حفظ الأسرار الحربية ، وتبين له أن دريفوس برىء ، وأنه دست عليه بعض المستندات ، وأنه كان ضحية مؤامرة فى الجيش ، واحتج على ذلك ففصل من وظيفته • وسرعان ما انقسمت فرنسا الى قسمين : أغلبية ضد دريفوس ، وكان قوامها حزب المحافظين ورجال الدين الكاثوليك • وأقلية تطالب باعادة المحاكمة، وكان قوامها لفيفا من المصلحين المستنيرين ، اشتهر منهم الروائيان « أناتول فرانس » و « اميل زولا » ، والسياسى الصحفى « جورج كلمنصو » والمهم أنه فى أثناء أزمة فاشودة بلغت قضية دريفوس ذروتها ، واتخذت طابع حرب أهلية • وامتلأ شهر أكتوبر سنة ١٨٩٨ بالمظاهرات والمنازعات والاشاعات من كل نوع ، وبالخوف الهائل والفزع • ولا داعى للاسترسال فى موضوع قضية دريفوس، ويكفى القول أنه قضى بتبرئته فى سنة ١٩٠٦ وأعيد الى الجيش •

ويمكن أن نتصور أنه وسط هذه الحالة التى خلقتها قضية دريفوس ، لم يبق للفرنسى العادى ، الذى لم يكن لديه اهتمام كبير بشئون المستعمرات ، أى مجال للتفكير فى مصر والسودان ، وأما دعاة التوسع والاستعمار النشيطون فبطبيعة الحال كانوا يتتبعون سير الحوادث باهتمام بالغ • ويبدو أن هذه الدوائر اعتقدت أن استرداد الخرطوم واثارة مشكلة السودان بعامة ، سوف تنتهى باستئناف المباحثات بين انجلترا وفرنسا بشأن مصر •

والاتجاه الملائم الذى كان يجب على الحكومة الفرنسية الاخذ به فى ذلك الوقت هو الاتجاه الودى ، ففرنسا كانت فى أزمة داخلية عنيفة ، وغير مستعدة تماما لأن تخوض غمار الحرب ، وموقف مارشان كان محفوفا بالأخطار ، كما أن الانجليز رفضوا باستمرار تحديد مطالبهم أو بحث مطالب غيرهم. فمن البداية قال سولسبرى، رئيس الوزارة البريطانية ، ان الرأى العام البريطانى لا يحتمل أى عرض بمنح أية دولة امتيازات فى أعالى النيل ، ونتيجة لعدم رغبة الانجليز هذه فى مناقشة المسألة ، ولتعصب الصحافة البريطانية، لم يسلم دلكاسيه ، وزير الخارجية الفرنسية ، وأوضح رأيه قائلا انه لا يمكن سحب مارشان مالم توافق الحكومة الانجليزية على المفاوضة . وردا على هذا رفض سولسبرى رفضاباتا أى بحث حتى يجلو الفرنسيون من مركزهم .

ومن الممل جدا أن نذكر بالتفصيل الحجج والمناقشات ، التى قدمت فى الأسابيع التالية لاثبات أو عدم اثبات حق الفرنسيين فى وجودهم فى فاشودة ، اذ أنه منذ حرب القرم لم يصب نزاع دولى بمثل هذه المناقشات البيزنطية المتناقضة . وذكر ولفرد بلنت فى مذكراته أن كلا من الجانبين كان مخطئا . ولاحظ مسيو كوشرى ، وهو من أقدر من كتبوا فى الموضوع، أن حجج الفرنسيين والبريطانيين كانت فى الأصل واحدة ، وانما المتعب أن الحجة نفسها لم تكن تقدم من كل من الجانبين فى وقت واحد . لقد أخلى المصريون السودان تحت ضغط الانجليز وأوامرهم ، فما مركزه بعد ذلك من ناحية القانون الدولى ؟ كان رأى أعظم المشرعين الفرنسيين مثل دسبانيه وبونفس هو أن حقوق السلطان العثمانى وخديو مصر مازالت قائمة ، وأن السودان لا يعدو مشاعا أو بلا صاحب . ومن ناحية أخرى كان من رأى بعض الناس أمثال سير صامويل بيكر ، وسير فردريك لوجارد أن المنطقة قد اخليت وانها سوف تتبع أول دولة تستطيع آخذها من المهديين . ولقد ضمت الحكومة البريطانية

أجزاء كانت تابعة لمصر على البحر الأحمر وفى أوغندة وأونيورو . كما ساعدت الايطاليين فى الحصول على أجزاء أخرى على البحر الأحمر ، وأجرت مناطق لملك البلجيك ، وفى اتفاقها مع ألمانيا سنة ١٨٩٠ طالبت بجزء كبير من المنطقة الاستوائية ليكون تحت نفوذ بريطانيا .

وكان للحرية التى تمتع بها الانجليز فى ضم أجزاء كانت تابعة لمصر أثر فى أن هانوتو ، وزير الخارجية الفرنسية ، فى سنتى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ ، أصر على رفضه نظرية أن السودان مشاع ، وأكد حقوق الخديو والسلطان . وبالرغم من هذا الموقف فان هانوتو بارك بعثة مارشان ، وكان هم السياسة الفرنسية فى السنين التى تلت ١٨٩٥ هو الحصول على جزء من الغنائم . وعندما قامت أزمة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ انعكست الآية ، وتغير موقف الدولتين المتنافستين ، فيقول الفرنسيون ان السودان مشاع وان لهم الحق هناك كما للايطاليين على البحر الأحمر ، أو للانجليز فى أوغندة ، أو للبلجيكيين فى لادو ، وقالوا انه بالرغم من صغر قوة مارشان فانه احتل منطقة بحر الغزال احتلالا تاما . وجوابا على هذا قال البريطانيون ان بريطانيا تعمل من أجل مصر . وعندما لم يقتنع الفرنسيون بهذه الحجة ضرب الانجليز على نغمة أخرى : لنفرض أن المنطقة ضاعت بالنسبة لمصر تماما ، وأنها تبعت للدراويش ، فانها الآن استردت منهم وتتبع البريطانيين والمصريين . والحقيقة انه لا فرنسا ولا انجلترا كان لها أى حق فى التحكم فى مصر أو السودان ، أو أى جزء من وادى النيل ، فاذا جردت مناقشتهم من الدبلوماسية والدعاية الصحفية ، فهى لا تنطوى على شىء الا على روح الاستعمار والاستغلال ، وهذه لا تستند الى حق بل تؤيدها القوة .

ومن الواضح أن حجج الانجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت

لا دخل لها في الوضع النهائي للمسألة · وكما ذكرت كان سولسبرى ، رئيس الوزارة البريطانية ، مصمما على عدم الرضوخ، أو بحث أية امتيازات للفرنسيين وازاء هذه الحالة أصبحت المسألة مسألة قوة ·

وكان في الامكان أن تسحق قوات كتشنر البالغ عددها أربعون ألفا قوات مارشان ، ولكن ذلك معناه حرب بين انجلترا وفرنسا · وكانت لندن تدرك هذا جيدا · ولكن الحكومة لم تكن تخشى مثل هذا العمل ·

عندما انتهت أزمة فاشودة تقريبا ، كتبت جريدة التيمس تقول انه في سنة ١٨٧٨ كان البريطانيون يغنون بحماسة « لدينا الرجال ، لدينا السفن ، ولدينا المال أيضا » · أما في سنة ١٨٩٨، فقد قالت هذه الجريدة الكبيرة انه لم يكن هناك أي غناء ، فان البريطانيين لم يكونوا في حاجة الى تقوية الرأى العام ، اذ كانت هذه هي المرة الاولى التى تواجه انجلترا فيها أزمة كبيرة دون أدنى خوف ·

وكانت هذه الثقة العامة لها ما يبررها · فالسنوات الأخيرة شاهدت بناء كبيرا للسفن وزيادة عامة في الأسطول جعل سيادة بريطانيا في البحر أمرا مؤكدا ، فكان لدى انجلترا من السفن الحربية التى عمرها أقل من عشر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الاقل و٣٤ سفينة ، في مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا . وكانت انجلترا أقل من هاتين الدولتين في الطرادات والنسافات فقط · وقيل في أحلك أوقات الأزمة ، ان سفن الأسطول البريطاني الحربية تعادل سفن أساطيل فرنسا وروسيا وألمانيا مجتمعة ، وان السفن الحربية البريطانية متجانسة ومتشابهة ، ولذلك فهي أكثر انسجاما وعبر ناقد فرنسي عن رأيه قائلا انه لو تركنا جانبا مسألة احصاء السفن وعددها ، فان الأسطول البريطاني كان يعادل في القوة

أربعة أمثال الأسطول الفرنسى ، وأقوى من كل أساطيل أوروبة مجتمعة ٠

وكانت الاستعدادات البحرية البريطانية على قدم وساق طوال شهر اكتوبر ٠ ففى بورتسموث أعدت كل المهمات حتى تتمكن القوات الثقيلة من أن تبحر فورا وقت اللزوم ٠ ولم تعرف التفاصيل للتكتم الشديد على هذه العمليات ، ومع ذلك يبدو أن فرق بحر المانش ذهبت تجاه الساحل الفرنسى استعدادا لحصار السفن الحربية الفرنسية عند برست Brest وراقبت قوة أخرى مضيق جبل طارق لتمنع الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط من الخروج منه ٠ أما فى البحر المتوسط نفسه فوضعت قوة كبيرة بين مالطة وجبل طارق ، وكانت على استعداد لحصار طولون ، أو النزول عند بنزرت وأرسلت قوة أخرى الى الاسكندرية لحراسة قناة السويس ٠

وشعر الانجليز بأنهم مستعدون لكل الاحتمالات ٠ أما من الناحية الأخرى ، فقد استولى على الفرنسيين ذعر عام ٠ وكان اجماع العالم على أن الاسطول الفرنسى ثانى أسطول فى العالم بعد الأسطول الانجليزى ٠ ولكن السلطات البحرية الفرنسية كانت مشلولة الى حد ما لمدة طويلة نتيجة للنزاع المتواصل بين أفرادها ٠ وكان للساسة أيضا دخل كبير فى اضمحلال الاستعدادات البحرية الفرنسية ٠ وعلى أى حال ، كان يبدو أن الحالة فى سنة ١٨٩٨ تدعو تماما للشفقة ٠ فالأسطول الفرنسى فى بحر المانش كان مكونا من سفن حربية صنعت قبل سنة ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة ٠ وكانت الموانىء البحرية فى فرنسا نفسها وفى المستعمرات تقاسى نقصا كبيرا فى الرجال ، بينما كانت الورش غير مجهزة تجهيزا كافيا ٠ ففى برست وشربورج وطولون كان يمكن تشغيل ثلث المدفعيات فقط لنقص الرجال وقلة الذخائر ٠٠

وشعرت الحكومة الفرنسية فى آخر لحظة بخطورة الموقف ٠ فبعد أن أشعلت النار فى برميل فاشودة المملوء بالبارود ، هب الفرنسيون فزعين ، مندهشين وعاجزين ٠ وكانت نغمة الصحف البريطانية تنم عن الروح الحربية وكان هناك اتجاه عام فى انجلترا بأن الوقت قد حان لتصفية المسائل مع فرنسا ٠ وفى كل الدوائر البريطانية كانت فكرة الحرب رائجة حتى بين أعضاء الوزارة أنفسهم ٠

وصلت تقارير بكل ذلك الى باريس طوال شهر اكتوبر سنة ١٨٩٨ ٠ وفى وزارة البحرية الفرنسية كان هناك اتفاق عام فى الرأى على أن الانجليز قد يثيرون حربا ليتخلصوا من الأسطول الفرنسى قبل أن يقوى الأسطول الألمانى الحديث العهد ٠ وكان الضباط الفرنسيون يرون أن فرنسا غير قادرة على الحرب فى البحر ٠ كما أن وزير البحرية الفرنسية كان مقتنعا بأن الحرب ضرب من اليأس ، واتفق معه فى الرأى رئيس الوزراء بريسون ورئيس الجمهورية فوريه ٠

وكانت سياسة دلكاسيه ٠ وزير الخارجية الفرنسية ، اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل شيئين أولهما اتمام الاستعدادت البحرية الهامة ، وثانيهما محاولة ضم روسيا الى مساعدتها ٠ ولذا طلب من الانجليز امهاله بعض الوقت حتى يأتيه تقرير من مارشان ، وحتى يشرح له الكابتن براتييه الذى استدعى الى باريس لحل الموقف ٠ وفى الوقت نفسه أخذت فرنسا فى تحصين سواحلها حتى تكون فى حالة دفاع على الأقل ٠ فأرسلت الذخيرة والجند على وجه السرعة الى برست وشربورج ، وأعدت السفن بسرعة للعمل ٠ وفى طولون كان العمل يجرى ليل نهار فى مراسى السفن ، وألغيت كل الأجازات ٠ وأعد كل الأسطول الموجود فى البحر المتوسط ٠ ووضع تحت امرة الأميرال فورنييه ،

وهو من أقدر الضباط البحريين • وفى النهاية استطاع رئيس الجمهورية فوريه أن يقنع رئيسى اللجنتين الماليتين فى مجلسى الشيوخ والنواب باعتماد صرف نحو مائة مليون فرنك بدون موافقة البرلمان ، وبدىء فى عملية اصلاح واسعة فى الأسطول •

وبينما كانت الأزمة فى أوجها أتى وزير خارجية روسيا الى باريس فى ١٥ من أكتوبر ، وتبعه بعد أيام قلائل وزير الحرب الروسى الجنرال كورباتكين • ولم يعرف الى الآن ما دار فى المحادثات التى امتدت أياما عدة ، ولو أنه ليس من الصعب أن نخمن • فالعلاقات الفرنسية الروسية لم تكن على خير ما يرام فى ذلك الوقت • وكانت الجماعات السياسية فى فرنسا ، اليمينية منها واليسارية ، تشعر بخيبة أمل بالنسبة للتحالف مع روسيا ، وهو تحالف لم يبد أكثر من كونه ترتيبا للاحتفاظ بالوضع الراهن فى أوروبا ولاستدراج فرنسا الى حظيرة السياسة الألمانية • وفى أغسطس سنة ١٨٩٨ أصدر القيصر الروسى بغير سابق اتفاق مع فرنسا منشوره الشهير للسلام • وأيقن الفرنسيون أن الروس لا يرغبون فى مساعدتهم ، ويتلخص رد الفعل العام فى الدوائر السياسية الفرنسية فى العبارة الآتية : تخلوا عنا •

أما من ناحية الجانب الروسى فكان عدم الرضا أيضا ظاهرا : ما فائدة حليف مشلول بمرض حاد كمسألة دريفوس ؟ ماذا يستطيع أن يفعل الانسان بوزارة متطرفة فى السياسة مثل وزارة بريسون التى يعضدها رجال أمثال كلمنصو وجوريه ورانك وآخرون ممن يعرفون بعدائهم للتحالف الروسى الفرنسى ؟ •

وأعلنت الصحافة الروسية كراهيتها للحكومة الفرنسية وعزمها على عدم مساعدتها • « عند ما يشعر الرجل بأن امرأته لم تعد جميلة يبدأ فى الاعتقاد بأن مهرها كان ضئيلا » ، كتب هذا مراسل جريدة التيمس البريطانية فى باريس فى ١٤ من أكتوبر

مبينا أنه لم يكن هناك فى الجبهتين الروسية والفرنسية إلا السخط والتراشق بالتهم . وعلى العموم فان وزير الخارجية الروسية أكد لدلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية أن روسيا ستحترم التزاماتها، ولكن تعبئتها العسكرية ستستغرق وقتا طويلا ، وأسطولها لا يستطيع ترك موانئه فى الشتاء لتجمد المياه . ولذلك فهو ينصح فرنسا بأنه من الخير لها أن تسلم بمطالب انجلترا ، وبخاصة لأن مستنقعات فاشودة ليست مسألة حيوية لفرنسا ، وبعد ذلك يمكن لروسيا أن تساعد فرنسا فى اثارة المسألة المصرية جميعها مرة أخرى .

ومن الصعب أن ندرك كيف يغيب عن بال أى شخص أن يفهم حقيقة الموقف بين روسيا وفرنسا بعد قراءة المقالات فى الصحف الفرنسية . فمثلا كتبت جريدة الشمس Soleil الفرنسية فى ١٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٨ تقول : « لقد أرسلنا بحارتنا الى كييل بمناسبة افتتاح قناة البلطيق ، وذلك لنرضى روسيا . ووافقنا بعد الحرب اليابانية الصينية على أن نستخرج الكستناء من النار لروسيا ، وبذلك استطاعت روسيا أن تكسب منشوريا وتحصل على مركز ممتاز فى بحار الصين بدون انفاق روبل واحد (والروبل هو ريال روسى ويعادل عشرة قروش) ، وبدون المخاطرة بأى قوزاق ، (والقوزاق هو الفارس من جنوب روسيا) ، كما أعطينا روسيا مليارات عدة من الفرنكات من احتياطينا الذى كان من الممكن أن ننتفع به فى الداخل . وفى مسألة فاشودة لم ترفع روسيا أصبعا للدفاع عنا . وهى من غير شك تعتبر أنها ردت الخدمات التى أديناها لها ببعض البرقيات التى أرضت غرور مسيو فيلكس فوريه وببعض النياشين التى أرضت مسيو هانوتو » .

والمهم أن الحالة فى فرنسا وقتذاك كانت تدل على الحيرة والعجز التام . ففى وسط الاضطراب الداخلى وجدت فرنسا نفسها غير مستعدة عسكريا وبدون المساعدة التامة من حليفتها . وكان

الانجليز عازمين على السير الى نهاية الشوط . ولذلك لم يكن هناك أى حل للفرنسيين غير التسليم • وفى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٩٨ بدأت الصحافة الفرنسية تتكلم عن القرار المنتظر • وناقش مجلس الوزراء الفرنسي الموضوع فى ٣ من نوفمبر • وفى مساء اليوم التالى أذاعت شركة هافاس الفرنسية البلاغ الرسمى الآتى : « قررت الحكومة الفرنسية سحب بعثة مارشان من فاشودة • وقد اتخذ مجلس الوزراء هذا القرار بعد دراسة عميقة للمسألة » • وبذلك عرف العالم أن فرنسا قررت الانسحاب من فاشودة بلا قيد ولا شرط •

وكان مارشان قد ترك قواته فى فاشودة وذهب الى القاهرة عن طريق النيل ، بدون تصريح من باريس ، فأمر بأن يعود ثانية الى فاشودة لينظم رحيل قواته • وكان عليه أن يترك المكان المتنازع عليه ويسافر عن طريق السوباط الى الحبشة ومنها الى الممتلكات الفرنسية على البحر الأحمر • وفى ١١ من ديسمبر سنة ١٨٩٨ أنزل العلم الفرنسى نهائيا • ورحل مارشان ورجاله ، وبعد مشقة وصلوا الى العاصمة الحبشية ، وفى الربيع كانوا فى باريس •

وبعد قرار الحكومة الفرنسية بالانسحاب من فاشودة ، ألقى تشمبرلين ، وكان بوق الامبرياليزم الاقتصادى والاستغلالى ، خطبة فى مانشستر فى ١٥ من نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، قال فيها انه يأمل أن يكون الفرنسيون فى سحبهم مارشان قد اقتنعوا بالمبدأ الذى كانت بريطانيا تقاومهم من أجله وبوجاهة موقف الانجليز • ثم انتقل تشمبرلين الى أن مسألة فاشودة ما هى الا رمز ، وأن المهم ليس المدينة نفسها وانما السيطرة على وادى النيل • وذكر كلاما كثيرا عن مصر ، وأن بريطانيا ضحت تضحيات عظيمة حتى وصلت مصر الى درجة من الرفاهية وأن كل التضحيات التى بذلت تصبح عبثا اذا وقعت منابع النيل فى يد دولة معادية ، أو دولة يحتمل

فى أى ظرف من الظروف أن تتحول الى دولة غير صديقة ، ثم يوجه تشمبرلين الكلام للسياسيين الفرنسيين فيقول ان على الساسة الفرنسيين أن يقلعوا عن خططهم التى نهجوا عليها سنوات طويلة، والتى لا غرض لها الا عرقلة السياسة البريطانية فى كل جزء من أجزاء العالم ٠

ويؤخذ على هذه الخطبة الاشارة الى التضحيات البريطانية من أجل مصر ، ويجوز أن يهضمها المستمع الانجليزى ، ولكن هذه النغمة كان فى الامكان أن نسمعها من أية دولة استعمارية أخرى ٠ ففرنسا أو ايطاليا بلا شك كانت ترحب بمثل تضحيات الانجليز أو أكثر منهـا نظير السيطرة على كل وادى النيـل ٠ والواقع أن بريطانيا تذرعت بهذه الحجج فى تلك الأثناء ، لأن هذا كان فى مصلحتها ، اذ جنبها عدم الانسحاب من مصر من جهة ، ومن جهة أخرى أفادها فى ابعاد الفرنسيين والبلجيكيين والأحباش وغيرهم عن منطقة أعالى النيل ٠ وقد كان لحادثة فاشودة وقع شديد فى نفوس المصريين وأثر بالغ فى مصير المسألة المصرية وفى الحركة الوطنية فى مصر ٠

تبين لنا مما تقدم أن الأزمة السياسية اشتدت بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان ظن المصريين أن تتمسك فرنسا بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ٠ وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق ، اذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لاتقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضى فى سياستها الى النهاية ، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل الى حرب طاحنة بينهما كما رأينـا ، فعظم بذلك شأن المسـألة المصرية ، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال ، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخـر الأمر ، وخشيت مغبة الحرب اذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها،

فسلمت بوجهة نظر انجلترا ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ من سبتمبر ١٨٩٨ · فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية في مصر ، لأنه دل على أن فرنسا لا تنوي معارضة انجلترا في احتلال وادي النيل والتصرف فيه كما تشاء ، ودل على نية الانجليز في دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين في الاستقلال وجنح بعض رجالات مصر الى الولاء للاحتلال البريطاني واكتساب رضاه ، اذ رأوا في حادثة فاشودة برهانا جليا على رسوخ أقدامه في البلاد ·

كتب مصطفى كامل الى أخيه علي ، وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان كتابا قال فيه : « ··· ان الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشـــودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن ، وكادوا يخونون بلادا أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ؛ ولكنى ثابت على خطتي حتى الممات ، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الأول أو الثاني فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا في حياتنا ؛ فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » ·

ولقد صدقت نبوءة مصطفى كامل ، اذ استطاعت مصر ، بعد كفاح طويل مرير ، وبعد قيام ثورة ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢ أن تطرد المستعمرين البـــاغين ، وأن تتحرر من كل ألوان التسلط والاستغلال وأن تتبوأ مكانتها اللائقة بين دول العالم ·

كتبت مدام جولييت آدم كثيرا عن حادثة فاشودة ، ومنه قولها في مقالة لها في فبراير سنة ١٩٠٤ عن أخطاء الســـياسة الفرنسية : « فاشودة ! انها الضربة القاضـــية ! فقد قلت في رسائلي قبلا ان غير واحد من ســـاسة فرنســا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصـــالح مصر سريعا

43 — Velay, Et. : Les Rivalités Franco-Anglaise en Egypte (1876-1904). Nimes, 1904.

44 — William L. Langer : The Diplomacy of Imperialism (1890-1902), New York, 1951.

45 — Woolf, Leonard : Empire and Commerce in Africa. A Study in Economic Imperialism. New York, 1920.

46 — Wylde, Augustus B. : Modern Abyssinia, London, 1901.

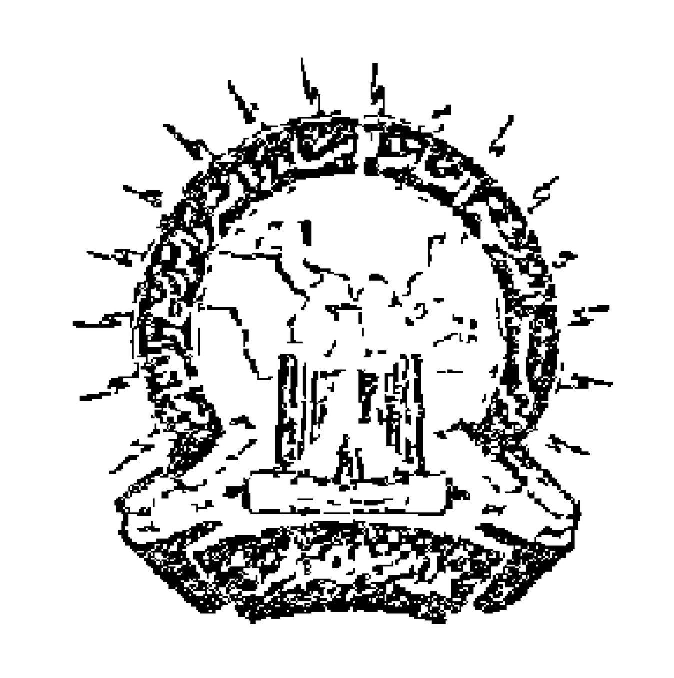
47 — Zetland : The Life of Lord Cromer, London, 1932.

صفحة

الموضـوع الصفحة



مطابع الدار القومية للطباعة والنشر
ت : ٤١٠١٢ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٥٨٨



مطابع الدار القومية للطباعة والنشر
ت : ٤١٠١٢ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٥٨٨

